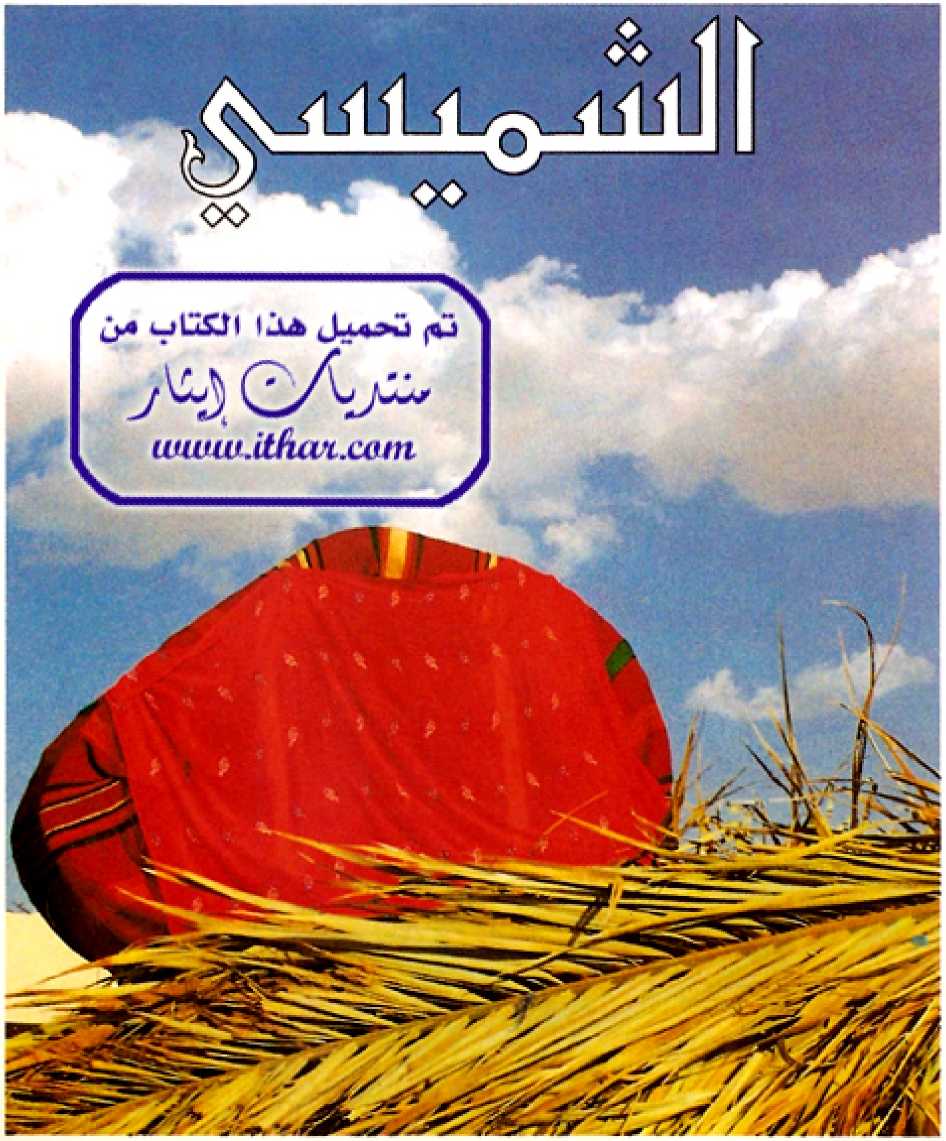
الطبعة الثالثة

أطياف الأزقة المهجورة

تركي الحمد

الشميسي



دار الساقي

هداء

ووفاء

ـ ١ ـ

فقد اشترى كل ما يحتاج إليه. . . سريراً
لابس، طاولة وكرسياً من الخشب، رفاً
يو وجهاز تسجيل مستعمل، وحنبلاً أزرق
، وجمالاً خفياً تحسه النفس قبل أن تراه
الحراج ولم يكلفه ذلك كثيراً، وتبقى معه
الدمام، وهو كاف حتى يستلم أول مكافأة
ة إحدى النافذتين مستودعاً صغيراً يضع فيه
علب حليب سائل مركز وجبنة صفراء،
حبة برتقال أو تفاح أو موز، وبقايا خبز
ما تلقى بعد أن تجف دون أن يمسها أحد،
د على مخزونه القليل. وقد اتحفته موضي
ع إبريق لغلي الماء، وعدد من البيالات،
شبي بعد أن زينه بقطعة من القماش الأزرق
جانبه كان موقد الغاز، رغم احتجاجات
داعي لأن يعد الشاي بنفسه، فهي موجودة
كنه أقنعها بنومها الباكر وحاجته إلى الشاي

في آخر الليل، فقبلت على مضض، ولكنها استمرت في إعداد الشاي له دون أن يطلب ذلك ولم يعترض طالما أن ذلك يرضيها. والحقيقة أنه لم يكن يستسيغ الشاي الرياضي الخفيف، الذي يكون عادة شديد الحلاوة، وبلون أقرب إلى بقايا الشاي منه إلى الشاي.

لقد أصبحت غرفته جميلة حقاً رغم أثاثها البسيط، أجمل من غرفتي أحمد وعبد الرحمن الممتلئتين بأثاث فاخر وكثير، ولكن دون أي لمحة من الجمال. وكانت موضي تنظف وترتب غرفته يومياً بنفسها، وترش على فراشه ماء الورد، وأحياناً عطر الليمون الذي يجعلها في غاية البهجة، غير آبهة بامتعاضات واحتجاجات عبد الرحمن على ترك غرفته لسعيد كي ينظفها قائلة له: «أنت طمل يا دحيم... أنت حوسة وغرفتك حوسة... غرفة هشام لا تحتاج إلى أي جهد لتنظيفها وترتيبها، أما غرفتك... يا ساتر... تحتاج إلى بلدية كاملة»، ثم تضحك وتنصرف تاركة عبد الرحمن ينخر ويتحسس أنفه من شدة الغضب، كعادته عندما يغضب ويجد نفسه عاجزاً عن فعل شيء. ولم يكن هشام يألو جهداً في تخفيف أعباء موضي، فقد كان يقوم بترتيب فراشه حال نهوضه من النوم، ولم يكن ينام فيها غالباً إلاّ بعد الظهر، أما الليل فهو على السطح مع الآخرين، عدا تلك الذرات من الغبار العنيد التي تتحدى كل محاولات التنظيف.

وتحولت الغرفة إلى ملجأ لأبناء خاله يقصدونها كل حسب حاجته. فأحمد يهجم عليها في أنصاف الليالي ويلتهم ما يجد من طعام ويمتع نفسه بشاي حار، دون أن يكلف نفسه ولو لمرة واحدة أن يجلب معه طعاماً بدل الذي يستهلك. وإذا أراد عبد الرحمن التدخين، كانت الغرفة هي المكان المفضل، وقد صرح عدة مرات بإمكانية جلب فتيات إلى

الغرفة، ولكن هشاماً كان حازماً في هذه النقطة، ويرضخ عبد الرحمن للأمر متأسفاً على عدم معرفته قيمة هذه الغرفة قبل أن يأتي هشام. أما حمد، فقد كان يأتي بمخزونه من العرق، الذي لا يتجاوز القارورة أو بعضها، وبعض الأحيان يكون في كيس بلاستيكي يضطر هشام لإفراغه في قارورة كي لا يتمزق وينساب ما فيه وتفوح رائحته الكريهة في الغرفة، ويخبئه في صندوق البيالات، إذ كثيراً ما يعود إلى المنزل وهو لم ينتشِ بعد فيلجأ إلى المخزون في الغرفة ويتناول كأساً أو كأسين، حين لا يكون مستيقظاً في المنزل أحد إلاّ هشام يقرأ أو يستذكر. وقد حاول حمد عدّة مرّات أن يجعل هشام يشرب معه، ولكنه كان يرفض بحزم، فيبتسم حمد ويهز رأسه قائلاً: «حمار... مع الاحترام... مثل عيال خالك، لا تدرون عن السعادة التي ترفضون...»، ثم يلقي بالعرق في جوفه ويتحدث دون أن يسمعه هشام الذي يستغرق في الكتاب الذي بين يديه. كان هشام خائفاً أول الأمر من اكتشاف موضي للعرق، وصارح حمد بذلك، فكان رده ضحكة أخفت عينيه داخل رأسه وهو يقول: «لا عليك... موضي لا تعرف الفرق بين الماء والعرق... كما أنها لا تدري ما هو الخمر. وقد كنت أضعه في غرفتي، وعندما كانت تتلطف بعض الأحيان وتنظفها، لم تكن تلقي بالاً لما تجد، وأنت لديها فوق مستوى الشبهات... لا عليك منها أو من سعيد... هذا الغلام الأبله»، ثم يضحك حمد بقوة ويعود إلى كأسه. وعندما سأله لماذا لا يبقي العرق في غرفته، أجاب أن الإحتياط واجب، وهو بحاجة إلى أنيس على أية حال. ولم يستطع هشام أن يعترض، فهم أصحاب البيت وهو الضيف، كما أنه لا يريد استعداء أحد من أبناء خاله مهما كان الثمن.

وكان حمد محقاً إذ عندما وجدت موضي القارورة سألت هشام عن السائل الكريه الذي بداخلها، أخبرها أنه شيء له علاقة بالدراسة، فلم تشك بشيء، وقالت وهي تتنهد: «لو تركني الوالد أكمل تعليمي لكنت اليوم مثلك... ولكن الحمد لله... أستطيع القراءة على الأقل... معي الإبتدائية»، قالت وقد لمعت عيناها من وراء الغدفة، ثم بحسرة: «مسكينة أُختي منيرة... لم تدخل المدرسة على الإطلاق... سامح الله الوالد... كل شيء فيه زين إلاّ خوفه من تعليم البنات... ايه... ما علينا... الخيرة فيما اختاره الله»، ثم تتناول البيالات المستعملة وتغادر لتنظيفها. وأصبحت موضي بعد ذلك تحافظ على القارورة بحرص شديد، حرص أُم على وليدها، وكان هشام يبتسم وهو يشعر بذاك المغص في داخله عندما يراها تفعل ذلك. أما محمد، فقد كان لا يراه إلاّ ساعة الغداء أحياناً، أو عندما يفطرون جميعاً، فقد كان مشغولاً طوال الوقت بعمله وزوجته وطفليه في الطرف الآخر من المنزل.

ـ ٢ ـ

قبل بدء الدراسة بيومين، وتحديداً يوم خميس، كان على موعد مع مفاجأة جعلت آلام المعدة تعود إليه من جديد. كان يسترخي وعبد الرحمن في غرفته بعد الغداء، وهو يحاول أن يضيع بين أسطر مجلة كان يتصنع قراءتها، في محاولة للهرب من شكاوى عبد الرحمن التي لا تنتهي من أبيه ومشاويره وصلاة الفجر، ومن أخيه أحمد وبخله الذي زاد عن حده. وعرف أن عبد الرحمن في غاية الضيق والغضب فعلاً، عندما بدأ كلامه يخرج من أنفه وهو ينخر ويشد أنفه بين الفينة

والفينة، وهو يسترجع سلوك أحمد على الغداء. فعندما انتهى الوالد وغادر كعادته، أخذ أحمد قطع لحم «الحاشي» الباقية، وأخذ يلوكها بسرعة ثم يعيدها إلى «التبسي». كان محمد قد غادر بعد الوالد مباشرة، فهو لا يأكل إلاّ قليلاً لعلمه أن العنود تنتظره على غداء خاص بعائلته الصغيرة. أما حمد، فهو الغائب الحاضر دائماً، فقد ترك المائدة دون أية مشاعر، فهو عادة لا يأكل جيداً إلاّ بعد القيلولة التي يعوض بها ما فاته من نوم الأمس.

لم يبقَ على السفرة إلاّ أحمد وعبد الرحمن وهشام الذي فوجىء بهجوم أحمد على اللحم ومضغه ثم إرجاعه. غير أن عبد الرحمن لم يستسلم، فقد أخذ قطعة من اللحم الممضوغ وبدأ يلوكها بسرعة، فما كان من أحمد إلاّ أن أخذ يعبث بأنفه ثم يمسك قطعتي اللحم الباقيتين. فنهض عبد الرحمن من على المائدة وهو ينخر قائلاً: «لعنة الله عليك يا أحمد... كل شيء عندك حلال... ما تحترم نعمة ولا ناس»، وسط ضحكات أحمد الذي أخذ بعدها يأكل بهدوء، وقطرات من الدهن تنساب من بين أصابعه وهو يجبل لقمة ضخمة من الأرز بعد أن اطمأن على سلامة اللحم.

كان عبد الرحمن «يبرطم» عندما دخلت موضي فجأة وهي تقول لهشام: «هناك شخصان يسألان عنك عند الباب...» شعر وكأن رصاصاً ثقيلاً استقر في معدته، وخطر السجن على باله مباشرة... لقد جاء دوره الآن لا محالة. لا بد أنهم من الجهاز... نهض من السرير بتثاقل وقلبه يخفق بشدة، وقد ابتلت خصلات شعره تماماً في زمن قصير جداً، ومع ذلك فهو يشعر ببرودة شنيعة، وقشعريرة تسري في جسده، رغم أنهم في آب. هبط الدرجات المؤدية إلى الخارج، وهو يجر خطاه جراً

في غاية الإضطراب، فيما كانت موضي تسير وراءه دون أن يحس بها.

كان الباب مغلقاً نصف إغلاقة، أو هو مفتوح إلى نصفه، ففتحه بيد مرتعشة غاية في البلل، وكاد أن يغيب عن الوعي وهو ينظر إلى منتظريه، متوقعاً أن يمسكا به من تلابيبه بمجرد رؤيته، غير أن عينيه اتسعتا على أشدهما وهو يتبيّن ملامح الشخصين... لقد كانا عبد المحسن التغيري ومحمد الغبيرة... وأحس كأن كل صبا نجد قد تجمع تلك اللحظة ليحاصره في نشوة لا توصف. وبدون شعور، اندفع نحوهما وهو يعانقهما بعنف قائلاً: «كم أنا سعيد برؤيتكما...»، ثم يضحك ويعانقهما من جديد وقد افتر ثغره عن تلك الأسنان البيضاء الدقيقة، وهما في غاية الاستغراب من كل هذا الشوق الذي يبديه هشام، وهذه العاطفة المتدفقة التي لم يلحظاها في سلوكه عندما كانوا في القصيم.

دعاهما للدخول، وصعد الجميع إلى غرفته. وهناك عرّفهما على عبد الرحمن، وأراد أن يعد بعض الشاي، إلاّ أن موضي كانت أسرع، إذ ما هي إلاّ لحظات، وكان سعيد قادماً بالشاي، وإلى جانبه طبق صغير به بعض البسكويت المملح الذي لا يقدم عادة إلاّ للضيوف الغرباء، وخاصة «الحريم». وما أن استقر المجلس بالجميع على الأرض، حتى ناول عبد المحسن هشام كيساً ورقياً صغيراً كان يحمله، وهو يقول مبتسماً:

ـ لم أشأ أن آتي بيد خالية... فجلبت لك شيئاً مما زودتني به الوالدة لهذه الغربة...

ثم وهو يضحك:

ـ إنها تعتبر الرياض والإقامة فيها غربة ما بعدها غربة...

وابتسم هشام وهو يتناول الكيس ويفتحه على عجل، فإذا في داخله بعض أقراص الكليجا. أخرج قرصين من الأقراص الأربعة الموجودة في الكيس، ووضعهما في صينية الشاي، ثم لف القرصين الآخرين بعناية ووضعهما في مخزنه الصغير على النافذة، وكان عازماً على تغيير مكانهما لاحقاً خشية هجوم أحمد في أنصاف الليالي. ثم عاد إلى مجلسه وهو يقول بدعابة:

ـ يا لها من مفاجأة سارة... أنتما والكليجا.

ثم ابتسم برقة وهو يصب الشاي ويقدمه للضيوف، فيما كان عبد المحسن يقول بحماس:

لا... وليست أي كليجا... إنها صنع يدي الوالدة... كل شيء فيها أصلي، الهيل والسكر والدبس والدقيق والودك... كل شيء.

تناول هشام قرص كليجا واقتطع لنفسه جزءاً منه أخذ يلوكه بهدوء ولذة، وهو يرتشف رشفات سريعة من الشاي الساخن، ثم قدم باقي القرص لعبد الرحمن وهو يقول، وقد تناثرت بقايا الكليجا من فيه:

ـ ولكن لم تقولا لي... كيف عرفتما أين أُقيم؟

ـ المسألة بسيطة،

أجاب محمد:

ـ لقد أخبرتنا في القصيم أنك سوف تعيش عند خالك في الشميسي، سألنا عنه في الحي، فدلنا على منزله أكثر من واحد... هذه هي القصة.

وعلق عبد المحسن قائلاً وهو يضحك:

ـ وعلى أية حال، فالبدوي يمشي ويسأل... أليس كذلك؟

وضحك الجميع، فيما كان هشام يسأل:

ـ منذ متى وأنتما في الرياض؟

ـ لنا أكثر من أسبوع...

أجاب محمد وهو يقضم بسكويتة مملحة. وهنا قال هشام بلهجة عتاب:

ـ أسبوع يا يهود!... أسبوع ولا تسألان عني إلاّ اليوم، والدراسة توشك أن تبدأ!

ـ كنا مشغولين،

قال عبد المحسن:

ـ بحثنا عن منزل مناسب للإقامة أولاً، ثم أثثناه، وكان علينا قبل ذلك تقديم أوراقنا للجامعة، وكدنا ألا نُقبل، كنا متأخرين عن موعد التقديم، ولكن الله قيض لنا واسطة من معارف والد محمد سهلت الأمر، ولم نرتح قليلاً إلاّ يوم أمس... وبحثنا عنك اليوم.

وران صمت لا يقطعه سوى صوت ارتشاف الشاي، وقضم البسكويت المملح، فيما كان عبد الرحمن يلقي في فمه آخر قطعة من الكليجا، ثم قطع هشام الصمت قائلاً:

ـ لم تقولا لي بعد... أين أقمتما؟

ـ في منزل ليس بعيداً من هنا،

أجاب محمد، فيما قال عبد المحسن:

ـ بيت نظيف وواسع، بأربع غرف وصالة فسيحة وسطح كبير، وإن كان مرتفع الإيجار قليلاً... أربعة آلاف ريال في السنة، فأصحاب

المنازل الرخيصة يرفضون تأجير العزاب... ولكن لا بأس، فنحن أربعة أشخاص نتقاسم الإيجار.

ـ أربعة أشخاص؟

تساءل هشام بعفوية...

ـ نعم.

أجاب عبد المحسن:

ـ فبالإضافة إلينا، هناك دعيس الدعيس ومهنا الطعيري... أنت تعرفهما.

وتبادل عبد المحسن ومحمد نظرات خاطفة وهما يذكران اسم مهنا الطعيري، فيما شعر هشام ببعض الإمتعاض عند ذكر الاسم، ولكنه حاول ألا يبدو ذلك على تعابير وجهه، فتشاغل بصب الشاي، فيما كان محمد يقول:

ـ لِمَ لا تأتِ معنا لنريك المنزل... إنه غير بعيد عن دوار أُم سليم.

وابتسم هشام عند ذكر دوار أُم سليم، وتذكر رقية ومثلثها العجيب، ثم نظر إلى عبد الرحمن وهو يبتسم، الذي ابتسم بدوره قبل أن يلقي بما تبقى من الشاي في جوفه.

ـ لِمَ لا... هيا بنا.

قال هشام وهو ينهض وفي أثره الآخرين. خلع هشام ثوب المنزل وارتدى ثوب الخروج، ولبس الغترة والطاقية، ودس قدميه في الحذاء النجدي الثمين، ثم انطلق إلى الخارج حيث كان الجميع ينتظرون. كان عبد الرحمن يلح على الشابين بضرورة تناول الغداء سوياً في اليوم

التالي، وأمام إصراره قبلا الدعوة، ودعياه لمرافقتهما إلى منزلهما، ولكنه اعتذر ببعض المشاغل، وهو ينظر إلى هشام بطرف عينه ويبتسم. وانطلق الثلاثة باتجاه شارع الشميسي الجديد، وهم يتحدثون بحبور عن ذكريات القصيم وكشتاته.

ـ ٣ ـ

كان المنزل يقع في زقاق ضيق متفرع من أحد الشوارع المتفرعة من دوار أُم سليم. منزل طيني، ببوابة حديدية ضيقة، يعلو الصدأ بعض أطرافها، تقود مباشرة إلى ممر قصير وضيق، تقع أوسع غرف المنزل على الجانب الأيسر للداخل، وعلى الجانب الأيمن يقع حمام صغير. وينتهي الممر إلى باب صغير يفضي إلى صالة تحتل معظم مساحة المنزل، ويقع على جانبها الأيسر غرفتان أصغر مساحة من الأولى. وتنتهي الصالة بباب يؤدي إلى المطبخ وغرفة في غاية الضيق متصلة بالمطبخ مباشرة. وعلى الجهة الأخرى من الصالة، يقع مدخل الدرج المؤدي إلى السطح. وفي المطبخ، كان هناك موقد غاز صغير، وزير فخار كبير غطي بلوح من الخشب، فوقه مغراف ماء كبير من الألمنيوم اللامع، وقدر طبخ متوسط الحجم وتبسي كبير، بالإضافة إلى إبريق لغلي الماء، وإبريق شاي، وبعض البيالات والملاعق ملقاة في حوض الغسيل دون ترتيب. وبالقرب من الغرفة الضيقة، كان هناك كيس أرز وكيس سكر، وكيس ملح خشن صغير، وصندوق شاي، وبعض علب معجون الطماطم، وكيس بصل، وعلبة سمن نباتي، ملقاة دون عناية، وبعض الصراصير تبحث عن قوتها، اختفت في الجحور الكثيرة المنتشرة حالما

دخلوا. أما السطح، فقد كان واسعاً حقاً، ويطل على الزقاق وبقية أسطح الجيران، التي كانت لا تخلو من إمرأة أو فتاة تنشر الغسيل، أو تعد فراش النوم، وقد غطت وجهها بغدفة رقيقة تُظهر أكثر مما تخفي.

كان عبد المحسن يريه المنزل، ثم عادا إلى الغرفة الواسعة، حيث كان محمد يجلس هناك وقد أعد الشاي. كانت أجمل الغرف وأوسعها، بمروحة بيضاء تتدلى من السقف، ونافذة كبيرة تطل على الزقاق، وحنبل أحمر اللون غطى أرضيتها بالكامل، بالإضافة إلى سرير معدني من نوع سريره، ومكتب للدراسة مع كرسي خشبي قاتم اللون، أما بقية الغرف فقد كانت بلا مروحة أو نوافذ. أما الغرفة التي تقع بجانب المطبخ فقد كانت فعلاً لا تطاق، شديدة الحرارة والرطوبة والعفونة والعتمة. وأخبره عبد المحسن وهم يحتسون شاياً داكن اللون وشديد المرارة والحلاوة معاً، أنه قد احتفظ بهذه الغرفة لنفسه، نظير دفع جزء من الإيجار أكبر مما يدفعه محمد ودعيس، وأن مهنا اختار الغرفة الصغيرة نظير جزء أقل من الإيجار.

وتحت نسمات حالمة من المروحة الدائرة بتكاسل وأنين، قال هشام بعفوية:

ـ غريب أمر الزير... لِمَ لم تشتروا ثلاجة. أليست أفضل من الزير؟

وتبادل محمد وعبد المحسن نظرات خاطفة، قبل أن يجيب هذا الأخير قائلاً:

ـ نعم... معك حق... كانت هذه هي فكرتنا في البداية، ولكن مهنا أقنعنا بألا ضرورة لذلك، طالما أننا نشتري حاجياتنا يوماً بيوم...

ثم تدخّل محمد قائلاً:

ـ من يكون مسؤولاً عن «العزبة» ذلك اليوم، يشتري ربع كيلو لحمة غنم بريال ونصف، أو نصف كيلو لحمة جمل بالمبلغ نفسه، وبعض حبات الطماطم، ثم يعد الكبسة... وأكثر الأحيان نعدها دون طماطم، بمعجون الطماطم فقط. وكما ترى، فإنه لا حاجة فعلاً للثلاجة، وليس هناك ما يمكن أن يوضع بها.

ـ وماذا بشأن الإفطار والعشاء؟

ـ كل واحد يدبر نفسه، هكذا اتفقنا... إلاَّ في المناسبات.

أجاب عبد المحسن.

ـ ولكن أليس من الأريح أن تشتروا الحاجيات أُسبوعياً، وتحفظونها في الثلاجة، بالإضافة إلى الماء البارد؟

تساءل هشام دون اكتراث، فيما قال عبد المحسن بحماس:

ـ طرحنا هذا الموضوع فعلاً عندما استأجرنا المنزل، ولكن مهنا قال إن ذلك سوف يخلق لنا مشاكل نحن في غنى عنها.

ـ مثل ماذا؟

قال هشام.

ـ لو افترقنا مثلاً، من تكون الثلاجة من نصيبه؟ وما هو العمل إذا لم يردها أحد منا؟... مشاكل من هذا النوع.

قال عبد المحسن، ثم أردف بِعَجل:

ـ ثم إن الماء في الزير بارد مثله مثل الثلاجة.

وهب عبد المحسن واقفاً فجأة، وخرج من الغرفة، ثم لم يلبث أن عاد وهو يحمل مغراف الماء وقد امتلأ إلى نصفه، ودفعه إلى هشام قائلاً:

ـ تفضل... ذق... وأحكم بنفسك.

ودون حماس، تناول هشام المغراف، وأخذ رشفة سريعة من الماء، ثم أعاده إلى عبد المحسن الذي كان لا يزال واقفاً، وهو يقول:

ـ معك حق... إنه بارد جداً. لم أكن أعلم أن للزير كل هذه القدرة على التبريد.

وابتسم عبد المحسن، وعاد إلى مجلسه، وصب لنفسه بيالة شاي كان قد تحول إلى اللون الأسود تماماً، وأخذ يرتشفها بلذة وسرعة. لم يكن الماء بارداً على الإطلاق، ولكن هشام كان يجامل عبد المحسن، أما محمد فقد كان صامتاً طوال الوقت، وعلى فيه ظل ابتسامة. كان هشام يفكر طوال الوقت بهذا النفوذ الذي لمهنا عليهم، فلم يستطع أن يمنع نفسه من التعجب وهو يقول:

ـ ما هي حكايتكم مع مهنا؟... هل تطيعونه في كل ما يقول؟

وتبادل عبد المحسن ومحمد النظرات، قبل أن يقول محمد، وكأنه يعتذر:

ـ الحقيقة أنه أكبر منا سناً بكثير، وقد حصل على التوجيهية من المدارس الليلية، فهو يعمل نهاراً، وقد استقال من عمله من أجل الإلتحاق بكلية الطب، ولذلك فأهلنا يثقون به كثيراً، وقد كانوا في غاية الإطمئنان عندما علموا أننا سنعيش معاً في عزبة واحدة... لذلك ترانا قد تركنا له مقاليد الأُمور في العزبة.

هز هشام رأسه دلالة الإقتناع، وإن لم يكن مقتنعاً في أعماقه، وأخذ يرتشف الشاي الأسود البارد بهدوء وعفوية دون لذة، وصمت الجميع فيما كان أنين المروحة وأنفاسها يبعثان على النعاس. استند بظهره إلى الحائط، ومد رجليه إلى الأمام، بعد أن استأذن رفيقيه، اللذين فعلا الشيء نفسه، وأخذته إغفاءة سريعة استفاق منها جفلاً على صوت الباب الخارجي وهو يفتح. واعتدل في جلسته، فيما كان دعيس يلج الغرفة بقامته المديدة، وجسده النحيل، وهو يتأبط كتاباً. نهض هشام للقادم، تصافحا وتعانقا، وتبادلا القبلات والتحيات التقليدية، ثم جلسا ودعيس يحاول أن يستخرج آخر قطرات الشاي من الإبريق وهو يقول بحماس ظاهر:

ـ إني قادم لتوي من حراج «ابن قاسم»، بجانب المسجد الجامع الكبير... يا له من مكان!

وألقى بقطرات الشاي التي وجدها في جوفه، ثم واصل قائلاً:

ـ تجد هناك أشياء لا تخطر لك على بال... حتى الكتب الممنوعة والمحرمة تجدها هناك برخص التراب.

وأخذ يعبث بإبريق الشاي مرّة أُخرى وهو يقول:

ـ هل تصدقون؟... لقد وجدت هذا الكتاب هناك، واشتريته بريال واحد فقط، ولو طلب البائع ريالين لأعطيته.

ثم ألقى الكتاب في الوسط بين الجالسين، حيث تناوله محمد وأخذ يقرأ العنوان بصوت عال: «فلسفة الثورة»، جمال عبد الناصر... ثم تناوله هشام وأخذ يقلب صفحاته، وقد عزم على الذهاب إلى الحراج مرة أُخرى. فقد سبق له أن ذهب هناك عندما كان يؤثث غرفته، ووجد

فعلاً الكثير من الكتب التي لم يكن يتوقع وجودها، مثل «في سبيل البعث» لعفلق، و «معالم الحياة العربية الجديدة»، لمنيف الرزاز، ونسخة مهترئة جداً من الجزء الأول من «رأس المال» لماركس، وروايتين لمكسيم غوركي وفيدرو دوستويفسكي، «طلاب الليل»، و «مذلون مهانون»، كما وجد المجموعة الكاملة لسلسلة «أعلام الحرية»، لقدري قلعجي.

ـ سوف يكون مهنا مسروراً جداً للحصول على مثل هذا الكتاب...

قال دعيس بحبور وهو ينظر إلى محمد وعبد المحسن، اللذين كانا ينظران إلى هشام ويبتسمان باقتضاب... يا لهذا «المهنا» الحاضر الغائب في كل ما يقولون ويفعلون. شعر بالضيق من تكرار اسمه في كل حين، فنهض وهو يقول:

ـ بعد إذنكم... لدي بعض الأعمال التي يجب أن أُؤديها قبل بدء الدراسة... في أمان الله.

واتجه إلى باب الخروج وصوت الجالسين يلاحقه:

ـ في أمان الكريم... في أمان الكريم.

وقبل أن يبتلعه الزقاق، أطل عبد المحسن من النافذة وهو يصيح:

ـ هشام... هشام.

فاستدار عائداً وهو يردد: «خير... خير إن شاء الله؟».

ـ أبداً.

قال عبد المحسن:

ـ سوف يسهر عندنا بعض الشباب الليلة... لِمَ لا تأتي؟... سوف تكون سهرة وداع للإجازة.

ـ يكون خير إن شاء الله... يكون خير.

قال هشام وهو يعود أدراجه، متجهاً إلى الدوار... وقبل أن يصل إلى نهاية الزقاق، التفت وراءه إلى منزل الشباب، فرأى عبد المحسن وهو لا يزال يستند على حافة النافذة بمرفقيه، فيما كانت فتاة تقف أمام باب البيت المقابل وقد غطت وجهها بتلك الغدفة الرقيقة، وكانت تلقي بعض القمامة بجانب الباب بشكل بدا له بطيئاً بعض الشيء، ولكنه لم يكترث للأمر، وواصل طريقه وقد أوشك المؤذن أن يدعو لصلاة المغرب.

ـ ٤ ـ

عندما عاد إلى منزل الشباب تلك الليلة، وجدهم مجتمعين في الصالة يتوسطهم إبريق الشاي. وبالإضافة إلى أفراد العزبة، كان هناك ثلاثة أشخاص جدد، عرف منهم سليم السنور وصالح الطرثوث، اللذين سبق له أن قابلهما في القصيم. أما الثالث فقد عرفه الشباب عليه ولكنه لا يتذكر الاسم، ولم يكن مهتماً بالتعرف إليه على أية حال. كان مهنا الطعيري يتصدر المجلس والجميع متحلقون حوله، وهو يتحدث عن مبادرة روجرز الأخيرة للسلام، والأسباب التي دعت جمال لأن يقبل بها. لم يكن مهنا متحمساً لمجيء هشام، إذ نظر إليه شزراً عندما دخل، ونهض بتثاقل للسّلام عليه وهو يقول، وقد علت فاه إبتسامة كان واضحاً أنها مغتصبة اغتصاباً:

ـ حيا الله من جاء... حيا الله راعي ماركس.

وبادله هشام إبتسامة مغتصبة أيضاً، وتبادلا قبلات باردة، ثم قال هشام ببرود:

ـ ومن قال... عاش من شافك يا أخ مهنا.

ـ شافتك العافية يا أخ هشام... أم هل أقول الرفيق؟

قال مهنا ذلك وهو يطلق ضحكة صغيرة، بصوت كأنه صوت فأرة محاصرة، وهو يتنقل بنظره بين الجميع، ثم عاد إلى مجلسه، فيما انتقى هشام مكاناً في الحلقة بين عبد المحسن ومحمد. وقبل أن يواصل مهنا حديثه للمتحلقين، نظر إلى هشام وقد زوى ما بين عينيه وهو يقول:

ـ على فكرة يا أخ هشام... أما زلت شيوعياً؟

قال ذلك وأخذ يدور بعينيه بين الجالسين مرة أُخرى، ثم عاد بهما إلى هشام الذي أجاب بهدوء حاول أن يغطي به ذلك الغليان الذي يحرقه من الداخل:

ـ ومن قال لك أني شيوعي؟... أنا إشتراكي. أليس جمال عبد الناصر كذلك؟

ـ نعم... ولكنه ليس ملحداً مثلكم... أقصد مثل الشيوعيين.

ـ ومن قال لك أني ملحد، أم هي تهم تلقى فقط؟

قال هشام بحدة. وصمت مهنا لفترة وجيزة، ثم عاد إلى الحديث عن مبادرة روجرز وحكمة جمال في قبولها في هذا الوقت بالذات، وقد حققت حرب الإستنزاف أهدافها المخطط لها. وبقي هشام صامتاً يستمع وقد عادت به الذاكرة إلى أيام التنظيم. كان ساهماً لا يسمع كلمة مما يدور، ولا يهمه أن يسمع، عندما أخرجه عبد المحسن من صمته ووجومه قائلاً بهمس:

ـ هشام... هل أنت شيوعي حقاً؟

ـ لقد سألتني سابقاً وأجبتك.

ـ كان جواباً غير دقيق... أُريد جواباً محدداً. نعم أو لا.

ـ ليس هناك نعم أو لا حاسمة هنا... وعلى أية حال، نعم. أنا أميل إلى الماركسية، ولكني لست شيوعياً.

ـ ما الفرق؟... هذه أم تلك، وتلك بنت هذه.

ـ ليس بالضبط... إنها قصة طويلة. سوف نتناقش فيها لاحقاً.

وهنا جاء صوت محمد، الذي كان يستمع لهمسهما، هامساً هو الآخر:

ـ هل حقاً أنك لا تحب جمال يا هشام؟

وقبل أن يجيب هشام، أردف محمد قائلاً:

أنا لا أتصور أن هناك من لا يحب جمال... إلاً الخونة والعملاء. أرجو المعذرة. ولا أظنك منهم...

ـ ليست المسألة في حب أو كره، ولكنها مسألة مبادىء... أنا لا أكره جمال شخصياً، بل على العكس أحبه، وأحمل له كل إعجاب. ولكنه لا يرضيني فكرياً... هذا كل ما في الأمر.

كان هشام يهمس بذلك غير منتبه لنظرات مهنا النارية التي كانت مسلطة عليه، وتكاد تحرقه، والتي ما لبثت أن انفجرت حين قال مهنا بصوت كان الغضب الشديد واضحاً في رنته:

ـ ما هذا الهمس يا جماعة... هذا لا يجوز. إذا أردتم عدم المشاركة في الحديث العام، فلِمَ لا تبحثون عن مكان آخر؟.

صمت محمد وعبد المحسن بعد ثورة مهنا، وأحنيا رأسيهما وهما

ينظران إلى الأرض، فيما أحس هشام أنه غير قادر على تحمل كل هذه الإهانات، ولم يستطع كبح جماح نفسه، فقال بصوت مرتعش، وقد أحمرت وجنتاه قليلاً، واتسعت عيناه الواسعتان إلى أقصى مدى:

ـ يا أخ مهنا... لا أرى إلاً أنك أنت الذي يتحدث وحده. بل إنك تحاضر... وعلى أية حال، أنا لست ملزماً بسماع محاضرتك.

ونهض يريد ترك الجلسة، إلاً أن عبد المحسن شده من أسفل ثوبه وهو يقول برجاء:

ـ أرجوك أن تبقى. لا زال الوقت مبكراً على المغادرة.

ثم نظر إلى مهنا قائلاً بصوت ضعيف:

ـ إنه ضيفنا يا مهنا... إنه ضيفي على الأقل.

وردد محمد ودعيس: «نعم... نعم... إنه ضيف يا مهنا»، فزفر مهنا بشدة وهو ينظر إلى هشام الذي عاد إلى مجلسه وهو يبتسم بخبث ولذة. لم يستطع مهنا مواصلة حديثه، إذ أخذ يقف كثيراً عند مقاطع الحديث، ثم نهض جأة واتجه إلى غرفته وهو يقول بلهجة حاول أن يجعلها ساخرة قدر الإمكان:

ـ على أية حال، القراءة أفضل من مضيعة الوقت هذه... سوف أُعيد قراءة بيان ٣٠ مارس. أفضل وثيقة سياسية في هذا العصر.

قال ذلك وهو ينظر بطرف عينه إلى هشام. وما أن أغلق مهنا باب غرفته عليه، حتى صاح صالح الطرثوث: «بلوت... بلوت... من يتحدى؟» وسرت الحرارة في الجالسين، الذين أخذوا يتصايحون، فيما نهض محمد لجلب ورقة اللعب من غرفته، ودعيس قد دخل المطبخ لإعداد الشاي.

- ٥ -

وابتدأت الدراسة... ذهب يوم السبت إلى الكلية، التي كانت غاصة بالطلاب، وليس كيوم زارها أول مرة. إنه يشعر بالرهبة والتوتر، وهو مقبل على مرحلة جديدة من حياته، لا ريب أن كل شيء فيها سوف يكون مختلفاً عما ألفه في السابق. فهنا يقوم بالتدريس «دكاترة»، وليس مجرد مدرسين، وقد كان مجرد ذكر كلمة «دكتور» يثير الرهبة والتبجيل، فكيف إذا كانوا يرونهم ويتعاملون معهم كل يوم. وهنا «محاضرات» وليس حصصاً مدرسية. وهنا إعتماد كامل على النفس، وليس كل شيء مسير بالكامل كما في الثانوية.

عندما ولج البهو الكبير، كان هناك زحام شديد عند لوحة الإعلانات، حيث أسماء الطلبة، ومستويات الدراسة، وأماكن المحاضرات، وأسماء المحاضرين من الدكاترة. زاحم مع المزاحمين، وسجل المعلومات اللازمة، بعد أن تأكد من وجود اسمه. كانت المحاضرة الأولى في مادة الإقتصاد، وهي المادة التي كان يعول عليها كثيراً من أجل فك رموز كتاب «رأس المال»، الذي كان لا يمسه إلاّ وهو يشعر بشيء من الرهبة، والإحساس برعشة غريبة تجتاحه. ودخل أُستاذ المادة، الدكتور محمود بهنس جلجالي، الذي كان لا يرتدي العقال، على خلاف بقية الدكاترة، وحتى الغترة كان يخلعها ويلقي بها على الطاولة التي أمامه حتى ينتهي من محاضرته، ثم يلقيها على كتفه ويغادر. لقد كان الدكتور جلجالي نموذجاً للمكي البسيط ابن الحارة المكية التقليدية. كان في غاية الظرف وغزارة المادة العلمية، ولكنه كان شديداً في متطلباته. فقد طلب منهم شراء كتاب «مبادىء الإقتصاد»

الضخم، لبول سامويلسون، وأخبرهم أن هذا الكتاب مجرد مرجع لا أكثر، أما المادة الحقيقية فهي فيما يقول أثناء المحاضرات. ولكره بعض الطلبة دقة وصرامة الدكتور محمود، وحبهم لخفة ظله وجرأته في انتقاد أُمور سياسية تعتبر من المحرمات، اتهموه بتعاطي الخمور قبل أن يأتي إلى المحاضرة، وحلف بعضهم أنه شم رائحة الويسكي في فمه وهو يحاضر.

وكانت المحاضرة الثانية في مادة «الإدارة العامة»، للدكتور ليث عبد الودود، الذي أعطاهم إنطباعاً سيئاً عنه منذ اللحظة الأولى. فقد كان متجهماً، عبوساً وكأنه يحمل أعباء الدنيا على رأسه. وحتى عندما يبتسم بعض الأحيان، كان يخيل لهم أنه قد آلمه فكه لذلك. ومما زاد في نفورهم منه، أنه لم يطلب كتاباً محدداً، بل مجموعة من الكتب، لم يجدوا إلاّ بعضاً منها في مكتبات الرياض ومكتبة الكلية، أما الأكثرية فلم تكن موجودة. وعندما أخبروه بذلك، أطلق العنان لواحدة من إبتساماته النادرة، وقال: «مش شغلي... أنا أُحدد المراجع، وعليكم تدبيرها...»، فكرهوه كرهاً عميقاً، رغم أنه حاول أن يكون أكثر «إنسانية» فيما بعد، ولكن النفور بقي ثابتاً لا يتحول.

أما المحاضرة الثالثة فكانت في مادة «مبادىء علم السياسة» للدكتور محارب الخيزراني، الذي كان لافتاً للنظر من أول وهلة. فقد كان طويل القامة جداً، ضخم الجثة جداً، رقيق الصوت، متدفق الكلمات التي كانت تخرج من فيه بسرعة وتناسق آسرين. وفوق كل ذلك، كان دائم الابتسام وإلقاء النكات التي ترطب الجو بين الحين والآخر، بلهجة خليجية كانت مثار تعليقات بعض الطلاب. ومما زاد من تعلقهم به، أنه لم يطلب منهم أية مراجع، بل كان يقول إن من يحضر المحاضرات،

ويستمع جيداً، كان ذلك كافياً. وكانت محاضراته، رغم دسامتها، أشبه بالحكايات و «السواليف»، مما جعل مادة السياسة الأكثر شعبية بين الطلاب.

وكانت المحاضرة الأخيرة لذلك اليوم في مادة «القانون الدولي العام»، للدكتور أحمد المكنز، الذي دخل عليهم وفي يده كوباً من الشاي وضعه أمامه على الطاولة، وأخذ يرتشفه بصوت مسموع وهو يتحدث ببطء و «يمطط» في الكلام، مما جعل النوم يداعب الأجفان. طلب منهم الحصول على نسخة من كتاب «القانون الدولي العام» لعلي صادق أبو هيف، وأخبرهم مسبقاً أنه غير متوافر في المكتبات التجارية، وعليهم توصية أحد لإحضاره من خارج الحدود. كان الدكتور أحمد يبدو سمجاً في شكله وسلوكه، فقد كان إحضاره الشاي دائماً إلى قاعة المحاضرات مستهجناً من الجميع، الذين اعتادوا على قائمة ممنوعات طويلة في قاعة الدرس، ومنها الأكل والشرب. وعندما اعتقد البعض أن مثل هذا السلوك شيء طبيعي في الجامعة، واحضروا معهم أكواب من الشاي في إحدى محاضرات الدكتور أحمد، زجرهم بعنف، وطردهم من القاعة، فيما عاد هو إلى احتساء شايه بلذة وصوت مسموع. لقد كان هو والدكتور ليث مثار تعليق ونفور الطلبة وسخريتهم.

وانتهت محاضرات ذلك اليوم، وزال بعض التوتر والرهبة الذي رافقه في الصباح. كان الوقت لا يزال مبكراً، فالساعة لم تتجاوز الثانية عشرة ظهراً إلاّ قليلاً، وهو لا يرغب في العودة إلى غرفته بعد. كان فراشوا الكلية قد أخذوا يفرشون السجاجيد المزخرفة إستعداداً لصلاة الظهر، وكان بعض الطلبة قد جلس على هذه السجاجيد إستعداداً للصلاة، فيما كان البعض الآخر قد اتجه إلى البوفيه في الطرف الخلفي

من المبنى حيث حظائر كلية الزراعة غير بعيدة عن المكان. اتجه إلى البوفيه، وطلب من «العم وردان»، صاحب البوفيه، ساندويش بيض مقلي مع زجاجة كولا، واختار لنفسه مكاناً قصياً على إحدى الطاولات الخشبية المنتشرة، وأخذ يتناول طعامه وشرابه وهو يتأمل المكان، ويملأ رئتيه بالهواء المحمل ببعض رائحة روث البقر، التي ما أن تعتاد عليها، حتى تصبح مقبولة تماماً، بل ولذيذة. كان العم وردان رجلاً في غاية النحافة والطول، شديد السمرة، ويشوب عينيه الدائمتي الحمرة شيء من الصفرة، وتقاطيع في غاية الدقة، وتبرز العروق بوضوح في جبهته ويديه. وهو دائماً يرتدي طاقية مشبكة غير قادرة على إخفاء صلعة يظهر بريقها من ثقوب الطاقية، وثوب أبيض فضفاض. ورغم النظرة الصارمة التي كان يحاول أن يرسمها على وجهه، إلاّ أنه اكتشف لاحقاً أنه كان طيباً إلى أبعد الحدود، وما الصرامة المرسومة إلاّ خط دفاع أول ضد عبث الطلبة.

أخذ يقضم الساندويش بهدوء وهو يتأمل المكان من حوله، وعاد إليه تعجبه القديم... لماذا كل هذه الفخامة في بنائها وكأنها قصر منيف؟! نظر حوله، ولم يكن هناك إلاّ بعض الطلبة، وكان عم وردان يقف في البوفيه مستنداً بذراعيه على حافة نافذة الخدمة، وقد أشعل سيجارة أخذ يستمتع بتدخينها بعد أن انتهت طلبات الطلبة. اقترب منه، وطلب كوباً من الشاي. وفيما هو يعد الشاي، تساءل هشام بعفوية مصطنعة: «غريب أمر هذا المكان!... إنه أشبه ما يكون بقصر منه بكلية»، فضحك العم وردان وهو يحرك السكر في الكوب، كاشفاً عن بعض أسنان متفرقة اختلط فيها السواد بالصفار وبعض البياض، وسن ذهبية كانت تبرق وتعلن عن نفسها في أحد جوانب الفم، ثم وهو يقدم

الشاي لهشام، قال بلهجته السودانية العجلة: «ما هي كانت قصر يا زول...»، ثم وهو يستلم ربع الريال ثمن الشاي، : «لقد كانت قصراً لواحد من علية القوم...»، قال ذلك وهو يبتسم إبتسامة ذات معنى، ثم أضاف: «ولكنه انتقل إلى سكن جديد، فأجر قصره على الجامعة... هذه هي القصة...»، قال ذلك وهو يتحرك استعداداً لإستقبال أحد الزبائن. عاد هشام إلى مقعده، وأخذ يشرب الشاي دون رغبة فعلية، فقد كان إلى الدبس أقرب. لم يكمل الكوب، ونهض وهو عاقد النية على المرور على الشباب في العزبة لبعض الوقت قبل العودة إلى المنزل.

ـ ٦ ـ

توالت المحاضرات في الأيام التالية، وتلاشت الرهبة من الجامعة نهائياً، بعد أن تعرف إلى بقية الأساتذة، الذين كانوا مجموعة نماذج بشرية مختلفة كل الاختلاف، بل ومتناقضة. فهناك الدكتور نجر الشطرطون، الذي كان في غاية الشراسة بشكل غريب لا مبرر له، وكأن بينه وبين كل خلق الله عداوة مستديمة. وكان يطلب منهم قراءة مراجع كثيرة، بالإضافة إلى ما يقول في المحاضرة، رغم وضوح ضحالته العلمية من أول وهلة. ورغم أنهم كانوا يفعلون كل ما يؤمرون به، إلاّ أنهم لم يستطيعوا الحصول على علامات جيدة مع هذا الأُستاذ. حتى اكتشف أحد الطلبة سره، فقد كان يرجع إلى كتاب لم يذكره في قائمة المراجع، وقد استعار كل نسخه الموجودة في مكتبة الكلية والجامعة. لقد استطاع الطلبة الحصول على نسخ من هذا الكتاب تداولوها بينهم، وعلت الإبتسامات وجوههم، في الوقت الذي تحول الدكتور نجر إلى

علامة استفهام وتعجب متحركة، وزاد ذلك من شراسته الغريبة.

وكان هناك الدكتور طلبة عبد المتجلي، أُستاذ إدارة الأعمال، الذي كان لا يكف عن العبث بأنفه طوال الوقت، ويتطاير الرذاذ من فمه وهو يتحدث، مما حدا بالجميع إلى محاولة عدم الجلوس في الصف الأمامي من القاعة. وأما الدكتور حسن لوزنجي، أُستاذ الموارد الاقتصادية، فقد كان متبسطاً مع الطلبة لدرجة إلقاء بعض النكات الخارجة أثناء المحاضرات، وعدم الحرج في ذكر أُمور لم يعتادوا على ذكرها في الأماكن العامة. وهناك الدكتور محمد الهزبر، أُستاذ المحاسبة، الذي أوقعهم في حرج كبير، رغم غزارة علمه وقوة شخصيته. كان الأستاذ شديد الحول، فإذا سأل أحد الطلبة سؤالاً لا يجيب، ظناً منه أن الأستاذ يعني من هو إلى جانبه، وهنا يستشيط الأستاذ غضباً، ويبدأ في تأنيبهم بلهجة صعيدية صرفة، ثم لا يلبث أن يعتذر بأدب جم، ويشير بإصبعه إلى الطالب المراد. لقد كان الأُستاذ محمد من أحب الأساتذة إليهم، كان غزير العلم، قوي الشخصية، سلس الأُسلوب، ولطيف المعشر فوق كل ذلك. لقد كان النقيض تماماً للدكتور نجر الشطرطون.

وهناك الدكتور سعيد الغضبان، أُستاذ الثقافة الإسلامية، الذي كان يقضي معظم الوقت في الحديث عن نفسه، قبل أن يبدأ المحاضرة التي لا يلبث الوقت أن يدهمها قبل أن تبدأ. والدكتور سطوحي المفك، أُستاذ المالية العامة، الذي كان همه التعرف على أبناء الذوات، والركوب معهم في سياراتهم لتوصيله إلى منزله في آخر اليوم الدراسي. وهناك الدكتور متولي شحتوتي، أُستاذ الرياضة المالية، الذي كان لا يكف عن الحديث عن إضاعته لفرصة الإستقرار في أميركا عندما كان مبتعثاً هناك. ولكنه من أحب الأساتذة عند الطلبة... فقد كان كثير الغياب.

تلاشى الخوف والتوتر نهائياً. . . لقد اكتشف أن المسألة لا تعدو تغيراً في الأسماء فقط، أما اللب فهو واحد. تحول الأُستاذ إلى دكتور، والمدرسة إلى كلية والحصة إلى محاضرة، والفصل إلى قاعة. بل وأُصيب بخيبة أمل مع إستمرار المحاضرات، إذ اكتشف أن المعرفة التي يبحث عنها غير متوافرة في تلك المحاضرات. إنه يريد دراسة الرأسمالية والإشتراكية والماركسية والمذاهب السياسية والإقتصادية، التي أولع بها منذ أن قرأ «دراسات في المذاهب والنظم»، للويس عوض، و «المذاهب الاقتصادية الكبرى»، لراشد البراوي. ولكنهم يدرسونه هنا مواد لا يستسيغها، بل ويشعر بالنفور منها، إذ لا علاقة لها بما في ذهنه: محاسبة، إدارة أعمال، إدارة عامة، تأمين، رياضيات، إحصاء، قانون، وحتى الاقتصاد الذي يدرسونه في الكلية لا علاقة له بالاقتصاد السياسي الذي تعرف إلى مبادئه، ويريد أن يتعمق فيه أكثر. إنهم يدرسون قانون الندرة والمنفعة والغلة المتناقصة، ومنحنيات العرض والطلب، وتوازن المنشأة، ولا ذكر للرأسمالية والإشتراكية وقوانينها التاريخية. لقد شعر مع الوقت أنهم يدرسونه الرأسمالية وقوانينها على أنها هي الاقتصاد فقط، وأدرك أن ماركس كان على حق حين يتحدث عن الوعي الزائف، وكون الطبقة السائدة تفرض وعيها على أنه الوعي الصحيح. ورغم أنه وجد بعض ما يشفي الغليل في مادة السياسة، إلاّ أن ذلك لم يكن كافياً.

وعندما يعود إلى غرفته المنعزلة، مستقلاً حافلة الكلية التي أراحته من المشي، أو الإنحشار في «خط البلدة»، كان يغلق على نفسه الباب، ويعد لنفسه إبريق شاي ساخن، ثم يأخذ في قراءة ما يحب فعلاً، بالإضافة إلى إجبار نفسه على استذكار ما لا يحب من مواد الكلية. وعندما يمل من الإستذكار أو القراءة، كان يذهب إلى عزبة الشباب،

ويقضي الساعات مع عبد المحسن يتحدثان ويشربان الشاي في غرفته، وينضم إليهما محمد ودعيس بعض الأحيان. أما مهنا، فهو إما في الخارج أو في غرفته يقرأ أحياناً، أو محركاً مؤشر الراديو في كل الإتجاهات أغلب الأحيان، وكان المؤشر يستقر دائماً عند صوت العرب، بعد جولة طويلة بين لندن وصوت أميركا وإذاعة موسكو العربية.

- ٧ -

ذات يوم، وكان الوقت أصيلاً، ذهب إلى عزبة الشباب بعد أن مل القراءة وشكاوى عبد الرحمن التي لا تنتهي. وعندما طرق الباب عدة مرّات لم يجبه أحد، فأيقن أن الشباب في الخارج، واستدار يريد العودة من حيث أتى وهو كاره. حانت منه التفاتة إلى شباك عبد المحسن المغلق، فلاحظ من خلال شيش النافذة أن المروحة تدور، فتعجب لإسراف عبد المحسن الذي يترك المروحة تدور وهو غير موجود. وقبل أن يترك عتبة الباب، هيىء له أنه سمع همساً، فأصاخ السمع ولكنه لم يسمع شيئاً. فتأهب للمغادرة، ولكنه سمع صوت ضحكة مكتومة هذه المرة، فتأكد أن المسألة ليست من التهيّئات. لم يكن لديه ما يفعله، وسيطر عليه فضول محرق لمعرفة ما يجري في الغرفة. عاد أدراجه إلى أول الزقاق، وأخذ ينتظر في أول منعطف هناك، وهو يراقب المنزل بفضول وارتباك لا يدري سببه. ثم أذن لصلاة المغرب، وبعد الأذان بعدة دقائق، فتح الباب وأطل منه عبد المحسن الذي أخذ يتلفت يميناً وشمالاً بسرعة واضطراب واضحين. وما أن تأكد من خلو الزقاق من المارة، حتى انسل إلى الداخل، ثم لم تلبث فتاة ملفعة بالسواد أن

انسلت من المنزل، واتجهت بسرعة إلى أحد المنازل المقابلة، وانسلت داخله بسرعة، وأغلقت الباب وراءها بهدوء. ابتسم هشام، وأحس بخيال رقية يداعبه من جديد، والتوتر والحرارة يشويانه. بقي منتظراً لبعض الوقت، لا يدري كم استغرق، حتى إذا رأى النافذة تفتح، ويطل منها رأس عبد المحسن بسرعة، عاد إلى المنزل وطرق الباب بهدوء، ولم يلبث رأس عبد المحسن أن أطل من جديد وهو يبتسم مرحباً، ثم فتح الباب، وكان يرتدي سروالاً أبيض يصل إلى ما دون الركبة بقليل، وفانلة «علاقي» بيضاء، وقطرات من العرق قد تجمعت على جبينه.

دخل الاثنان إلى الغرفة التي ما زالت تحمل راحة أُنثى كانت هنا قبل قليل، أو كان يُهيأ له ذلك، ولبس عبد المحسن ثوباً أبيض كان معلقاً على المشجب المثبت على جدار الغرفة. لم يكن هناك ما هو غير عادي في الغرفة، مجرد صينية شاي عليها بيالتان وإبريق شاي فضي صغير على المكتب، ومنشفة صغيرة ملقاة على الأرض. أخذ هشام ينظر إلى المنشفة وإلى عبد المحسن وهو يبتسم بخبث، فشعر عبد المحسن بالحرج، ثم تناول المنشفة على عجل وباضطراب شديد، واتجه إلى الحمام حيث ألقاها كما اتفق وعاد وهو يقول بصوت متهدج: «أرجو المعذرة... فوضى عزاب كما تعلم»، ولم يرد هشام إلاّ بابتسامة بدت لعبد المحسن أنها غامضة وتخفي أشياء كثيرة.

جلس الإثنان على الأرض، وهشام لا يزال مبتسماً، فيما كان الحرج واضحاً على وجه عبد المحسن، الذي لم يلبث أن نهض وهو يقول بعجل: «سوف أعد بعض الشاي... عن إذنك...»، وانطلق إلى المطبخ، بعد أن تناول صينية الشاي وحملها معه، ونظرات هشام تلاحقه. وما هي إلاّ دقائق، وعاد عبد المحسن وهو يحمل صينية الشاي

وعليها البيالتان وإبريق الشاي الفضي الصغير.

ومع أول رشفة من الشاي، قال هشام وهو يحدق مباشرة في عيني عبد المحسن ويبتسم:

ـ لقد رأيتها...

واضطرب عبد المحسن قليلاً، حتى تناثرت بعض قطرات الشاي على ثوبه، فيما أردف هشام قائلاً:

ـ لقد رأيتها وهي تنسل من المنزل كالأفعى... أثرك خبيث وحنا ما ندري!

وضحك هشام باقتضاب وهو يقول ذلك، فيما ابتسم عبد المحسن وهو يجيل نظره بين هشام وأرض الغرفة، ثم واصل هشام بهدوء:

ـ كانت أول مرة... أليس كذلك؟

ولم يجب عبد المحسن، بل تشاغل بصب الشاي، وواصل هشام:

ـ دائماً أول مرة تكون صعبة... ما هي الحكاية؟ كيف، أين؟!

وتذكر هشام ما قاله له عبد الرحمن في مغامرة طريق خريص حول المرة الأولى، وكان في غاية الشوق لمعرفة ما جرى بين عبد المحسن وتلك الفتاة، وهل كانت مشاعره معها مثل المشاعر التي عرفها مع رقية ومثلثها المتوحش.

لم يكن عبد المحسن متحمساً للحديث عن التجربة، ولكن إلحاح هشام دفعه للحديث في النهاية وهو يتوقف عند كل كلمة يقولها:

ـ الحقيقة... الحقيقة... لم تكن هذه هي المرة الأولى. ولم تحدث المرة الأولى بعد.

ـ لم أفهم... هذه أحجية.

قال هشام وهو يتجه بوجهه بالكامل نحو عبد المحسن، الذي كان العرق يتصبب بغزارة على جبينه، وهو يمسحه بكفه بين الفينة والفينة، ويقول:

ـ كان لي بعض العلاقات في السابق... وهذه العلاقة مثلها. لا أكثر من ذلك...

ـ تعني أن التجربة لم تكن كاملة؟

ـ نعم... نفعل كل شيء ما عدا... أنت تعلم. كن بنات. وكذلك التي رأيت...

ـ نعم... نعم.

ردد هشام وهو يعود بذاكرته القريبة إلى رقية وطريق خريص، وتلك المشاعر والانفعالات التي تصارعت في صدره خلال ذلك، وأراد أن يقول شيئاً، إلاَّ أن عبد المحسن كان أسرع وهو يقول:

ـ وأنت؟

ثم وهو يرتشف نصف بيالة الشاي دفعة واحدة:

ـ وأنت... ألم تجرب؟ أعني... تدري ما أعني.

وتذكر هشام رقية ونورة في الدمام، ولكنه أزاح نورة بسرعة من خياله وهو يشعر بشيء من الذنب لوضعها مع رقية جنباً إلى جنب في ذهنه، وبقيت رقية وحدها تحتل كل الذهن وهو يقول:

ـ حانت بعض الفرص... ولكن لم يحصل شيء. حتى ما تقوم به أنت لم يحصل. لم أجرؤ في الحقيقة...

ـ سوف يحصل. سوف يحصل.

قال عبد المحسن وهو يضحك وقد زال كل أثر للخجل والإضطراب، وجاراه هشام في ضحكه، وأخذا يحتسيان الشاي وقد غاب كل واحد منهما في نفسه.

ـ ٨ ـ

بعد اكتشافه لمغامرة عبد المحسن، أصبح لا يطرق بيت الشباب إلاَّ عندما يتأكد من وجود عبد المحسن في الداخل عن طريق النافذة المفتوحة، وعندما يتأكد من عدم وجود «ضيوف» عنده، وكان دوران المروحة والنافذة المغلقة إشارة لوجود واحد من أُولئك الضيوف. ولم تكن نافذة عبد المحسن تغلق كثيراً، إذ بعد تلك الحادثة لم تغلق إلاَّ مرتين، ولكن هشام بقي حريصاً على الطقس الجديد الذي أخذ يتبعه عند زيارته لعبد المحسن. وتوطدت علاقته بعبد المحسن بعد ذلك لدرجة أنه لم يكن حريصاً على الاجتماع ببقية العزبة عندما يكون عبد المحسن غائباً إلاَّ لماماً، وخاصة محمد ودعيس، أما مهنا فقد كان واضحاً أنهما لا يودان بعضهما بعضاً، لم يكن كرهاً، ولكنه كان شيئاً قريباً منه، ولعله نفور وعدم إنسجام.

وقد أثارت فيه مغامرة عبد المحسن شهوة غريبة لم يخبرها من قبل. كانت شهوة طاغية ملكت عليه نفسه، بحيث كانت أطرافه تتوتر بشدة لأقل حركة ومجرد كلمة يمكن أن يستشف منها رائحة الأُنثى، وأصبح يرى تلك الأجزاء المثيرة في جسد المرأة في كل شيء يراه، بقي أياماً وهو لا يستطيع أن يبعد الأُنثى عن خياله، وأخيراً قرر شيئاً. ذهب إلى

عبد الرحمن وطلب منه أن يرتب له موعداً مع رقية، أو غيرها ممن يعرف، فما كان من ابن خاله إلاّ أن ضحك وهو يقول: «اشوفنا تنجرنا...»، وشعر هشام بالخجل لهذا التعليق، ولكنه لم يكن قادراً على مقاومة الأنثى التي تنهشه من الداخل، فرد بثبات: «ها... تقدر وإلاّ ما تقدر؟»، فضحك عبد الرحمن وقال: «يا سلام... وحنا في ذيك الساعة... أنت تأمر يابو الهواشم...» وفعلاً، في اليوم التالي جاءه عبد الرحمن بالبشرى... يوم الجمعة بعد العصر مع رقية. وأحس هشام بالشبق يغزو كل جسده الذي تحول إلى أتون على وشك الإنفجار، يوم الجمعة... أفضل أيام الأُسبوع.

وجاء يوم الجمعة... وأخذ الاضطراب يغزوه منذ الصباح، وكلما اقترب الموعد، أحس بأعصابه تكاد تخونه. وفجأة لاحت له زجاجة العرق تحت صندوقه الخشبي، فاندفع إليها ووجد بها ما يزيد على الثلث، فتهللت أساريره، وأحس بحب جارف لابن خاله حمد في تلك اللحظة. لقد قيل له إن الخمرة تقضي على الخجل واضطراب الأعصاب، وهذا بالضبط ما يحتاجه اليوم. أدى صلاة الجمعة مع خاله وأبنائه، وعاد إلى الغرفة وهو في غاية انشغال البال والمشاعر المتضاربة. إنه في غاية الشبق، ولكنه خائف ومضطرب ويشعر بالحقارة في الوقت ذاته. وكانت هذه المشاعر تزداد خنقاً له كلما مرت الدقائق واقترب العصر، ولكنه كان يحاول خنقها بدوره، فقد كان عازماً على خوض التجربة حتى النهاية هذه المرة.

وعندما عادوا من المسجد بعد صلاة العصر، قال له عبد الرحمن إنه سينتظره في السيارة بعد عشر دقائق. صعد إلى غرفته وقلبه يخفق بشدة، ووضع قارورة العرق في كيس ورقي، ووضع زجاجة كولا معها، إذ قال

له حمد ذات مرّة وهو يشجعه على الشرب، إن طعم العرق يصبح مقبولاً جداً مع الكولا، ثم هبط الدرج إلى الخارج حيث كان عبد الرحمن ينتظر في السيارة.

واتجه عبد الرحمن بالسيارة نحو المستشفى الحكومي العام، وسط استغراب هشام الذي قال متسائلاً: «خير إن شاء الله! أشوفك رايح المستشفى هالمرة؟!...»، «نعم...»، قال عبد الرحمن، «المستشفى أكثر أمناً اليوم من أي مكان آخر... ستركب معنا دون أن يشك أحد بنا. سوف يعتقدون أننا محارم لها قد جئنا بعد أن أنهت العلاج... ثم إن الذهاب إلى المستشفى عذر مقنع لها للخروج من البيت»، وضحك عبد الرحمن بشدة وهو يقول: «ديرة عجيبة فعلاً... كل شيء حرام وممنوع. وكل شيء مباح بشكل لا يتصور»، فنظر إليه هشام وابتسم دون تعليق، فيما حانت التفاتة من عبد الرحمن نحو الكيس الذي يحمله هشام ويشد عليه بقوة، فقال وهو يضحك: «ما تلك بيمينك يا هشام؟»»، وابتسم هشام وهو يقول: «لا شيء... مجرد كولا تروي العطش... ولي فيها مآرب أخرى...»، وضحك الإثنان فيما كانت السيارة تقترب من المستشفى.

عندما وصلوا المستشفى من جهته الشرقية، دار عبد الرحمن حوله حتى أصبح محاذياً لحدوده الغربية، وهناك سار قليلاً حتى وصل إلى إحدى العيادات الخارجية التي كان رصيفها مزدحماً بالعباءات السود. وعلى بعد بضعة أمتار من الزحام، أوقف السيارة، ثم أخرج سيجارة أخذ يدخنها وهو ينتظر بهدوء. كان هشام في غاية الإضطراب والخوف، ولكنه أحس ببعض الطمأنينة وهو يرى عدداً من السيارات التي تنتظر، وبعض النساء يركبن هذه السيارة أو تلك. وبعد دقائق معدودة، فتح

الباب الخلفي للسيارة، وانسلت إلى الداخل كتلة متحركة سوداء من قمة الرأس إلى أخمص القدم، ما إن استقرت في السيارة حتى انطلق عبد الرحمن شرقاً نحو طريق خريص...

كان طريق خريص مزدحماً ذلك اليوم، ككل يوم جمعة، وكأن كل الناس قد خرجوا من بيوتهم وتجمعوا هناك. ولذلك ضرب عبد الرحمن «الدريكسون» بقوة وهو يقول بغضب: «كان من المفروض أن أعرف... اليوم جمعة، وكل الناس يخرجون إلى طريق خريص وطريق صلبوخ اليوم... ما أغباني»، ولم يعلق أحد على تصريح عبد الرحمن، الذي أخذ يزاحم السيارات، و«يسقط» عليها بنرفزة وهو يسب ويلعن. واضطروا نتيجة ذلك الزحام أن يسيروا مسافة أطول من السابق، فتجاوزوا خشم العان، حتى لم يبق بينهم وبين خريص ذاتها إلاً أقل من تسعين كيلو متراً، حيث انحرف عبد الرحمن بالسيارة إلى داخل الرمال الناعمة، وسار مسافة طويلة، متبعاً أثر طريق صحراوي، خشية «التغريز»، ثم أوقف السيارة عندما اختفى الأسفلت تماماً، في بقعة رملية غاية في النعومة.

أخرج عبد الرحمن البساط من السيارة، وفرشه، ثم أخرج الشاي والماء، فيما كانت رقية تلقي بعباءتها وخمارها بعيداً وتفترش الرمال الذهبية قريباً من البساط. وأخذ هشام ينظر إليها بشبق ورهبة. كانت تلبس هذه المرة فستاناً أسود يظهر بوضوح نصف صدرها، ويبرز الباقي من وراء الفستان. كان يقبض على الكيس الورقي وهو يتجه نحو البساط، فيما كان عبد الرحمن يتربع عليه وهو يدخن سيجارة، وكانت رقية تتقلب على الرمل الناعم بكل الإثارة والرغبة والإغراء. وجلس على البساط بجانب عبد الرحمن، ثم مد يده وأخرج زجاجة العرق، ووضعها

بين الجميع وهو يقول:

ـ ما رأيكم بهذه المفاجأة؟

ونظر إليه عبد الرحمن ببلاهة وهو يقول:

ـ ماء!... لم أكن أظنك مغفلاً يا ابن العمة... أهذه مفاجأة؟

غير أن رقية أدركت نوع المفاجأة، إذ عدلت من جلستها، وقفزت إلى البساط، والتقطت الزجاجة البلاستيكية، وألقت بالغطاء بعيداً، وقربتها من أنفها، وأخذت نفساً عميقاً، ثم لم تلبث أن ابتسمت وقدأغمضت عينيها بخدر قائلة بصوت كالفحيح:

ـ يا عمري... عرق. تو القعدة تزين.

ومدت يدها بعجل إلى بيالة، وملأتها إلى النصف تقريباً بالعرق، ثم أضافت بعض الماء وهي تقول:

ـ لا أعتقد أن لديكم ثلجاً...

وألقت بالبيالة دفعة واحدة في جوفها، ثم أخذت في إعداد الثاني وهي تقول ضاحكة:

ـ أصلكم عليمية... بس يا زينكم.

وشربت ربع البيالة الثانية، ثم قالت، وقد استرخت عيناها وافتر فمها المكتنز عن بسمة بدت بلهاء:

ـ هل سأشرب وحدي... عليمية عليمية. ولكني لا أشرب وحدي. لذة الشراب في الجمعة والوناسة.

ثم ضحكت بغنج وهي تدفع القارورة إلى وسط المجلس. تبادل هشام وعبد الرحمن النظرات، ثم لم يلبث هشام أن أخرج زجاجة الكولا

من الكيس، وأخذ يبحث عما يفتحها به، فالتقطتها رقية وهي تضحك بحبور، وفتحتها بأسنانها، ودفعتها إلى هشام وهي تنظر إليه بدلال قائلة:

ـ تفضل يا عمري...

ثم تضحك بغنج مرة أُخرى وهي تردد:

ـ يا زينكم يا العليمية. يا زينكم يا العليمية. كولا وعرق... يا زين العليمية. ذكرتوني بما مضى...

وصب هشام ربع البيالة عرقاً، ثم أضاف إليه الكولا، وأخذ رشفة سريعة إستطعمها في فمه، ثم تجرع ربع البيالة تقريباً، ولم يحس إلاّ وقد اشتعل حلقه بالنار انتقلت إلى جوفه، وأخذ اللعاب ينساب بشدة في فمه، والرغبة في التقيؤ، ولكنه تمالك نفسه، وازداد إفراز اللعاب في فمه، ثم أحس ببعض الراحة في جوفه، ودوار في غاية اللذة يغزو رأسه من الداخل. وشرب ربعاً آخر، فأحس أن نهراً يجري في فمه، ولم يكن الحريق بالشدة الأولى. دفع البيالة إلى عبد الرحمن، ولكنه رفض قائلاً: «السجائر أقصى ما يمكن أن أصل إليه»، فتجرع هشام بقية البيالة، دون أن يحس بأي حريق هذه المرة، وأخذ ينظر إلى رقية. لقد كانت في غاية الجمال والفتنة، بل كان كل شيء في غاية الجمال. ذهب الذنب وأحاسيسه المؤلمة، وانتفى الخجل، وكان وجه أمه يبدو له واضحاً، ولكنه كان ينظر إليها بجلادة ولا مبالاة، وكان يود لو كان قادراً على صفعها، ولكنه يشعر بمغص في الداخل، فيزيح صورتها ويغرق في رقية. لم يعد أي شيء يهم سوى رقية... الحياة هي رقية. ومال عليها، فلم تلبث أن التقطت شفتيه وغابا عما حولهما للحظات... كل شيء فيه قد توتر، وكل شيء فيها كان متوتراً من الأساس. صب لنفسه بيالة أخرى، شرب نصفها وشربت رقية النصف الباقي... وتناولت

سيجارة أخذت تدخنها بعمق. ثم أخذت نفساً عميقاً اختزنته، ثم اقتربت من هشام، وألصقت شفتيها بشفتيه، وأرسلت دخانها إلى الداخل. سعل لبعض الوقت. ولكن لا شيء يهم. فاللذة والإحساس بالانعتاق من كل شيء يسيطران عليه... أحس أنه أول إنسان في بداية الخلق حيث لا محرم ولا ممنوع. وكانت رقية قد استرخت تماماً فبدت كأفروديت سمراء، شرقية الملامح. انسل عبد الرحمن بعيداً، وانطبق كل شيء على كل شيء... وكان الطوفان.

في طريق العودة، اتشحت رقية بسوادها، وغاب عبد الرحمن مع سيجارته، وكان صوت فوزي محسون ينساب عبر الراديو: «يا طير ماذا الصياح...»، وهو غارق في استرجاع لحظات تلك اللذة التي أحسها عندما كانت ذاته تخرج من ذاته. كان الدوار اللذيذ لا يزال يسيطر عليه، وأخذ يغيب مع لذة أفكاره... عجيب أمر هذا الوجود. كيف يكون الشيء ذاته في الوقت ذاته مصدراً للقبح والجمال... مصدراً للألم واللذة... إنه يذكر كيف أثارت رقية ومثلثها العجيب إشمئزازه في المرة السابقة، وكيف أضحت الجمال مجسداً، واللذة الصافية اليوم. ود لو كان بإمكانه أن يمد يده ويتحسس بشرتها الناعمة مرة أُخرى، ولكن الطريق كان مزدحماً بأرتال السيارات العائدة بعد نزهة يوم الجمعة، فعدل عن الفكرة. وشعر بالخجل الشديد، رغم استمرار ذلك الدوار اللذيذ، عندما علق عبد الرحمن على عواء رقية أثناء الطوفان، وكيف أنه خاف وأراد الهرب لولا توقف العواء بسرعة، ثم ضحك بقوة وهو يقول: «أثرك مانت بسهل يابن العمة... أثرك مانت بسهل...»، ثم يضحك من جديد.

أنزلوا رقية غير بعيد عن بيتها، فقد كانت ثملة بعض الشيء،

وأعطاها هشام عشرة ريالات على مضض، دستها في صدرها باسترخاء، ثم سارت وهي تترنح بعض الشيء. وعندما دخل غرفته ذلك المساء، وكان الدوار اللذيذ قد انتهى تماماً، وحل محله دوار مثير للغثيان وإحساس بالرغبة في القيء. انطلق إلى الحمام، وأفرغ ما في جوفه، وشرب الكثير من الماء أعطاه بعض الإحساس بالراحة، وإن لم يختفِ الغثيان نهائياً. عاد إلى الغرفة، واضطجع على السرير وهو يحس أن كل شيء يدور حوله، وأن السرير يكاد ينقلب به، ثم اغفى وهو يردد: «لن أشرب بعد اليوم... لن أشرب ما دمت حياً»، وغاب عن الوجود.

ـ ٩ ـ

عندما استيقظ فجر اليوم التالي على صوت خاله منادياً للصلاة، كان يحس وكأن رأسه ليس منه. مرزبات منكر ومطارق نكير تعمل بلا كلل ولا ملل، وحركة مد وجزر شنيعة تجري هناك. أقل حركة يشعر معها أن ماء رأسه قد إنزاح عن مكانه. إنه ليس صداعاً، بل هو شيء لا يدريه ولم يسبق له أن عاناه طوال حياته، بالإضافة إلى هذا الغثيان اللعين الذي لا يريد أن يفارق. صلّى الفجر مع خاله دون اغتسال، وكان باستطاعته عدم الذهاب إلى المسجد، ولكنه كان يريد الذهاب فعلاً. وعاد إلى غرفته، وأعد لنفسه شاياً وساندويش جبنة صفراء ومربى بطيخ. شرب الشاي وشعر ببعض التحسن، ولم يتناول من الساندويش غير قضمة واحدة، فقد كانت شهيته مفقودة تماماً.

ذهب إلى الكلية، واستمع إلى كل المحاضرات الصباحية، ولكن المطارق لا تريد التوقف، والغثيان ما زال مسيطراً وإن كان أقل حدة.

بعد الظهر، لم يذهب إلى محاضرة الثقافة الإسلامية، وفضل الإسترخاء في البوفيه مع كوب من الشاي الثقيل وبضع قطرات من عصير الليمون. وكلما مرت في خياله صور نزهة الأمس، شعر بالغثيان الشديد ورغبة في الإستفراغ بمجرد تصور العرق، ووخز ضمير قوي عندما يتذكر ما فعله مع رقية، والألم الشديد عندما يتذكر كيف كان خيال أمه يلوح له ورغبته في صفعها. ولكن الغريب أن كل هذه المشاعر كانت ممزوجة بإحساس غريب بلذة الطوفان رغم كل الألم المرافق.

كان يعيش ذلك اليوم غير العادي من حياته، وهو ينتظر يوم الغد، إذ لعل المطارق تهدأ وينتهي الغثيان مع إشراقة يوم جديد. وعاد إلى المنزل، وحاول الإسترخاء تماماً، فأقل حركة كانت تدفع مطارق الداخل إلى العمل من جديد، ويعود المد والجزر في رأسه. ولم يتغدَّ مع أهل المنزل ذلك اليوم، وأتاه عبد الرحمن متفقداً، فهو لم ينم معهم ليلة البارحة على السطح، ولا يريد الغداء اليوم، لا بد أن في الأمر شيئاً. فطمأنه بأن كل شيء على ما يرام، وهو لا يشعر بالشهوة إلى الطعام، فقد تناول بعض الساندويشات في الكلية. وغادره عبد الرحمن، وجاء حمد الذي كان القلق واضحاً عليه فعلاً. سأله عن حاله، فأخبره أنه شرب العرق الذي خبأه عنده، فضحك حمد وهو يقول: «مرحباً بك في نادي الوناسة»، ثم أخبره أن ما يشعر به شيء طبيعي لشخص يشرب لأول مرة، وأنه سوف يعتاد على الشراب ولن يفعل به شيئاً بعد ذلك. إلاّ أن هشام صاح: «أول وآخر مرة ورأس أبوك...»، ولم يستطع أن يكمل، فقد عادت المطارق للعمل من جديد. وخرج حمد وهو يضحك وينظر إلى هشام نظرات خالها غريبة بعض الشيء وهو يقول: «ايه... زين... نبي نشوف».

ومرت عليه موضي عدة مرّات ذلك اليوم، وهي تطمئن على صحته في حالة من القلق واضحة، فيخبرها في كل مرة أنه على ما يرام، وهو ملقى كجثة هامدة على السرير، ولكنه يحاول الإبتسام كلما جاءت، والنهوض من السرير رغم علمه أن المطارق سوف تعمل من جديد. وفي كل مرة كانت تسأله إن كان بحاجة إلى أي شيء، فيجيب بالنفي. وفي آخر مرة، جاءته بإبريق من النعناع الساخن، وليمونة مقطوعة إلى نصفين. وضعت الصينية على المكتب، وصبت الليمون وعصرت على نصف ليمونة وهي تقول: «لا بد أنها لفحة برد... فالنوم على السطح غير مأمون هذه الأيام»، ثم وهي تقدم له كأس النعناع: «عليك بشربه كله... وستستعيد عافيتك بأسرع مما تتصور إن شاء الله. هيا اشرب...»، ودفعت إليه الكأس وقد لاحت ابتسامتها من وراء الغدفة. ونهض بتثاقل، وشرب النعناع دون شهوة، فيما كانت موضي تقف بجانب السرير، رافضة أن تغادر قبل أن يكمل كل النعناع. أكمل الكأس، وعاد إلى الإستلقاء، وموضي تمسح جبينه بنصف الليمونة الآخر. وأحس ببعض التحسن فعلاً، وهيء إليه أنه يرى وجه أمه وهي تبتسم من وراء غدفة موضي، ولكنه كان يشعر ببعض الحرج من وجود موضي معه في الغرفة، رغم الراحة التي بدأ يحس بها. نهض من على السرير، واتجه إلى مكتبته الصغيرة حيث تناول كتاباً كيفما اتفق، وجلس على المكتب وأخذ يتصنع القراءة وهو يقول: «أشعر أني في كامل عافيتي... لا أعرف كيف أشكرك يا موضي...» وابتسمت موضي، وغادرت الغرفة وهي تقول: «الحمد لله... سوف أعد لك كوباً من الحليب الساخن يجعلك تنام كالحمل الصغير»، ولم تنتظر إجابة، بل انطلقت إلى الخارج مسرعة، وهشام يبتسم وخيال أمه يداعبه من جديد

لا يدري لماذا طاف بخياله في تلك اللحظة قصة «أديب»، لطه حسين، وود لو أنه جلبها معه كي يعيد قراءتها من جديد. ولكنه ليس بحاجة لذلك، فهو يتذكرها تماماً، فقد قرأها أكثر من مرّة، واستمع إليه مسلسلاً إذاعياً في «صوت العرب». وتصور نفسه في تلك اللحظة صاحب طه حسين الذي تتحدث عنه القصة، وأحس أنه قد تحول إلى تمثال مرمري محطم يحاول أن يجمع أجزاءه، ولكنه لا يدري كيف، فقد تفتت القطع وتناثرت شظايا في كل مكان. وحتى لو فلح في ذلك، هل سيكون ذات التمثال القديم؟ فما يتحطم يمكن جمعه ولحمه من جديد، ولكن هل يكون هو الشيء ذاته؟ لو علمت أمه أنه قد ذاق الثمرة المحرمة، فعرف السياسة والمرأة والشراب الملعون، ماذا سيكون وضعها؟ هل تطرده من عطفها وحنانها، أم تغفر له زلته؟ هل تغفر خطيئته، أم تكون اللعنة هي النصيب؟ هل يكون آدم أم أن إبليس هو النهاية، أم لا هذا ولا ذاك، بل هجين لا صورة له، أم لا يكون شيئاً على الإطلاق؟

وتعود موضي بالحليب الساخن. إنه لا يريده، ولكنها تجبره عليه برقة. أخذ يشرب الحليب بهدوء وهو يختلس النظر إلى موضي الواقفة أمام المكتب لا تريد أن تتحرك قبل أن يشرب الحليب كله. لقد رق خمارها بشكل كبير، حتى أنه يستطيع تبين بثور الشباب الكبيرة في وجهها. وتراءى له وجه أمه ووجه نورة في وجه موضي. وأحاط مثلث رقية بثالوث الوجوه، ولكنه أزاحه بسرعة وعاد وجه موضي وحده. وانتهى أخيراً من شرب الحليب، فتناولت موضي الكأس، وأمرته بالرقاد، فأطاعها بإنصياع كامل، وهو يبتسم برضا كطفل وجد أمه أخيراً. وقبل أن يغفو، كانت الوجوه الثلاثة لأمه ونورة وموضي، قد تحولت إلى وجه جديد لا علاقة له بالوجوه الثلاثة، ولكنه كلها في الوقت ذاته.

ـ ١٠ ـ

كان مستيقظاً عندما انساب صوت المؤذن عذباً داعياً إلى صلاة الفجر، ولأول مرة يدرك كم هو جميل صوت المؤذن، رغم أن صوت مؤذنهم أجش ومنفر عادة. إنه يشعر بسعادة كبيرة، فلا مطارق ولا غثيان، وإن بقي بعض وخز مؤلم في الداخل. ذهب إلى الحمام، وأخذ حماماً بارداً، وشعر براحة كبيرة وهو يرى الماء البارد ينساب عن جسده، ويتعانق مع الصابون في الطريق إلى المجرى، وكأنه يرى بقايا نزهة الأمس وهي تغادر روحه إلى غير رجعة.

وذهب إلى المسجد، وصلّى بعمق وإحساس عميق كما لم يصلِّ من قبل. وبعد أن قضيت الصَّلاة، بقي في المسجد، فلم يكن راغباً في العودة إلى المنزل، فقد كان يحس بالحاجة إلى الحديث مع أحد، وليس أي أحد. وتناول أحد المصاحف، وأسند ظهره إلى الجدار، واستعد لفتح المصحف، في الوقت الذي كان خاله قد انتهى من صلاته والتسبيح والدعاء، واستعد لمغادرة المسجد. وعندما رأى هشام وهو يمسك بالمصحف، ابتسم ابتسامة واسعة راضية، قلما كان يراها على محيا خاله، وغادر دون أن يقول له شيئاً، ولكنه كان يتمتم بصوت مسموع: «بارك الله فيك يا بني... بارك الله فيك...» وفتح المصحف، وأخذ يقرأ: «والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلاَّ وحي يوحى، علمه شديد القوى، ذو مرة فاستوى، وهو بالأُفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى، أفتمارونه على ما يرى، ولقد رآه نزلة أُخرى، عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى

السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى، ولقد رأى من آيات ربه الكبرى...».

عندما عاد من المسجد، كانت موضي قد أعدت الإفطار، وبان البشر عليها عندما رأت هشام وهو في كامل صحته... آه لو تعلم ماذا فعل، لبصقت عليه... كان يحدث نفسه وهو يجلس إلى السفرة. تحلق الجميع حول أطباق الفول الصغيرة وخبز «التميز» الأفغاني الساخن، وأخذوا يأكلون ويشربون الشاي بالحليب بصمت. كان الخال يأكل بهدوء وهو ينظر إلى هشام والبسمة لا تفارق وجهه السمح. وقبل أن ينهض، نظر إلى أبنائه وهو يقول: «ليتكم كنتم مثل هشام... شاب ولا كل الشباب»، ثم نهض وهو ينظر إلى هشام قائلاً: «بارك الله فيك يا بني، وكثر من أمثالك»، ثم غادر إلى غرفته وهو يردد بعض الأدعية المأثورة، وتبعه مباشرة محمد دون أي كلمة كالعادة. في تلك الأثناء، كان عبد الرحمن ينظر إلى هشام ويبتسم، دون أن يتوقف عن إلقاء الطعام في فمه. أما حمد، فقد سأل بعفوية وصوت هادىء، وهو يبتعد عن السفرة، مستنداً إلى الجدار، ويحمل البيالة في يده:

ـ ما الأمر؟.. ما هذه الغزليات بينك وبين الوالد؟!

وقال أحمد:

ـ غريبة... إن الوالد لا يمدح أحداً إلاَّ في النادر... ماذا فعلت؟

وأحس بالأعين تنظر إليه من كل جانب، فشعر بحرج كبير، ثم قال:

ـ لا شيء... لا شيء مطلقاً. كل ما في الأمر أنه رآني في المسجد اقرأ القرآن وهو يغادر.

وفغر أحمد فاه على إتساعه وهو يقول متعجباً:

ـ وهل يبقى أحد في المسجد بعد الوالد!... هذه معجزة بحق.

وعلق حمد قائلاً:

ـ وش ها الطويرات بداركم... منذ متى وأنت حمامة مسجد؟!

ثم ألقى ببقية الشاي بالحليب في فمه، وأخذ يصب آخر وهو يقول ضاحكاً:

ـ على أية حال هذا شيء طيب... بإمكاننا السهر في غرفتك من الآن وصاعداً دون أن نثير ريبة أحد.. هنيئاً لك يا عم، لقد أصبحت من أولياء الله الصالحين، ولن يضرك أي شيء تفعله بعد الآن.

وشعر بحرج كبير من هذه التعليقات، وأحس بالوخز في الداخل من جديد، كما آلمته معدته بعض الشيء، ولكن التعليقات لا تريد أن تتوقف، فها هو حمد يواصل حديثه السمج قائلاً:

ـ لم أكن أعلم أنك بكل هذا الدهاء... من يراك يعتقد أنك حمامة ضعيفة بريئة. ولكن يبدو أن تحت السواهي دواهي...

قال ذلك وهو يضحك بصوت عال، إلاَّ أن عبد الرحمن قاطعه قائلاً:

ـ إنكم تظلمون هشام يا جماعة... إنه بريء من إتهاماتكم. إنه مجرد حمل وديع.

قال عبد الرحمن ذلك، ونظر إلى هشام بطرف عينه غامزاً وهو يبتسم، وكأنه يقول: «ها قد شهدت لك، وجعلتك مثالاً في هذا البيت، ولن يشك أحد فينا بعد اليوم»، إنه المعنى نفسه الذي ذهب إليه حمد، وإن كان بطريقة مختلفة.

وغادر الجميع، عبد الرحمن إلى المدرسة، والآخرون إلى أعمالهم، وبقي هو وحيداً يفكر، فيما كانت موضي وسعيد يجمعان بقايا الطعام وينظفان المكان، وهي تحدث نفسها بغضب. لم يكن يدري بماذا تحدث نفسها، ولكنه كان واثقاً من أنها تلعن العنود زوجة أخيها محمد، وكان سعيد المسكين دائماً محل غضب موضي. لم يعبأ بوجود أحد، وأخذ يفكر... لماذا لا يصدقون أن ما فعله ليس رياءً أو مكراً خبيثاً، بل إحساس صادق بالفعل؟... وابتسم حين تذكر خاله. يا له من رجل طيب تخدعه المظاهر كأكثر الناس... فعندما كان بريئاً حقاً لم يمدحه، وعندما سقط في الخطيئة مدحه بإسراف. ولكنه غير ملوم، فليس له إلاَّ الظاهر. رآه يصلّي فحكم عليه بالصلاح، مع أن أفسد خلق الله يصلّون مع المصلّين... وأيقظه من سرحاته صوت موضي، التي انتهت من التنظيف، وهي تقول: «هشام... هشام... ألن تذهب إلى الجامعة اليوم؟!»، وأفاق من سرحاته، ونظر إلى موضي وهو يبتسم، ثم نهض وهو لا يزال يفكر، بعد أن هدأت المطارق وزال الغثيان.

ـ ١١ ـ

خلال الأيام التالية، حاول أن يكون «مستقيماً» قدر الإمكان: من المنزل إلى الكلية، ومن الكلية إلى المنزل، أو إلى عزبة الشباب بعض الأحيان، ولا شيء غير ذلك. وأحس براحة كبيرة مع هذا السلوك، إذ توقف الوخز في داخله، وأحس بالصفاء والطمأنينة يعودان إليه، وأصبح يرى وجه أمه بوضوح وهي تبتسم. شيء واحد لم يستطع إزاحته من خياله، رغم الوخز الذي يحسه، وهو تفاصيل جسد رقية ومثلثها

المتوحش. فكلما مرت صور ذلك الجسد الأبنوسي الناعم في ذهنه، استعاد ذلك الإحساس المثير باللذة، وأحس بالحرارة تسري بكل جزيء في جسده، طاغية على كل إحساس بالوخز والألم. وكانت تلك الصور تمارس إرهابها بشكل لا يقاوم كلما ذهب إلى عزبة الشباب ولاحت له نافذة غرفة عبد المحسن من بعيد. وفي كل مرة يعود فيها إلى غرفته، كانت رقية تفرض نفسها عليه بقوة، ويحس بالتوتر في كل أعضائه، فيبحث عن عبد الرحمن لعله يضرب موعداً معها من جديد، ولكنه يمنع نفسه في آخر لحظة، لقد قرر أن يكون مستقيماً مهما كانت التضحيات. ولكنه يحس أن مقاومته تتخاذل كلما تحدث مع عبد الرحمن، وأخبره أنه قابل رقية عدة مرات، وأنها تسأل عنه باستمرار، ثم يعقب ضاحكاً: «لا أدري ما فعلت لها... أو بها. فهي لا تفتأ تسأل عنك بحرقة...»، ثم يغمز بعينه ويضحك. إنه لا يدري هل كان عبد الرحمن يبالغ، أم أنه يقول الحقيقة، ولكنه يحس بالنشوة والزهو بهذا الإطراء، ويشعر أن كل ذرة في جسده تتوق لرقية ومثلثها الذي لا يريد أن يفارق خياله، مع كل الوخز الذي يسببه مجرد تصور ذلك المثلث البشع. فهو يشعر بالخزي الشديد منذ أن رأى وجه أمه محاطاً بمثلث رقية في أحد أحلامه.

ذات ليلة، كان يستذكر لأول إمتحان دوري يؤديه، وكان الهدوء التام يسيطر على كل المكان، فقد نام الجميع، وليس هناك إلاّ أصوات بعض الكلاب الشاردة التي تذرع الشوارع ذهاباً وإياباً في تلك الساعة من الليل. كانت أصواتها تبتعد وتقترب، ولم يكن قادراً على التركيز، فقد سيطرت رقية على كل تفكيره. كان يحاول حفظ منحنيات العرض والطلب وتقلباتها مع تغير الظروف، ولكن تقاطعاتها توحي له بأشياء لا علاقة لها بالإقتصاد. أحس بحرارة شديدة، رغم اعتدال الطقس نسبياً في

هذا الوقت من أيلول في الرياض، ورغم دوران المروحة برقة وهدوء. أراد استنشاق بعض الهواء، فنهض عن الكرسي، ووضعه تحت النافذة، وأخذ ينظر إلى الشارع الخالي، ويراقب الكلاب وهي تطارد بعضها بعضاً، متصارعة على الطعام والأُنثى، ويغمض عينيه ويعبىء رئتيه بهواء لا يمكن أن تجده إلاّ في نجد في مثل هذه الأيام. كان في حالة من النشوة اللذيذة دون شراب، وأحس بسكينة ضافية، وأراد أن يهبط، ولكن نافذة أحد المنازل المقابلة لفتت انتباهه. لقد كانت شبه مغلقة، ونوراً خافتاً مثيراً ينبعث منها، من خلال الشيش الذي لا يكاد يستر شيئاً. استغرب أول الأمر أن يكون هناك من هو مستيقظ حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل، وأراد العودة إلى مبادىء الإقتصاد، ولكن حركة تراءت له من النافذة جعلته يقف مكانه ويدقق النظر أكثر وأكثر... رأى منظراً جعل قلبه يدق بعنف، وكل شيء فيه يتوتر، والعرق يتصبب غزيراً... رجل وامرأة عاريان تماماً في حالة إلتحام كامل. لم يستطع أن يحول نظره عن المنظر الدامي، حتى هدأ الرجل تماماً، ثم نهض وغاب عن الغرفة، وبقيت المرأة مضطجعة دون حراك وقد تعلقت عيناها بالنافذة. خيل إليه أنها تنظر إليه، وقد أمسكت به متلصصاً، فشعر بخوف شديد، وأبعد وجهه عن النافذة بسرعة. ولكن الإغراء كان أكبر، فعاد للنظر من جديد، وكانت المرأة لا تزال على ضجعتها تنظر إلى النافذة، وهيء إليه أنها تبتسم هذه المرة. لم يستطع الحراك، وكأنه أصبح مشلولاً، حتى عاد الرجل، فنهضت المرأة وغابت عن الغرفة، ثم عادت وأطفأت النور، ولم يعد يرى شيئاً. نزل من على الكرسي، واستلقى على فراشه وهو في غاية التوتر... إلتصقت عجيزة المرأة وثدييها في ذهنه ولم يعد يرى سواها. وفجأة أحس بالخوف. ماذا لو

كانت المرأة قد رأته فعلاً وهو يتلصص عليهما وهما في حالة خاصة؟ إنهم من الجيران، ولا ريب أنهم يعرفون الخال وأهله، فهل يشكونه إليه؟. مصيبة لو حدث ذلك، سينهار تمثاله الجميل عند خاله وموضي، وربما يخبر الخال أهله، فيتحطم قلب الأُم وثقة الأب. ولكن المرأة لم تتحرك أو تشعر بالحرج عندما رأته يتلصص من النافذة، أو ربما لم تره ولكن هيء له ذلك، فقد بقيت مستلقية دون أن تفعل شيئاً لستر جسدها على الأقل. ثم كيف تسمح لنفسها بممارسة أدق الخصوصيات والنافذة شبه مفتوحة، فالشيش لا يستر شيئاً؟ لعلهما كانا ينشدان نسمات آخر الليل العليلة في مثل هذا الوقت، وثقتهما بأن الشارع خال في مثل هذه الساعة من الليل. ولكن لماذا بقيت ساكنة عندما رأته؟... لعلها لم تراه... بل رأته فقد كانت العين بالعين. بقي غارقاً في قلقه وتساؤلاته، وقد نسي الإقتصاد ومنحنيات العرض والطلب، وتوازن المنشأة والمستهلك، حتى أحس بالتعب والنعاس يغزوه سريعاً، فنهض من على السرير واتجه إلى السطح، حيث كان الجميع يغطون في نوم عميق، ما عدا حمد الذي بقي فراشه خالياً.

- ١٢ -

بقي طوال اليوم التالي قلقاً، مترقباً أن يحدث شيء، أن يستدعيه خاله، أو تدخل عليه موضي وهي ثائرة، ولكن اليوم انقضى دون أن يحدث شيء غير عادي. كان خاله مبتسماً وهو ينظر إليه، وكانت موضي مشغولة في روتينها اليومي وهي «تبرطم» كالعادة. وعندما جن الليل، وهدأت الحركة، وعادت الكلاب إلى المسرح تتهارش وتتناكح، عاوده

الفضول والغليان من الداخل. حاول أن يسيطر على نفسه، وأنه ليس كل مرة تسلم الجرة، ولكن ناراً تأكله من الداخل لا يستطيع لها إطفاء. وعاد إلى موقعه ليلة البارحة، وأخذ ينظر... كانت النافذة مغلقة تماماً هذه المرة، ولا بصيص نور يتبين من ورائها، فأحس بخيبة أمل كبيرة، وعاد خوفه من جديد. لا بد أنهم اكتشفوا ما حدث ليلة البارحة، ولكنهم لم يريدوا الفضيحة حرصاً على الجيرة... سوف يصبح تحت رحمتهم من الآن وصاعداً. أراد النزول وهو في غاية الإحباط والخوف، ولكن شيئاً لفت انتباهه على سطح المنزل ذي الدور الواحد. لقد كان كل شيء مظلماً، إلاّ من بصيص ضئيل من النور، لعله كان آتياً من النجوم، أو نور الشارع البعيد... لا يهم. المهم أنه بقي متسمراً في مكانه، وكله عيون مفتوحة. رأى خيالاً يأتي من ناحية هوة الدرج، ويتجه إلى الجهة الأُخرى من السطح، ثم يعود إلى الجهة القريبة من النافذة، وهو يحمل على كتفه لفة كبيرة. ألقى الخيال اللفة على الأرض، وفرشها، ثم غطاها بشرشف خفيف، ووضع وسادتين صغيرتين، ثم غادر عائداً إلى البيت. لقد كان خيال إمرأة، لا بد أنها امرأة الأمس. وما هي إلاّ لحظات، وعاد الخيال من جديد، لقد كان واضحاً هذه المرة أنها امرأة... وامرأة الأمس. وقد كانت تلبس شلحة ضيقة جداً تبرز نتوءات جسدها المكتنز، وتلك المناطق المتورمة فيه توماً لا يمكن إخفاؤه. ألقت نظرة حولها، ثم نظرت إلى النافذة الصغيرة بسرعة، فأسرع هشام بإخفاء رأسه، ولكنه لا يشك هذه المرة أنها لمحته. نزل بسرعة، وقلبه يدق بعنف، وحاول أن يجمع شتات نفسه. أطفأ النور، وحاول أن يسترخي قليلاً، ويستعيد أنفاسه المبهورة، ولكن إحساسه أن شيئاً يجري على السطح المقابل، جعله يقفز بجنون، ويعود إلى النافذة، وينظر من جديد، وهو يشعر

ببعض الأمان بعد إطفاء النور. كانت المرأة قد استلقت على الفراش، وأخذ هشام يتخيل تفاصيل ذلك الجسد الملقى أمامه، في الوقت الذي كان كلبان يتعاركان في الشارع، وقد علت أصوات نباحهما حتى عكرت لذة السكون المحيط. ثم فجأة انتهت المعركة، وأخذ الكلبان يجريان وراء كلب ثالث، وقد ابتعد عواء الجميع... وعاد هو بكله إلى السطح المقابل. لم يتغير شيء، ولكن بعد قليل، أطل شبح آخر وتوجه إلى الفراش... لا بد أنه رجل البارحة. كان يرتدي ثوباً أبيض وطاقية بيضاء. خلع الثوب وأبقى الطاقية، وبقي في ملابسه الداخلية من سروال أبيض طويل، وفانلة نصف كم بيضاء، ثم انسل إلى جانب المرأة... وترك هشام لنفسه العنان في تخيل ما يحدث.

عندما نام تلك الليلة، كانت كل أحلامه تدور حول رجال ونساء عرايا، يلاحقون بعضهم بعضاً وهم يضحكون، تحت أشعة شمس حارقة، في صحراء قاحلة، ولا أحد منهم يمسك بالآخر.

ـ ١٣ ـ

بعد ظهر أحد الأيام، كان جالساً في البوفيه، يقضم ساندويش بيض مسلوق بالطماطم والشطة الحارة، ويراجع بسرعة مذكرات مبادىء القانون، التي سيمتحن فيها بعد أقل من ساعة. كان مستغرقاً في المراجعة وهو في غاية القلق، فقد أصبح التلصص على السطح المقابل عادة يومية ألهته عن الإستذكار كما يجب، فأجفل عندما أحس بيد تربت على كتفه من الخلف، وصوت يقول: «هشام... هشام...»، إلتفت إلى الوراء وقد توقف فمه عن لوك الطعام، وكانت المفاجأة... لقد كان

عدنان العلي، بذات الوجه الباهت الأشبه بالمومياء، وابتسامة كبيرة تحتل كل الوجه. نهض بسرعة، وعانق صديق الطفولة بحرارة، وخيالات كثيرة تمر في ذهنه بسرعة، وأحس بهبوط في المعدة عندما طاف التنظيم بذهنه. دعاه إلى الجلوس وهو يتفحصه بدقة. لم يتغير كثيراً، إزداد هزالاً، غير أنه ترك شعر ذقنه الخفيف ينمو كما اتفق. سأله عن الدمام والربع وكل شيء، ثم وكأنه تذكر شيئاً:

ـ ولكن... ماذا أتى بك إلى الرياض؟ ومنذ متى أنت هنا؟ وكيف عرفت مكاني؟ و...

وأوقفه عدنان بإشارة من يده وهو يبتسم قائلاً:

ـ على رسلك يا أخي... على رسلك.

ثم بعد أن بلع ريقه، قال بصوته الذي ازداد خفوتاً:

ـ أنا هنا منذ خمسة أيام.

ـ خمسة أيام؟... خمسة أيام ولم تبحث عني إلاَّ اليوم!! يا لك من صديق عاق.

ـ ألم أقل لك على رسلك يا أخي.

وبلع ريقه مرة أخرى وواصل قائلاً:

ـ أنا هنا منذ خمسة أيام... قدمت أوراقي لكلية الزراعة، ولم يقبلوني إلاَّ بعد الرجاء وتبويس اللحى، وتوسط فلان وعلنتان، ومعهم حق فقد كنت متأخراً كثيراً... المهم، سكنت مع بعض الطلاب من الأقارب. وها أنذا... هذه هي كل القصة.

ـ وماذا بشأن روما والفن؟ كيف قررت أن تدخل كلية الزراعة وأنت

الذي لا تستهويه العلوم التطبيقية؟

وابتسم عدنان، وهو يشبك يديه في حجره ويقول:

ـ لقد كان الوالد على حق... الفن مضيعة وقت. والعمل بالثانوية لا مستقبل حقيقي له، وعلاماتي لا تؤهلني لدخول الطب أو الهندسة. هذا كل ما في الأمر...

كان عدنان يتحدث بصوت هادىء ومنخفض كعادته، ولكن بثقة غريبة لم يعهدها فيه من قبل... أو يتغير الناس بسرعة في أقل من شهرين؟... ولم يتمالك نفسه من الإعتراض:

ـ ولكنك موهوب يا عدنان... حرام أن تضيع هذه الموهبة.

وابتسم عدنان وهو يقول بلا إكتراث، ودون أي إنطباع واضح على وجهه:

ـ بلا موهوب بلا بطيخ... كل ميسر لما خلق له. والخيرة فيما اختاره الله.

ثم بعد صمت قصير:

ـ وعلى أية حال، لقد فكرت جدياً في مسألة الفن هذه... ما الفائدة فعلاً من الفن؟... إنه وقت ضائع لا يرضاه الله. وأنا لا أريد أن أضيع وقتاً سوف أُسأل عنه يوم الحساب.

كان هشام في حالة من التعجب أقرب إلى البله... أهذا هو عدنان نفسه الذي فارقه قبل أقل من شهرين؟!... عدنان الذي كان يجد ملجأه الوحيد في الرسم، يرفض الرسم؟! كل شيء فيه يكاد يكون مختلفاً، ما عدا ذلك الوجه الباهت والسحنة الأقرب إلى سحنة الأموات، وإن كانت

العينان أكثر بريقاً من ذي قبل. ثم ما هذا الحديث الدائم عن الله ويوم الحساب... حتى صديقهما سالم، أكثرهم تطوعاً، لم يكن يكثر الحديث في هذه الأمور.

ـ هذا ليس صحيحاً...

قال هشام وهو يحاول الخروج من تساؤلاته:

ـ الفن ليس مضيعة وقت... إنه تعبير عن السامي في حياتنا ونفوسنا. وإذا أردت تعبيراً فلسفياً، فالفن تعبير عن المطلق في ذواتنا... الشاعر في قصيدته، والرسام في لوحته، والموسيقي في معزوفته. كل هؤلاء يعبرون عن الجانب المطلق السامي في البشر، بعيداً عن تفصيلات وروتين الحياة القاتل. أنت نفسك كنت لا تجد نفسك الحقيقية إلاَّ مع الفرشاة والألوان عندما تحنقك الحياة... لماذا؟... لأنك تجد نفسك هنا.

ثم بعد تردد:

ـ وأعتقد أنك ما زلت كذلك، ولكني لا أدري ماذا دهاك... لم أغب عنك إلاَّ أقل من شهرين. ولكن. لا أدري...

وأرتبك عدنان قليلاً، ولكنه حاول الإبتسام وهو ينظر بعيداً ويقول:

ـ لم تتغير يا هشام. طول عمرك تحب الجدل والبعد عن اليقين... أما أنا فقد حسمت الأمر.

وصمت قليلاً وهو ينظر إلى الأفق ويقول:

ـ نعم... لقد تركت الأمر لصاحب الأمر يفعل ما يشاء. فما نحن إلاَّ مخلوقات عاجزة، وما الدنيا إلاَّ دار ممر. لقد نسينا الله فنسينا.

ثم صمت، وقد اتسعت عينا هشام وجحظتا... كلا... هذا ليس عدنان، وإن كان شكل عدنان. وقال وقد اكتسى وجهه بتعبير أقرب إلى البلاهة:

ـ رباه... شد ما تغيرت يا عدنان. يهيأ إليَّ أني لا أعرفك.

وضحك عدنان باقتضاب وهو يقول:

ـ كلا يا صاحبي... أنا لم أتغير، ولكني عدت إلى الثبات الذي لا تغير بعده.

وساد صمت قصير، كان كل من الصديقين يراقب صاحبه بصمت، ثم نظر هشام إلى ساعته، وأخذ يجمع كتبه وهو يقول:

ـ أرجو المعذرة... فلدي امتحان بعد أقل من خمس دقائق. قل لي... أين تسكن؟

ـ في الحلة.

وأخذ يصف له المكان، وهما يسيران باتجاه مبنى الكلية، ثم انفصلا وقد استعد هشام للحمام البارد الذي سيغرقه فيه بعد قليل الدكتور نجر الشطرطون.

ـ ١٤ ـ

عصر ذلك اليوم، ذهب إلى الحلة لأول مرة منذ أن جاء إلى الرياض، ولم تكن بعيدة عن شارع البطحاء، ولكنه تاه في بعض الأزقة حتى وصل إلى بيت عدنان. طرق الباب الفولاذي الضيق، ذا اللون الأخضر الباهت لبعض الوقت دون أن يجيب أحد، وكاد أن يغادر عندما

جاء صوت من الداخل معلناً وجود أحد هناك. فتح الباب، وأطل شخص يرتدي سروالاً أبيض طويلاً فضفاضاً، وفانلة نصف كم، وطاقية بيضاء. كان كبير الشبه بعدنان، إلاّ أنه كان أطول قامة وأكثر امتلاءً، مع لحية خفيفة تحتل ذقنه وعارضيه... «مساء الخير... هل الأخ عدنان موجود؟»، «وعليكم السَّلام ورحمة الله وبركاته... نعم. تفضل...»، وفتح الباب على اتساعه، ودخل هشام، وانتظر حتى أغلق ذلك الشخص الباب، ثم نظر إليه مبتسماً وقاده إلى أول غرفة إلى يمين الداخل وهو يقول مبتسماً: «تفضل... سوف أبلغ عدنان بوجودك. اسم الكريم؟»، «هشام... هشام العابر»، «والنعم...»، «أنعم بحالك...»، ثم غادر إلى داخل المنزل. كانت الغرفة بسيطة ونظيفة: حنبل أخضر يغطي الأرضية، وبعض المساند الصفراء، والمراكي الزرقاء ترتص على الجوانب. وجلس حيث قادته قدماه في أول موضع. كانت هناك رائحة رطوبة تملأ المكان. رطوبة غريبة على جو نجد، ولكنها ذكرته بالدمام. لم يطل انتظاره كثيراً، إذ سرعان ما جاء عدنان وهو يردد كلمات الترحيب، وقد كان نسخة من زميله في المظهر. وجلس الإثنان بجانب بعضهما، وعدنان يردد كلمات الترحيب التقليدية. ثم أتى الشخص الذي فتح الباب وهو يحمل صينية شاي عليها إبريق فضي صغير، وبيالتان، وضعهما أمام عدنان وهو يقول، والإبتسامة لا تفارق وجهه: «أرجو المعذرة يا أخ هشام... لدي أعمال لا بد أن تؤدى. ولكن البركة في الأخ عدنان»، قال ذلك وهو ينظر إلى عدنان ويبتسم، ثم غادر المكان بهدوء. أخذ الإثنان يرتشفان الشاي بهدوء، ثم قال عدنان فجأة وعلى عَجل، وكأن حية لدغته:

ـ لقد نسيت شيئاً...

وغادر بسرعة، ثم عاد وبيده رزمة أوراق مالية، دفعها لهشام وهو يقول:

ـ قاتل الله النسيان... هذا مبلغ من المال أعطانيه الوالد لتسليمه إياك... إنه من والدك.

ابتسم هشام، وأخذ المبلغ ودسه في جيبه بهدوء، وعاد إلى بيالة الشاي يرتشفها، وهو يفكر بالمبلغ. لقد كان واضحاً أنه مبلغ كبير... ليس أقل من مائتي ريال، فقد كانت «العشرات» كثيرة. وبعد صمت يسير، قال هشام وقد زوى ما بين عينيه:

ـ على فكرة... ما هي أخبار الإعتقالات؟

كان هشام خبيثاً في سؤاله، فهو يبحث عن مزيد من الإطمئنان، رغم اطمئنانه بعد كل هذه المدة، ويريد أن يخيف عدنان الذي يعرف سابقاً. ولكن عدنان واصل ارتشاف الشاي وهو يقول بهدوء، وينظر إلى السقف الخشبي:

ـ لا جديد... بعض الرافضة في القطيف والاحساء... وعلى أية حال لم أعد أهتم.

«بعض الرافضة؟!...»، تعبير جديد لم يعتده. ولكن المفاجأة الكبرى أنه لم يعد يهتم:

ـ لم تعد تهتم؟!... كيف؟

ـ قلت لك اليوم، لقد تركت الأمر لصاحب الأمر...

وساد الصمت للحظات، ثم قال عدنان، وكأنه يؤدي واجباً: على فكرة... هل ترغب في مشاهدة المنزل؟

ودون انتظار الإجابة، نهض واقفاً وهو يقول:

ـ سوف يعجبك... إنه أفضل من بيتنا في الدمام، ومن فيه أفضل من ماجد وأخوته... أُخوة يوسف... هنا.

قال ذلك وهو يضحك باقتضاب. ونهض هشام بتثاقل، فيما كان عدنان يتقدمه بخطوة واثقة يشهدها لأول مرة.

ـ هذا هو الحوش... لا نستخدمه كثيراً رغم اتساعه.

وحول الحوش كانت ثلاث غرف تنتشر على جنباته، بالإضافة إلى الحمام ومدخل الدرج. وقاده عدنان إلى أول غرفة على يسار الداخل قائلاً، وقد علت الإبتسامة كل وجهه:

ـ هذه غرفتي...

ثم أخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول:

ـ تفضل... على الرحب والسعة.

وأطلق ضحكة سريعة مقتضبة، ثم ولج الغرفة بسرعة. كانت الغرفة عبارة عن حنبل مخطط بالأزرق والأخضر يمتد على طول الغرفة، وفراش إسفنجي على الأرض، يحتل الركن الأقصى بجانب النافذة الوحيدة إلى يسار الداخل، بالإضافة إلى مشجب ملابس معدني، كالذي لديه، إلى اليمين، وحقيبة سوداء ملقاة بإهمال بجانب الباب، بالإضافة إلى بعض الكتب ملقاة دون ترتيب إلى جانب الفراش:

ـ هذه غرفتي. ما رأيك؟.

ـ لا بأس... لا بأس.

وانطلق إلى الكتب الملقاة يتفحصها... «فتاوى ابن تيمية»، «معالم

في الطريق»، «رحلتي من الشك إلى الإيمان»، «الله يتجلى في عصر العلم»، «فتح الباري»، «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»، «إحياء علوم الدين»، «مدارج السالكين»، «المستقبل لهذا الدين»، وتوقف عن تقليب الكتب وهو يقول:

ـ فعلاً. . . الفن ضياع وقت.

قال ذلك بلهجة توحي بالسخرية، وإن كان يقصد الدعابة والمزاح، إلاَّ أن عدنان انتفض بشكل لم يتوقعه:

ـ هذا هو العلم المفيد. . . إني اتأسف على كل تلك السنوات التي قضيتها فيما لا يفيد. الرسم والجدل العقيم.

أدرك ما يقصده عدنان، وأحس بالنار تأكله من الداخل، ولكنه قال:

ـ على رسلك يا أخي. . . ما أردت إلاَّ المزاح.

ولكن عدنان كان في غاية الإثارة وهو يقول:

ـ بلا مزاح بلا زفت. . . لا يجوز المزاح في مثل هذه الأمور.

ثم وهو يستعيد رباطة الجأش:

ـ كما أن كثرة المزاح والضحك تميت القلب وتضعف المروءة. كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام. . .

وارتبك هشام، لأول مرة يرتبك مع عدنان. . . ثم قال:

ـ عليه الصَّلاة والسَّلام. . . على أية حال. كلها كتب مفيدة. فهي تزرع الخير، وتنمي السمو. . .

وارتاح عدنان، وعادت السكينة إلى عينيه وهو يقول:

ـ يا لك من مراوغ ذكي يا هشام. . . أنت موهبة فذة. ليتك تكون من نصيب الإسلام وأهله.

وفغر هشام فاه وهو يقول:

ـ وهل أنا بوذي يا عدنان، أم أني أبو جهل؟!

وبكل هدوء قال عدنان:

ـ بل ألعن من كل ذلك. . . ألست ماركسياً؟ ألست بعثياً؟ أنا أعرفك أكثر من نفسك. . . ذلك كاف لإخراجك من الملّة.

«ملة» «خروج»، هل هذا هو عدنان:

ـ ولكني اؤمن بالله ورسوله و. . .

ـ دعك من هرائك. . . أنا أعرفك. الإيمان قول وعمل. وأنت لا قول ولا عمل. عفواً، لا أقصد الإهانة، ولكن هذا هو الحق. . . والله لا يستحي من الحق، فلماذا نستحي أو نجامل نحن عبيده؟

وأحس بالضيق. . . أنا قول ولا عمل. يريد أن يستفرغ. ولكنه كتم غضبه، وجمع نفسه ونهض قائلاً:

ـ أرجو المعذرة، يجب أن أغادر.

وحاول عدنان إبقاءه لبعض الوقت على سبيل المجاملة، ولكنه أصرّ على الذهاب، فرافقه عدنان إلى الباب الخارجي. وقبل أن يغادر، طلب منه عدنان الإنتظار لبعض الوقت، ثم غاب قليلاً في الداخل، وعاد ومعه كتاب صغير دفعه لهشام وهو يقول مبتسماً:

ـ أنا واثق من أنه سيعجبك. ولعل الله ينفعك به ويهديك.

وتناول هشام الكتاب دون حماس، وألقى عليه نظرة عجلى ثم سار في طريقه وهو يسمع صوت الباب يقفل من ورائه.

ـ ١٥ ـ

طوال الطريق من الحلة إلى شارع البطحاء، حيث يستطيع ركوب خط البلدة، كان يفكر في عدنان وهذا الإنقلاب الجذري السريع في حياته وشخصيته. وفي الحافلة المتجهة إلى شارع العصارات، مخترقة شارع الخزان، أخذ يقلب الكتاب الذي أعطاه إياه عدنان، «المنقذ من الضلال» للغزالي. كان لا يحب هذا النوع من الكتب، ولكنه عزم على قراءته لعله يجد فيه تفسيراً لذلك الإنقلاب في حياة عدنان، وهو ذو الشخصية الهادئة طوال حياته.

عندما أغلق على نفسه باب غرفته ذلك المساء، كان فرحاً بالنقود التي أرسلها الوالد، مائتين وخمسين ريالاً، دسها مع رفاق لها في أحد الكتب في مكتبته الصغيرة، ثم أعد لنفسه بعض الشاي، واستند إلى الجدار وأخذ يقرأ «المنقذ من الضلال». لقد كان كتاباً رائعاً حقاً، رغم صغر حجمه، فهو صراع مثير للأفكار، ولكن خاتمته لم تعجب هشام. فهو يقول إن الإيمان في النهاية ليس إلاّ نوراً يلقيه الله في القلب، ولا علاقة للعقل أو الإرادة بذلك. إن خاتمته جبرية محضة، ولكن لعل هذه الخاتمة الجبرية هي التي أثرت على عدنان بهذه السرعة والقوة... وخطرت على باله المادية التاريخية... أليست هي الأُخرى نوعاً من الجبر؟ ولكنه أزاح الفكرة من ذهنه، وعاد إلى التفكير بعدنان.

كان يعلم أن عدنان شخص شبه مسالم وهادىء في التعامل، لدرجة الضعف في الشخصية. فهو حساس، بل ومرهف الحس إلى أبعد الحدود، وما كان يخطر على بال هشام أن ينقلب رأساً على عقب وبهذه السرعة. وكان البحث عن تفسير لذلك يحرقه من الداخل. كان يتعامل

مع عدنان على أنه صديق فقط، ولم يحاول يوماً أن يجعله مجالاً للتأمل حتى هذه اللحظة. وعندما أخذ يجمع صور حياة عدنان، تبدت له أشياء كانت واضحة، ولكنها لم تكن تعني له شيئاً في حينها.

مثل عدنان، لا يستطيع العيش إلاّ في جو من اليقين والإطمئنان ووجود راع يرعاه ويوجهه دائماً. ولأنه شخص مرهف الإحساس، فإن القلق والإضطراب يلازمانه دائماً. تفصيلات الحياة الدقيقة، التي يحسن أخوه ماجد التعامل معها، تزعجه وتثيره لأنه لا يحسن التصرف حيالها. لذلك كان الرسم بالنسبة له نوعاً من الهروب من هذه الحياة المزعجة وتفصيلاتها، وملاذاً وحيداً يجد فيه التفوق على أخيه ونجاحه في عين الوالد والناس. وابتسم هشام عند هذا الحد من التفكير وهو يذكر مقولة لجان بول سارتر، لا يذكر أين قرأها أو سمعها، من أن الناس هم العذاب.

الرسم تعبير عن القلق وبحث عن اليقين في المجرد في الوقت نفسه. يلجأ إليه ساعة القلق، ويجد فيه اليقين والإطمئنان الذي تصبو إليه نفسه، ولكنه يقين وإطمئنان مؤقت، ينتهي بمجرد خروجه من مرسمه. إنه يريد إطمئناناً كاملاً، ويقيناً مستمراً، وأن يكون هناك دائماً من هو مسؤول عنه بحيث لا يقع فريسة قلق الاختيار وعذابه، فحتى اختياره لكلية الزراعة لم يكن اختياراً، بقدر ما هو خضوع لإرادة الأب، وليكن هو المسؤول عنه... وتذكر تلك اللحظة فقط كيف أن نشاط عدنان الفني قد قل كثيراً بعد إنخراطه في التنظيم... لقد وجد ملاذاً وأباً مسؤولاً يقرر عنه، في ظل غياب دور الأب الحقيقي. وهو اليوم يلقي بكل مسؤولياته على الأب الكبير.

وأخذت الذكريات، والتفصيلات المنسية، تتزاحم في رأس هشام. . . أمور لم يكن يلقي لها بالاً، ولكنها الآن تتزاحم في رأسه بشكل عجيب. فعلاقته مع عدنان كانت علاقة من جانب واحد، جانبه هو. فرغم أن الصديقين كانا من محبي العزلة والهدوء، إلاَّ أن عدنان كان مستسلماً في كل شيء، وكان ذلك يغيض هشام بعض الأحيان، وإن كان محل رضاه معظم الأحيان. . . فعدنان كان يشعره بالقوة والقدرة والنفوذ، وذاك شيء لذيذ حتى وإن كان محله صديقه الأثير. وقفزت حادثة قديمة إلى ذهنه بشكل غريب ومفاجىء. لا يدري كيف حدث ذلك، رغم بُعد المسافة الزمنية وعدم تذكره لتلك الحادثة إلاَّ في هذه اللحظة.

كانا في الصف الرابع الإبتدائي، وكانت مادتي القرآن الكريم والتجويد أصعب وأبغض المواد عند التلاميذ. فقد كان أستاذ المادتين ومدير المدرسة، الأستاذ عبد السَّلام الفقعاوي، شديداً على التلاميذ، وكانت الخيزرانة لا تفارق يمينه أبداً. كانت هذه الخيزرانة تنهال بعنف على أجسادهم الطرية عندما يتلعثمون في قراءة آية، أو لا يطبقون مبادىء التجويد في القراءة. لقد كانوا يرتعشون من مجرد ذكر الإدغام والغنة والإقلاب، فذاك كان يعني الجلد بالخيزرانة، والحبس في المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي. وما كانوا يستطيعون الشكوى لأحد، فقد كان الفقعاوي هو المدير، وكان أهاليهم يستطيبون هذه الشدة التي ستجعلهم «رجالاً» في النهاية. وكان لا بد أن يخطئوا، فقد كان الأستاذ يقف أمامهم مباشرة وهم يقرأون، ويتسلى بضرب كفه اليسرى بالخيزرانة برفق، ولكن بشكل مرعب للجميع. ولم تكن الإبتسامة تعرف طريقاً إلى وجه الأستاذ الفقعاوي، الذي كان مثيراً للرهبة بدوره: أعور العين،

مجدور الوجه، كث الشارب واللحية بلا ترتيب. حتى أساتذة المدرسة كانوا يخافونه، فهو القادر على إنهاء عقودهم، أو كتابة تقارير سيئة عنهم. وكثيراً ما كان يدخل عليهم فصولهم فجأة، وبيده خيزرانته المعهودة، ويهزىء أمام التلاميذ من يعتقد أنه مقصر في واجبه، وكانوا دائماً مقصرين.

في إحدى حصص الأستاذ الفقعاوي، كان المطلوب تلاوة بعض آيات من القرآن الكريم مع تجويدها، وإظهار حروف الإدغام والغنة والإقلاب. وقبل أن يصل الدور إلى عدنان، رفع إصبعه مستأذناً في الذهاب إلى الحمام، ولكن الأستاذ زجره بشدة، فتكوم في مقعده وهو ينظر إلى المصحف أمامه، ويرتعش بشدة. كان دور هشام في التلاوة قد انتهى، وكالعادة كانت الخيزرانة قد أخذت نصيبها منه ذلك اليوم، ولكنه حمد الله أنه لم يخطىء كثيراً بحيث يطرح أرضاً ويضرب بالفلقة، ثم يحبس آخر النهار. أمر الأستاذ عدنان بالوقوف والتلاوة، ولكنه بقي صامتاً وهو يرتعش، وفجأة أخذ يبكي وينشج. وانتبه الأستاذ إلى بقعة من الماء تحت مقعد عدنان، فجذبه من منكبه بقسوة، وتفحص ثوبه الذي كان مبللاً. وانهالت الخيزرانة عليه، ثم جذبه الأستاذ إلى مقدمة الفصل، ووضع رجليه في الفلقة، ثم أمر أقرب تلميذين برفعها، وانهالت الخيزرانة بوحشية وشدة، وسط صراخ عدنان، وشتائم الأستاذ الذي كان البصاق يتطاير من فيه وهو يردد: «يا عيال الحرام. . . في حصة القرآن. . . في حصة كلام الله. . . إذا ما عرف أهلكم يربونكم، أنا أربيكم. . . أنا أربيكم. . »، وتستمر الخيزرانة في الصعود والهبوط. وبعد أن انتهى الأستاذ، بصق على عدنان، وهو «يبرطم»، ثم خرج من الفصل بعد أن أمر عدنان بالبقاء ساعة بعد انتهاء اليوم الدراسي وخروج التلاميذ.

انتهت الحصص، ولم يغادر هشام، بل بقي مع عدنان الذي كانت بقايا الدموع لا تزال عالقة بزوايا عينيه... «ليش ما رحت الحمام؟...»، سأل هشام ببراءة. «عيا الأستاد... وكنت حصران مرة. وش تبيني أسوي!...»، أجاب عدنان ببراءة، وهو يمسح بكفه دمعة انحدرت من زاوية عينه اليسرى. «ليش ما رحت واللي يصير يصير... لقد ضربك وحبسك... وش الفرق؟»، قال هشام. «ما قدرت... ما قدرت...»، قال عدنان، وقد بدأ يبكي وينشج من جديد.

وابتسم هشام وهو يتذكر كل هذه الأشياء التي لم يكن يعلم أنها ما زالت قابعة في ذهنه... وقرر أن يتعمق في قراءة فرويد ومدرسة التحليل النفسي أكثر، لعلها تمنحه إجابات لأسئلة لا يجد جواباً لها في الماركسية. وطافت في ذهنه تجربته الدينية العميقة حين ذهب إلى المسجد مع الفجر، وصلّى بعمق غريب ولذيذ لأول مرة في حياته، بعد تجربته الجسدية مع رقية، فقد كانت صلواته السابقة مجرد حركات جسدية لا روح فيها، ومجاملات اجتماعية بعض الأحيان. ورغم أنه يشعر بالضآلة حين يجامل في مثل هذه الأمور، إلاّ أنه لا يستطيع إلاّ أن يجامل، فالله غفور رحيم، ولكن عباده لا يعرفون الرحمة والغفران. لقد أحس بعد تلك التجربة العنيفة بتمزق لم يستطع احتماله، فكان بحاجة إلى أب رؤوف رؤوف يلقي بحمله عليه... أب ليس ككل الآباء. أب يسامح على الخطأ والخطيئة، ويأخذ بيده إلى الراحة بعد العذاب، والصفاء بعد القلق وذاك الوخز المؤلم في الداخل... ولكن شتان بين حاله مع رقية، وهذا الإنقلاب العجيب في حال عدنان... كل إنسان يبحث عن أب رحيم قادر، وأم حنون في الأزمات والملمات، والكل يبحث عن كتف عطوف قوي يبكي عليه ويلقي عليه بأحماله، ولكن

القليل هو من يريد أن يبقى باكياً على ذلك الكتف، فهو لذيذ حقاً، ولكن الألذ منه أن تخطىء وتصيب، فاللذة في وجود نقيضها وليس في مجرد وجودها. شيء لذيذ وجميل أن تجد من يكون مسؤولاً عنك طوال الوقت، ولكن السعر باهظ جداً... إنه الحرية ذاتها. الطفل وحده من يدفع هذا السعر بالرغم منه، ولكن من يريد أن يبقى طفلاً طوال الوقت؟! الكل يجد الدفء في حضن الأُم، والقوة في الأب، ولكن قلة من يريدون البقاء في ذلك الحضن وعلى ذلك الكتف... ويبدو أن عدنان واحد من هؤلاء.

الدين ضرورة ملحة، والله وجود وحاجة في الوقت نفسه. فلو لم يكن موجوداً، لما كان له حاجة. ولو لم يكن حاجة، لما كان موجوداً... إن الحاجة والوجود يكملان نفسيهما هنا، والتجربة الذاتية خير برهان... وطز في ماركس وفيورباخ وابن الراوندي، فهم لم يروا من الدين إلاّ الطقوس والشكل، أما الجوهر فهو حاجة لا يمكن العيش بدونها... لقد أفسد الناس الدين بالطقوس والمظاهر، أما ذات الدين، فهو السمو بعينه. بدون الله، لا بد أن يتحول الوجود إلى عبث وعبء ثقيل... ولعله كذلك! ولكن يجب ألا نجعله كذلك، وإلا فما معنى الحياة؟... وطافت بذهنه مقولة فولتير مرة أخرى: لو لم يكن الله موجوداً، لوجب إيجاده. وتذكر مقولة إيفان كارامازوف أن كل شيء يصبح مباحاً ومبرراً، حين لا يكون لله وجود.

كانت كلاب الشارع قد أخذت تنبح، وهو لا يزال مستنداً إلى الجدار يحتسي شاياً بارداً دون أن يكترث. ألقى المنقذ من الضلال من يده. اتجه إلى الكرسي. وضعه تحت النافذة. أطفأ الأنوار... وأخذ يتابع ما يجري على الضفة الأُخرى من نهر الطريق الصامت.

ـ ١٦ ـ

يالجمال طقس نجد هذه الأيام. . . ليس بارداً ولا حاراً، لا جافاً ولا رطباً. . . إنه جميل وحسب، كما الجنة حسب الوصف. . . أصبح يكثر الذهاب إلى البوفيه مع بعض زملائه الجدد، فيعلقون على بعض الأساتذة، ويعلقون على الأخبار الأحياناً، وأحاديث لا معنى لها أحياناً أخرى، و «البنات» أكثر الأحيان. كان يبدو بالنسبة لهم الأقل تجربة، بل هو عديم التجربة على الإطلاق. . . كانوا يتحدثون عن مزنة وبدرية وهيلة وعائشة وعواطف وإبتسام ومنى، وهو لا يجد ما يقول. . . كان يود الحديث عن نورة، وعن رقية، وقصص عن موضي يؤلفها. . . ولكن شيئاً كان يمنعه، فكان يصمت ويغرق نفسه في مبادىء القانون والإقتصاد، حتى أصبح يسمى بفأر الكتب، أبو أربع عيون. . . ورغم الوصف الذي كان يضايقه، فقد كان محل ثقة الجميع وحبهم. كانوا يقصدونه لفهم ما استغلق عليهم فهمه من مواد، أو في حل مشاكلهم العاطفية، وكانوا يستشيرونه في جمال فتياتهم وهم يجلبون صورهن في الجيوب. . . كان مسروراً بذلك، وفي غاية النكد في الوقت ذاته. . . أن تكون محل ثقة يعني أنه لا خوف منك. . . وهذا ما كان يضايقه، فهو لا يريد أن يكون «مضموناً» في كل الأحوال.

وكثرت نزهاته إلى طريق خريص مع عبد الرحمن بعض الأحيان، ومع محمد الغبيرة وعبد المحسن التغيري أكثر الأحيان، حين تتوافر سيارة أحد رواد العزبة الكثيرين، فنجد في مثل هذه الأيام تتحول إلى قصة أخرى. فهي تعود إلى تلك الأيام التي شهدت حب قيس وليلى، وعنترة وعبلة، وذاك الشعر الشفاف الذي لا يمكن أن تجده في غير

نجد. كل شيء فيها جميل، حتى أخلاق الناس ترق وتصبح أكثر شفافية، بعد الجلافة وقلة الذوق، فشمس نجد وأرضها لا تعرفان الرحمة عندما تمنحان الفرصة، وما أكثر الفرص. . .

أمسى ينام في غرفته، فقد كانت البرودة غير محتملة في ساعات الصباح الأولى، كما أن ذلك كان يمنحه فرصة أكبر لمراقبة الضفة الأخرى، ومتابعة نشاط الزوجين الذي انتقل إلى الغرفة السفلى بشكل كامل وتحول السطح إلى مساحة موحشة من التراب الأصفر والأحمر تلعب به رياح الظهيرة. وتحولت علاقته بعدنان «الجديد» إلى مجرد مجاملة اجتماعية لا معنى لها، فقد كان يصادفه بعض الأحيان في البوفيه، حين يتناول بعض ساندويشات عم بدر بعد الظهر. مجرد سلام عابر، وسؤال تقليدي عن الأحوال، ويعود كل إلى حاله. لقد كان واضحاً أن عدنان لا يريد استمرار العلاقة معه، كما أنه لم يكن متحمساً لذلك. ولم يكن عدنان يأتي إلى المقصف وحده، فغالباً ما كان يرافقه زميلان من ذوي اللحى المتروكة وشأنها دون تهذيب، وبعض الأحيان يزدادون إلى خمسة، يشربون الشاي ويتحدثون بهمس لا يكاد يسمع، وكان أكثر ما أثار استغراب هشام هو أنهم لا يبتسمون أبداً، وإذا حدث ذلك من أحدهم، غطى فمه بطرف غترته وكأنه يعتذر، ثم يعود إلى تلك الملامح التي لا توحي بشيء، وكان عدنان يفعل الشيء نفسه. ولم يكن يعهده كذلك. أكثر ما كان يثير عدنان وصحبه، هو عندما يكون هشام وبعض الزملاء يجلسون إلى طاولة مجاورة، يطلقون النكات الخارجة، ويضحكون بأعلى أصواتهم، ثم يتحدثون بصخب. ورغم أن هشام كان لا يشارك في هذا الصخب إلاّ قليلاً، فإنه كان يلذ له الجلوس بين هؤلاء الزملاء، ويسترق النظر إلى عدنان ورفاقه، فيلاحظ أنه يسترق النظر إليه

أيضاً، فيعيد الإثنان أنظارهما إلى الطاولة وكأنهما لم يريا بعضهما بعضاً. كانت شلة عدنان تنظر شزراً لشلة هشام، ثم لا يلبثون أن ينهضوا وهم يرددون: «لا حول ولا قوة إلاً بالله... لا حول ولا قوة إلاً بالله»، فيما يستمر الآخرون بالضحك والصخب... ولم يكن هشام يهتم كثيراً بمسلك عدنان الجديد، وشخصيته الجديدة، ولكنه كان يحس أنه فقد شيئاً لا يمكن تحديده... أحس أن هناك شيئاً جديداً لا يدرك كنهه تخبئه هذه الحياة.

ذات يوم كان عائداً من الكلية، بعد أن تناول الكبسة مع الشباب في العزبة، وكثيراً ما كان يفعل ذلك مؤخراً، رغم امتعاض مهنا وإن لم يعبر عنه صراحة، ولكن عينيه كانتا تقولان ذلك بكل وضوح. لم يكن يهمه ذلك كثيراً، طالما أن محمد وعبد المحسن ودعيس يظهران له وداً صافياً لا تشوبه شائبة، وطالما أنه كان في كثير من الأحيان يجلب معه لبناً طازجاً على الغداء، أو فولاً وخبز تميز، وأحياناً مطبق بالبيض أو الموز في كثير من الأماسي للعشاء. والغريب في الأمر، أن مهنا يكون أكثر دماثة حين يكون العشاء على حساب هشام. كان عائداً ذلك اليوم، وهو يتجشأ بحرية وصوت مسموع طوال الطريق، من أثر اللبن الذي شربه على الغداء، وذلك قبيل أذان العصر بقليل. كان واثقاً أن خاله في المسجد، وأحمد في «أوفر تايم» غالباً، وعبد الرحمن في غرفته يقيل، أو في أحد أزقة الرياض يبحث عن تسلية، والله العالم أين يكون حمد، ولذلك أخذ راحته في إطلاق رياح جوفه كما يشاء. كان الشارع خالياً حتى من الكلاب والصبية، ولذلك عندما وصل إلى المنعطف الذي يؤدي إلى بيت خاله، بقي لوهلة وهو واقف ينظر إلى البيت على الضفة الأخرى... وطافت بذهنه أحداث السطح والغرفة، فتوتر. وأراد ترك

المكان، وفجأة فتح الباب... أطلت إمرأة متشحة بشيلة سوداء من عنقها وحتى آخر شعرها، ما خلا شعيرات كانت تلمع في ذلك اليوم الذهبي. كانت تحمل «سطلاً» مليئاً بالقاذورات، ألقت به بجانب المنزل، ثم انتبهت لوجوده. لم تفعل شيئاً. أحكمت الشيلة على صدرها، وبقيت واقفة بالباب... كانت نظرات حارقة بين الاثنين لم يدرِ كم دامت، فالوقت هنا لا يُقاس بالدقائق والساعات. أحس برعشة تعتريه... لا ريب أنها سيدة السطح. شيء من الخجل يسيطر عليه. لم يستطع إبقاء عينيه في عينيها. إنسحب ككلب ذليل يضع ذيله بين رجليه... وأغلق باب غرفته عليه وهو في غاية الإضطراب. كان قلبه يخفق بشدة، وكانت كل فتحات جسده تفرز السوائل، وقد تحول جسده إلى شعلة من نار. هدأ قليلاً... جذب الكرسي ووضعه تحت النافذة وأخذ ينظر. كان الباب مغلقاً، ولكن النافذة مفتوحة على اتساعها، وكانت هناك... منحنية تكنس الغرفة، وقد جعلت عجيزتها في مواجهة النافذة. أحس بحرارة شديدة وهو يرى ذلك الجدول بين ردفيها، وكل شيء فيه يكاد ينفجر. كل شيء يبدو نظيفاً في الغرفة، ولكنها لا تزال تكنس. كان مسروراً بذلك... وفجأة استدارت بسرعة، ونظرت إليه وهي تبتسم، ثم أقفلت النافذة بسرعة. لقد رأته إذاً!. بل هي عالمة بوجوده منذ اللحظة الأولى. ولعلها عالمة أيضاً بتلصصه الليلي. أحس باللذة والخوف والقلق معاً... يريد سيجارة. نعم سيجارة. هبط الدرجات بسرعة وهو يصيح «سعيد... يا سعيد»، وأتت موضي بسرعة وهي تعالج وضع الغدفة على وجهها وتقول بصوت واضح فيه الإضطراب: «خير... خير إن شاء الله. عسى ما شر. وش بك يا هشام...»، «أبداً. ولا شي... أبي عبد الرحمن. وين عبد الرحمن...»، قال هشام، فهدأ روع موضي

وهو تقول: «حسبي الله عليك هبلتني... كل ها اللجة عشان دحيم!... لا... أنت منت بعلى عادتك؟»، وانتبه هشام لنفسه وعاد إليه الهدوء وهو يقول: «أبد... كنت أبيه في موضع مهم... وينه؟»، «لحظة ويكون عندك...»، قالت موضي وهي تعود إلى الداخل. وما هي إلا لحظات، وكان عبد الرحمن يطل عليه في الغرفة، بشعره الأشعث المنكوش، وقد كان واضح القلق وهو يقول: «خير. خير إن شاء الله. ما هيب العادة إنك تناديني!...» «أبد... ولا شي. أبي سيجارة... إذا سمحت»، وبهت عبد الرحمن، ثم أخذ يضحك بشدة وهو يقول: «غربلك الله يا شيخ... كل هذا عشان سيجارة. خذ... هذا بكت بأكمله»، وألقى إليه بعلبة المارلبورو الحمراء، ثم اتجه إلى الباب وهو لا يزال يضحك. وقبل أن يغلق الباب وراءه، نظر إلى هشام باستغراب وقال: «ولكن... منذ متى وأنت تدخن؟»، وابتسم هشام وهو يخرج سيجارة ويشعلها، فيما كان عبد الرحمن يخرج وهو يتثاءب قائلاً: «غربلك الله... خربت علينا ها الظهرية».

كانت سيجارة في غاية اللذة... ذات الدوار اللذيذ، وذات اللعاب، وذات التوتر، وذات الصور... لكم يتمنى لو كانت رقية بين يديه الآن، إنه على استعداد لافتراس أي أنثى في هذه اللحظة. ولكن ماذا بشأن تلك المرأة؟... وامتطى الكرسي مرة أخرى، ولكن لا شيء. كل شيء مغلق، الباب والنافذة... وعاد إلى الأرض، وأشعل سيجارة أخرى امتصها إلى الآخر، ثم ذهب إلى موقده الصغير وأعد بعض الشاي وهو لا يزال يفكر. لا ريب أنها رأتني. ماذا تريد!... لا ريب أنها تريد ما أريد. كلام فارغ... كيف عرفت؟ كل شيء واضح... وما أدراك... وامتص سيجارة، وعاد إلى النظر من جديد. لا شيء...

أنت واهم... كلا... نعم... ألم ترَ زوجها؟... لديه متاع ليس على أحد. وهل الحياة مجرد متاع؟ وهل الحياة ميتافيزيقا مثلك؟... ولكنها رأتني وابتسمت. ربما. ولكن هل كل من يبتسم لك يرغب في نكاحك. وابتسم... نكاح... يا لها من كلمة سمجة قاسية لا تعبر عن أي شيء فيه متعة. لا بد أن قومنا من عرب ذاك الزمان لم يكونوا قساة في العيش فقط، ولكن قساة القلوب والعواطف... نكاح. ولكن من أين لابن الملوح وكثير وغيرهم تلك الرقة؟... لا بد أنهم كانوا الشذوذ وليس القاعدة. لا لم يكونوا نوادر... ما لي وللشعر والمجنون وكثير، ولكن نكاح تبقى كلمة قبيحة وقاسية، أقرب إلى احتكاك الآلات منها إلى احتكاك البشر... واغفى وهو يبتسم.

- ١٧ -

أصبح يخفف السير عندما يقترب من المنزل، وهو عائد من الكلية، وعينه على باب المنزل الآخر، فقد صار يفتح في كل مرة يعود فيها، وتطل منه تلك المرأة وتمنحه ذات الإبتسامة، ثم يختفي بسرعة وهو يداري كل ذلك الإضطراب الذي يعتمل في داخله. لا بد أنها تراقبه من النافذة المطلة على الشارع، وإلاّ كيف تعرف بمواعيد عودته المختلفة. وتأكد لديه أنها تريده... لا يعلم لماذا. ولكنها تريده، ولكنه بقي مضطرباً وحائراً، بين اللذة الموعودة، والخجل، وذلك الوخز في الداخل الذي لا يريد أن يفارقه. وبعد فترة من اللقاءات العارضة، استجمع شجاعته وابتسم لها، ثم دخل البيت بسرعة وقد أحس أنه أنجز عملاً كبيراً. صعد إلى غرفته واشعل سيجارة أخذ يمتصها بعمق حتى هدأت

أعصابه قليلاً. لم تعد السيجارة تجلب له ذلك الدوار اللذيذ، وذاك التحلب في الفم، ولا أية أحاسيس جنسية، ولكنها تحولت إلى حاجة لا يستطيع إلاً أن يمارسها. وصار يشتري السجائر، وكان ذلك تطوراً أسعد عبد الرحمن الذي بدأ يبدي بعض التذمر من استهلاك هشام لسجائره.

في أحد الأيام، كان عائداً من الكلية قبل الظهر، فقد اعتذر الدكتور سعيد الغضبان عن عدم الحضور، وتغيب الدكتور متولي شحتوتي كعادته، ولم يكن هناك أحد في عزبة الشباب. وعندما اقترب من المنزل، فتح الباب المقابل كالعادة، وأطلت منه المرأة وابتسمت، وابتسم هو أيضاً. ولكنها هذه المرة أشارت له بالمجيء، وهي تتلفت بسرعة يميناً ويساراً في الزقاق الخالي، إلاً من بعض كلاب كانت تربض في بعض الزوايا وهي تتثاءب. أحس أن قلبه يوشك أن يخرج من صدره، فكاد أن يتعرقل بثوبه وهو يهرب بسرعة إلى الداخل، ويصعد غرفته بسرعة، ثم يغلق الباب وراءه ويشعل سيجارة بسرعة ويمتصها بيد مرتجفة. ولكن رغم الإضطراب الشديد، كان كل شيء فيه قد توتر... وبعد أن هدأ قليلاً، جذب الكرسي إلى تحت النافذة، وأخذ ينظر إلى البيت المقابل. كانت هناك في الغرفة المعتادة، وقد جلست على الأرض وعينها معلقة بنافذته. ابتسمت من جديد، فكأنها كانت تنتظره. وأحس بالدوار وكاد أن يسقط من على الكرسي، وهبط بسرعة وقد تصبب العرق من كل مسام جسده. دخن سيجارة جديدة، ولكنها لم تمنحه الهدوء المطلوب. ودون أن يدري كان يتجه إلى صندوق البيالات، ويخرج منه قارورة البلاستيك وفيها من العرق مقدار الربع. فتح الغطاء، ولكنه أغلقها من جديد وأعادها إلى مكانها من الصندوق، وأشعل سيجارة أُخرى، ثم عاد إلى الصندوق وأخرج القارورة وهو في غاية

التردد. إنه يذكر عهده الأخير في الإبتعاد عن الشرب نهائياً، ولكنه يريد ذلك الدوار اللذيذ، وحالة الإنطلاق وعدم الإكتراث التي أحس بها عندما شرب آخر مرة، ولكنه يذكر أيضاً الغثيان والحالة النفسية التي كان عليها أيضاً... وبقي عدة دقائق وهو يحمل القارورة في حالة من الجمود وفي غاية التردد... أشياء كثيرة تعتمل في رأسه، ولكنه أخيراً فتح الغطاء، وتناول بيالة شاي وصب فيها مقدار الربع من العرق، ثم صب الماء حتى الحافة، وأمسك بالبيالة وهو ينظر إليها لحظات، ثم بسرعة ألقى محتوياتها في جوفه دفعة واحدة، وكأنه يفر من قيود نفسه. أحس بالنار تلهب حلقه، وبمعدته تكاد تخرج من مكانها، ولكنه تمالك نفسه، وأخذ اللعاب يملأ فمه، وما هي إلاً دقائق، واستقرت معدته وبدأ الدوار اللذيذ يطوف برأسه، ومع الإحساس بالشهوة والشجاعة والهدوء. وعاد إلى الكرسي من جديد، وأخذ يطل... كانت لا تزال هناك، وتلاقت النظرات وابتسما معاً، وأشار لها بمعنى هل آتي، فهزت رأسها بسرعة علامة الإيجاب، ثم نهضت وأغلقت النافذة. كل جزء من جسمه تحول إلى شبق عارم.

نزل من على الكرسي، وصب لنفسه بيالة أُخرى من العرق، أخذ يرتشفها بهدوء وهو يدخن... لم يعد يحس بأي خوف أو خجل أو اضطراب أو وخز مؤلم. كل ما في رأسه يدور حول اللذة التي تنتظره هناك. ألقى آخر جرعة من العرق في جوفه، وسحق السيجارة في المنفضة بقوة، وهبط الدرجات على عجل، ولم يحس بنفسه إلاً وهو أمام باب بيتها. نظر حوله، وتأكد من خلو الزقاق، ثم دفع الباب المردود، وأحكم إغلاقه بسرعة، واحتوته الدار... وكانت المرأة هناك خلف الباب.

جذبته من يده بسرعة وقوة، ودفعته إلى الغرفة التي رآها فيها أول مرة، وبدون مقدمات ألقت بنفسها عليه وأخذت تقبله بعنف، وكأنها تعرفه من أمد. وما هي إلاّ دقائق، وكانا منطرحين على الأرض جسداً واحداً. . . كانت النشوة أقوى من تلك التي كانت مع رقية، فقد كان هو صاحب المبادرة هذه المرة. وانتهى كل شيء بسرعة، وبدأ تأثير العرق في الزوال، فأحس بالإضطراب والخوف يعاودانه من جديد، فقد يأتي زوجها دون سابق إنذار وتكون الفضيحة. . . أراد الخروج، ولكنها أبقته مطمئنة إياه أن زوجها لا يمكن أن يأتي في هذه اللحظة، وطلبت منه أن يشرب الشاي معها، وقبل على كره منه. وذهبت لإعداد الشاي، وهي لا ترتدي إلاّ شلحة زرقاء قصيرة وشفافة، دون ملابس داخلية، وكل شيء فيها يهتز بقوة وهي تسير. جاءت بالشاي، ووضعته أمامه وصبت له بيالة قدمتها له وهي تقول ضاحكة، وقد ظهرت مقدمة أسنانها الناصعة البياض:

ـ على فكرة. . . أنا اسمي سارة. ولكن أصحابي يسمونني سوير.

ـ وأنا. . .

ـ أدري. . . هشام. أليس كذلك؟

ـ نعم. . . ولكن كيف عرفتِ؟. .

فضحكت بغنج، وقد انحسرت شلحتها، حتى كان من الممكن رؤية أسفل بطنها المكتنز، وهو ينطوي على أعلى مثلثها الحليق، وهي تقول:

ـ ألسنا جيران؟. . لقد استقصيت عنك بطريقتي الخاصة.

ونظرت إليه بطرف عينها وهي ترتشف الشاي بهدوء وتبتسم ابتسامة غامضة. ثم وهي تعتدل في جلستها، وتضع ساقيها تحت مؤخرتها،

بحيث اشتد لحم ركبتيها وفخذيها وأخذا يلمعان تحت الضوء القادم من النافذة بخجل، قالت:

ـ لقد كنت أعلم أنك كنت تتلصص علينا في السطح والغرفة.

وغرق في عرقه. . .

ـ كنت أعلم أنك هناك. وكنت أعلم أني سأحصل عليك. لقد أردتك منذ أن رأيتك لأول مرة وأنت لا تدري. . . وأصبحت أبحث عنك هناك. وراء النافذة، وأنت عائد إلى البيت. . .

وأحس أن حمى قد أصابته، وشعر بالحرارة الشديدة رغم أن الجو كان في غاية الإعتدال، وبدأت وجنتاه بالتورد، وحبات العرق تتجمع على جبينه الواسع. وشعرت سوير بالحرج الذي هو فيه، فمالت إلى الأمام، وقبلت وجنتيه بكل رقة، ثم عادت إلى جلستها وهي تقول بحنان واضح، وقد اكتسى وجهها ببسمة صافية:

ـ منذ أن رأيتك أول مرة أحسست أن هنالك شيئاً غريباً يجذبني إليك. أحسست أني أعرفك منذ دهور. وأحسست أننا شيء كالقدر لا راد له ولا مانع. . . سم هذا الإحساس ما شئت، ولكن هذا ما كنت أحس به.

ثم ران صمت لا يقطعه إلاّ صوت الشفاه وهي تمتص الشاي، حتى قطعته قائلة:

ـ لقد كان وجهك يوحي بكل ما أنا بحاجة إليه. البراءة والحب والحنان. . . وهذا ما كنت أبحث عنه دائماً.

ثم انخرطت فجأة ودون سابق إنذار، في بكاء صامت، وأخذت

الدموع تنساب من عينيها، فلم تجد بداً من رفع ساقيها، وإخفاء وجهها بينهما، وانحسرت الشلحة عن كل شيء، ولكنه لأول مرة يرى ذلك الشيء ولا يكترث أو تصيبه الحمى... أحس بألم يعالج في الخروج من حلقه. وأحس بوخز مختلف يشكه في كل أنحاء جسده، فمد يده ووضعها على ركبتها العارية وهو يحس بمختلف المشاعر، ولكن الشبق لم يكن أحدها... وعندما أحست بيده على ركبتها، وضعت يدها على يده، ونظرت إليه بإنكسار، ثم جذبت وجهه إليها وطبعت قبلة عميقة على شفتيه، وكانت الدموع المالحة تصل إلى فمه، فيما كانت شفتاها المكتنزتان الباردتان ترتجفان بين شفتيه... وتحولا إلى جسد واحد من جديد.

ـ ١٨ ـ

توطدت علاقته بسوير بعد ذلك كثيراً. يذهب إليها كثيراً، ويتحدثان كثيراً، ويتحولان إلى جسد واحد كثيراً. بل لقد أصبح يتغيب عن بعض محاضرات قبل الظهر، وخاصة محاضرات شحتوتي والغضبان، كي يقابلها. في لحظات كان يحس بالقرف من نفسه، لدرجة أنه يشعر بالحاجة إلى تقيؤ نفسه، عندما يدرك أنه حطم كل الثوابت التي عُلمها، ولكنه كان عاجزاً عن منع نفسه من الدوران في هذه العجلة التي حركها وهو الآن عاجز عن إيقافها، وفي أكثر الأحيان لا يريد إيقافها.

وتوقف عن التجسس الليلي، بعد أن شعر بالضيق عندما رآها جسداً واحداً مع زوجها في آخر ليلة تلصص فيها من النافذة. ورغم ذلك، فقد كان الغضب والشبق يتملكانه كلما سمع عواء الكلاب في الخارج،

ويتخيل سوير وهي تتأوه تحت زوجها، فيشعر بكره شديد نحوها، واشمئزاز شديد من نفسه، ثم لا يلبث الشبق أن يحل محل الغضب.

واكتشف أنها جريئة أكثر من اللازم. فذات يوم، وكان الوقت أصيلاً، كان يتصفح بعض المجلات في غرفته، مستنداً إلى الجدار كعادته، ويستمع إلى أُم كلثوم وهي تغني «سلوا كؤوس الطلى»، لم يشعر إلاّ وسوير تقف أمامه بلحمها وشحمها ورائحة عطر الليمون المميزة، وتلك الابتسامة الواسعة والعينين اللتين تحملان كل التحدي. كانت ترتدي عباءتها على الكتفين فقط، بعد أن أنزلتها عن رأسها، سامحة لشعرها الغزير أن ينسدل إلى ما دون أطراف العجيزة بقليل، ولافة طرفيها حول خصرها. انتفض بشدة عندما رآها أمامه، وأسرع دون شعور إلى الباب فأغلقه بالمفتاح، وعاد أدراجه فيما كانت سوير تراقبه وهي تطلق ضحكة مكتومة وقد غطت فاها بكفها، وعيناها معلقتان به، وسرور طفولي مجنون ينبعث منهما.

ـ أنت مجنونة... نعم... أنت مجنونة.

قال ذلك وهو ينظر إليها بحدة، وقد غزا الإضطراب كل ذرة من جسده، وكان ارتعاش يديه واضحاً وهو يتحدث بهمس وينظر إلى الباب باضطراب. وضحكت سوير وهي تلقي بعباءتها بعيداً، كاشفة عن فستانها الزهري الفضفاض، والجيب المفتوح حتى منتصف ثديين متمردين، وتلقي بنفسها عليه، وتجذبه ناحية السرير، وتجلسه على طرفه، ثم تطبع قبلة عميقة على فمه وتقول وقد ذبلت عيناها:

ـ نعم... أنا مجنونة بحبك... مذ رأيتك وأنا مجنونة.

وتلثمه بسرعة، ثم تتفحص الغرفة بسرعة وتقول: «غرفة

جميلة...»، ثم وهي تنظر إليه بشوق: «يكفي أن أنفاسك تتردد فيها كي تكون جميلة»، شعر بالسرور وتضخم شديد في الذات، رغم الاضطراب والخوف، فأشعل سيجارة دخنها بشغف وهو ينفث دخانها في وجه سوير، وكأنه يتحداها، أو يمارس ذاته المتضخمة في سحقها بعنف، فهو يعلم أنها لا تحب التدخين كما أخبرته سابقاً، ولكنها تستنشق الدخان بعمق وهي تغمض عينيها وتقول:

- حتى الدخان الخارج منك ليس ككل دخان، يكفي أنه مختلط بأنفاسك لأعشقه، وتقبله مرة أخرى.

ويشعر بسرور مفرط، ويحس أنه يكاد ينفجر من الزهو. وتقترب منه أكثر، ويلتصق جسداهما، ويحس بحرارة جسدها ممتزجة برائحة الأُنثى وعطر الليمون، ويتحدثان بهمس كثيراً ما كان يتوقف عندما تغلق سوير فاه بفيها. سألها أول الأمر كيف استطاعت المجيء إلى غرفته. ضحكت بسعادة وفخر، ثم احتضنته وهي تهمس في أذنه: «يا زينك... يا زينك»، ثم قالت: «ألا تعلم أن موضي صاحبتي... نحن جيران كما تعلم... أزورها كلما عنَّ لي ذلك بعض الأحيان... والظاهر أن زيارتها ستعن لي كثيراً من الآن وصاعداً»، ثم تضحك بحبور. وينتابه القلق وهو يسألها: «ولكن... ألا تخافين أن تشك موضي بالأمر؟» وتضحك من جديد وهي تقول: «يا حليل حبيبي...إن موضي مشغولة دائماً، حتى أني أخرج لوحدي دون أن تودعني عند الباب... لو أردت سرقة البيت كله لما وجدت من يمنعني»، ثم تصمت قليلاً وهي تنظر إلى هشام باسمة، ثم تقول: «كما أن موضي تعتقد أنك أطهر إنسان في الدنيا»، وأحس بألم حاد في معدته وهي تقول ذلك، وامتقع لونه، ولاحظت سوير التغير في سحنته، فكفت عن الضحك واحتضنته بسرعة

وهي تهمس بصوت مضطرب: «وأنت أطهر من على الأرض... غير أن موضي تعتقد أنك لا تحسن غير القراءة والدراسة، ولكنها لا تعلم عن القلب الرقيق بين جوانحك، ولا عن الروح الشفافة التي ترفرف في داخلك... أنت حبيبي وستبقى حبيبي إلى الأبد»، وتفترق عنه وقد غامت عيناها بدموع لا تريد أن تخرج، فأحس بألم المعدة مرة أُخرى، ولكنه ألم مختلف. وجذب رأسها إلى كتفه، وأخذت سوير في النشيج وهي تردد: «أنا آسفه... أنا آسفة... لم أكن أقصد جرح مشاعرك وأنا أعلم الناس بها رغم أني لم أعرفك إلاَّ قريباً. بل كنت أعرفك من زمن، وكنت انتظرك حتى علمت أنك جئت عندما رأيتك لأول مرة»، وتواصل النشيج ويتركها هشام على سجيتها حتى هدأت ورفعت رأسها عن كتفه وقد ابتلت عيناها ووجنتاها تماماً. تناولت غدفتها وأخذت تمسح دموعها وهي تبتسم وتقول: «لقد نكدت عليك...» وشعر هشام أنه يحبها فعلاً، فقد كان حلقه يؤلمه، وشيء في عينيه لا يريد أن يخرج. وبقيا لفترة صامتين ينظران إلى بعضهما، ثم نهضت فجأة وتناولت عباءتها وهي تقول: «آن آوان الذهاب... فعليان على وشك الوصول، وأنا لم أعد العشاء بعد...»، وأسرعت نحو الباب. وقبل أن تخرج، أرسلت له قبلة في الهواء وهي تبتسم، وتركته مع نفسه، وكانت رائحة الليمون تملأ المكان.

جاءته سوير بعد ذلك ثلاث مرّات خلال أسبوع واحد، وكانت كلما تغادر، يصيبه شعور بالضآلة والقرف... إنه يخون ثقة أهل البيت به ويطعنهم في ظهورهم، بمثل ما حطم تمثال أمه منذ زمن. أو قد تحول إلى هذا الكائن الكريه بهذه السرعة وهذه القوة؟.. وأخذ يذهب إلى المسجد كثيراً، ولكنه كان عاجزاً عن الوصول إلى تلك الحرارة التي

أحس بها عندما ذهب إلى المسجد في أعقاب مغامرته مع رقية. لقد اكتسب إعجاب وثقة خاله المطلقة، وهذا ما كان يشعره بالقرف من نفسه أكثر وأكثر. لذلك، وعندما جاءته سوير آخر مرة، طلب منها عدم العودة مرة أُخرى. مانعت بداية الأمر، ولكنه هددها بقطع العلاقة معها نهائيّاً، فرضخت على مضض. وقد كان عازماً على قطع علاقته معها فعلاً، ولكنه كان عاجزاً عن ذلك، واستمرت زياراته لها في منزلها، وكان الشبق والحب والخوف والقلق والقرف يحيطان بكل زيارة. وأخذ ينمو في داخلة حب لها شبيه بحبه لنورة، ولكنه في الوقت نفسه يشتهيها أكثر من رقية، ويقدرها، ولكن ليس مثل موضي... لقد تحولت إلى كل هؤلاء تقريباً، ولكن بقي إحساس دفين في داخله يكرهها ولا يريدها، وكان عاجزاً عن إزاحة هذا الإحساس الذي بقي ملازماً له طوال الوقت.

- ١٩ -

وحدثت أحداث جعلته في شغل شاغل عن نفسه، وعن سوير، وعن الدراسة، وعن أي شيء آخر... لقد انفجرت المعارك بين الجيش الأردني والمنظمات الفدائية الفلسطينية في عمان. وأصبح الشغل الشاغل للجميع هو التجمع حول أجهزة الراديو، وسماع آخر الأنباء وتفاصيل المعارك. كانت أفئدة الجميع معلقة بما يجري في «الوحدات»، و «ماركا»، و «المحطة»، و «جبل الحسين»، الذي أصبحوا لا يسمونه إلا «جبل الثورة»، كما سماه الفدائيون. كان يخرج من الكلية ويتجه مباشرة إلى «عزبة» الشباب، حيث يتحلقون حول الراديو وإبريق شاي كبير في الصالة، يرتشفون الشاي بحكم العادة، ويستمعون بصمت تتخلله

بعض التعليقات الغاضبة العارضة والسريعة: «لقد أثبت حسين عمالته بما لا يدع مجالاً للشك...»، «ألم يقل كلنا فدائيون. يا للخائن...»، «يا لسعادة إسرائيل...»، «لن يقف جمال مكتوف الأيدي أمام هذه المجزرة وهذه الخيانة...»، «الأمل في تدخل سوريا...»، «كيف لا يتدخل الجيش العراقي في الأردن...»، «إنها مؤامرة.. مؤامرة...»، وكانت صيحات الفرح تتعالى كلما جاء خبر أن قطاعاً من الجيش الأردني انضم للمقاومة، أو أن قائداً عسكرياً تمرد على الجيش وانضم إلى صفوف الفدائيين. كان هناك إحساس طاغ أن المقاومة لن تنتهي، وأن الفدائيين سوف ينتصرون رغم المؤامرة والخيانة وحسين وإسرائيل وأميركا التي تقف وراء كل شيء.

كان مؤشر الراديو يقفز من محطة إلى محطة، من «لندن» إلى «صوت أميركا» إلى «صوت العرب» إلى «صوت الثورة»، التي كان المؤشر شبه ثابت عليها. وعندما كان المؤشر يسقط صدفة على إذاعة عمان أو «دار الإذاعة الإسرائيلية»، كانوا يغيرونه بسرعة وهم يسبون ويلعنون. كان مهنا يريد أن يبقى المؤشر دائماً على «صوت العرب»، ولكن «الشباب» يريدون «صوت الثورة»، فرضخ للأمر وهو يتأفف ويقول كلاماً غير مفهوم، ثم لا يلبث أن ينسل إلى غرفته حيث راديو «الترانسيستور» المثبت دائماً على «صوت العرب»، بعد أن يعد لنفسه إبريقاً من الشاي، ويغلق الباب. لم تكن أخبار «لندن» و «صوت أميركا» وغيرها تروي الغليل، كما كان الشباب يعتقدون أن أميركا وقوى الإمبريالية وراء المؤامرة، فكانوا لا يثقون إلاَّ بأخبار «صوت الثورة»، ولا يحسون بالسعادة إلاَّ حين يسمعون أنباء انتصارات المقاومة منها.

وقد وصل الحماس بهم قمته، عندما استطاع وفد الجامعة العربية

إخراج «أبو عمار» من عمان إلى القاهرة، استعداداً لمؤتمر القمة العربي الذي دعا إليه جمال عبد الناصر لمعالجة الوضع. وكانت قصة خروجه أشبه بقصة أُسطورية من قصص التراث وأيام العرب، عندما استطاع الوفد تهريبه بثياب عربية تقليدية، وارتفعت أسهم الشيخ الكويتي سعد العبد الله الصباح، بعد أن تبين دوره في العملية الإعجازية. ورغم أن مهنا كان متضايقاً من حكاية القمة هذه، فقد كان يفضل أن يتدخل جمال مباشرة ويقضي على الملك حسين، إلاَّ أنه كان يردد: «ألم أقل لكم... ما يحلها إلاَّ أبو خالد». وبقدر ما كانوا متفقين على مقت الملك حسين، كانوا يكنون إعجاباً عميقاً بمعمر القذافي، خاصة عندما سحب مسدسه على الملك حسين في المؤتمر لاحقاً. أما مهنا، فكان يكفيه مقولة جمال بمعمر من أنه «أمين الأُمة»، وأنه يذكره بشبابه، كي يعجب به. والحقيقة أنه كان يكفي الجميع أن يعجب جمال عبد الناصر بمعمر القذافي كي يعجبوا به بدورهم، بغض النظر عن أي شيء آخر.

ـ ٢٠ ـ

ومات جمال عبد الناصر... وساد الذهول. هل من المعقول أن يموت؟! ما كان أحد يتصور أنه يمكن أن يموت. إنهم يعلمون أنه بشر يموت، ولكنه لا يموت... مات جمال وماتت معه أحلام وآمال. مات وهو يحمل هموم الأمة على رأسه حتى آخر لحظة. لقد قتلته الأُمة التي أحب. مات بعد أن ودع الشيخ صباح السالم الصباح أمير الكويت، آخر من رآه من العرب. مات بعد أن حقن الدماء في الأردن، ولكنه قتل نفسه من أجل ذلك. لقد قتلته الأمة. بل قتلناه جميعاً... وأخذ الجميع

يصيحون ويبكون وينشجون مع نزار قباني:

قتلناك يا آخر الأنبياء

قتلناك..

ليس جديداً علينا

إغتيال الصحابة والأولياء

فكم من رسول قتلنا

وكم من إمام ذبحنا وهو يُصلّي صلاة العشاء.

فتاريخنا كله محنة

وأيامنا كلها كربلاء..

جاءه بالخبر ابن خاله أحمد ذات صباح لا يمكن أن ينساه ما عاش. كان يستعد للذهاب إلى الكلية ذلك الصباح، وفجأة اقتحم أحمد الغرفة وسط ذهول هشام، فلم تكن هذه مواعيد هجومه على الغرفة. صب لنفسه بيالة شاي من إبريق كان في الصينية، أخذ منه رشفة كبيرة ثم قال بهدوء: «أما سمعت الأخبار... لقد مات صاحبكم. فطس جمال، الله لا يرده». كان يسرح شعره أثناء ذلك، فأحس أن يديه ترتجفان، وسقط المشط من يده وهو ينظر مشدوهاً إلى أحمد، وقد خرجت عيناه من محجريهما: «ماذا... ماذا قلت»، «لقد مات جمال... أم أنكم تظنونه لا يموت»، قال ذلك وهو يضحك، أحس هشام بكره شديد نحو ابن خاله في تلك اللحظة، وخنجر ينغرس في أعماقه في الوقت ذاته. أحس بالرغبة في البكاء، ولكن غصة في حلقه كانت تمنع أي شيء من الخروج. كانت محاجره مليئة بالدموع، ولكنها تأبى الخروج، وغادر

أحمد الغرفة وهو لا يعلم مدى الألم الذي جلبه معه ذلك الصباح، ولم يذهب هشام إلى الكلية ذلك اليوم.

كان جمال رمزاً وأباً للجميع... يكرهونه، يبغضونه، يختلفون معه، يتهجمون عليه، يتعاركون معه، ولكن لا يمكن الإستغناء عنه، أو تحمل فكرة عدم وجوده. فقد تكره أباك كل الكره، وتتمنى في أعماقك زوال هذا الأب كي تنال حريتك الكاملة، ولكن ما أن يموت حتى يتبدى لك الفراغ الذي ترك، وتنهشك الآلام وتبكيت الضمير لأنك تمنيت زواله في يوم من الأيام. عندما يموت الأب، تحس أن شيئاً من ذاتك قد مات، وأن حائطاً كنت تستند إليه قد انهار، ولكنك لا تشعر بوجود هذا الجدار حتى ينهار، فتتمنى لو عاد الزمان الذهبي الجميل، ولكن هل يعود ما مضى!... لقد كان جمال كل ذلك.

كان في حالة شديدة من الذهول والإضطراب... هل مات جمال فعلاً، أم أنها مجرد إشاعة. وانطلق دون وعي إلى عزبة الشباب. وجد الباب مشرعاً، فدخل على عجل ووجد الجميع يجلسون في الصالة حول الراديو، وقد علاهم الوجوم، والحزن يطوق المكان، وكان مهنا ومحمد يبكيان بحرقة وقد وضعا رأسيهما على ذراعيهما المستندين إلى ركبتيهما... الخبر صحيح إذاً!! وجلس بجانب عبد المحسن، وقد أحس بتضخم وألم في حنجرته لا يطاق. إنه يحس بحاجة ماسة إلى البكاء، مثل ذلك اليوم البعيد الذي جاء فيه خبر وفاة عمته هيلة، ولم يحس بالحاجة إلى البكاء بعد ذلك حقاً، إلاَّ حين ودع أمه وهو يستعد للسفر إلى بيروت، وحين أتاه خبر وفاة عمته شريفة. وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ يبكي بهدوء.

لقد أحس وهو يبكي أنه لا يبكي شخصاً آخر، ولكنه يبكي نفسه. لقد وُلد في السنة التي قام بها جمال عبد الناصر بثورته، فقد كان في الأشهر الثلاثة الأُولى من عمره حين قامت حركة ٢٣يوليو. وتفتحت طفولته على بطولات عبد الناصر في بور سعيد والسويس، وما زال يذكر كالخيال ذلك اليوم الذي حملته فيه أمه وأخذت ترقص، عندما انسحبت قوات العدوان الثلاثي. بل إنه يذكر تماماً أحاديث أمه بعد ذلك عن بطولات بور سعيد والسويس، وأحاديث أبيه عن أبطال مثل جول جمال، الذي ما انفك أبوه يحدثه عن كيف ملأ طائرته بالمتفجرات، وزج بها وبنفسه في قلب المدمرة الغازية، وقضى على المدمرة التي لا تقهر.

وبدأ تفتح وعيه على إنجازات عبد الناصر، بدأ يدرك العالم من حوله عندما كان جمال يحقق الوحدة مع سوريا، ولا يزال إلى هذه الساعة يذكر تكبير أبيه وأصحابه عندما أعلن عن الوحدة، وهم يتحلقون وقتها حول الراديو الكبير في المجلس، وكان أبوه قد اشترى لتوه «أنتناً» قوياً لسماع الأخبار بوضوح من محطات العالم. وما زالت صورة جمال بين الجماهير في دمشق لاصقة في خياله. فقد كان يتصفح دائماً مجلة «الأحد» التي يشتريها والده ويداوم على قراءتها، وكانت مليئة بالصور التي رسخت في ذهنه بشكل غريب إلى هذه اللحظة. كانت سنة الوحدة هي السنة التي دخل فيها المدرسة الإبتدائية، وطوال سنوات الدراسة الإبتدائية، لم يكن للحياة العربية إلاَّ اسم واحد: جمال عبد الناصر. كل حدث في هذه الحياة يأتي مقترناً باسم جمال عبد الناصر: الوحدة، الإنفصال، الثورة والحرب في اليمن، الإتحاد الإشتراكي، القوانين الإشتراكية، استقلال الجزائر، الثورة في العراق، مقاومة حلف بغداد

والإتحاد العربي. . . لقد كاد جمال أن يكون في الهواء الذي يتنفسونه آنذاك.

وعندما أنهى الدراسة الإبتدائية، كان جمال قد أصبح الزعيم الأوحد للعرب دون منازع، رغم كارثة الإنفصال. وفي نهاية الدراسة المتوسطة، سقط الزعيم، إلاّ أن الرمز بقي ثابتاً في النفوس، وهل تسقط الرموز؟ جاء حزيران وجاءت معه لحظة الموت والصحوة معاً. مات جمال عبد الناصر في حزيران قبل أن يموت جسده بثلاث سنوات، وماتت أشياء كثيرة بموت جمال. إنه ليذكر وضوح ذلك اليوم الذي استفاق فيه على الفجيعة. ذلك اليوم الذي كان أمسه وعداً بالنزهة على شواطىء حيفا ويافا وتل أبيب، فإذا اليهود يتنزهون على ضفاف القنال ويصلّون في القدس العتيقة، ويشربون البيرة في البيره، وعرق رام الله الذهبي في طولكرم، ويستحمون في نابلس بزيت الزيتون، ويملأون رئاتهم بهواء الجولان وجبل الشيخ. وخيم الموت على الجميع، كانت الأنفس ميتة من الداخل. اكتشف الجميع أنهم كانوا يعيشون وهماً كبيراً وكذبة كبيرة، ولكن أحداً لم يكره جمال. . . بحثوا عن السبب في كل شيء، وفي كل شخص، إلاّ جمال. فالأب لا يخطىء وإن أخطأ. وبكى الجميع حين استقال، وفرحوا حين عاد عن الإستقالة، وقالوا لعله فجر جديد، وفي أعماقهم يخشون أن يكون وهماً جديداً، ولكنهم يثقون بجمال رغم كل شيء، وهم يريدون أن يثقوا به.

إنه ليذكر تلك الأيام جيداً، كل شيء فيها كان «مالغاً» لا طعم له ولا لون أو رائحة. وتحولت أغاني عبد الوهاب وعبد الحليم وفريد وأُم كلثوم إلى أنصال تجرح، وسياط تلهب، وليس إلاّ الحزن والإنكسار. كانت: «مالحة في فمنا القصائد، مالحة ضفائر النساء. . . جلودنا ميتة

الإحساس، أرواحنا تشكو من الإفلاس»، كما عبر نزار قباني الذي حولته الكارثة من شاعر حب وأنين، إلى شاعر «يكتب بالسكين. . .».

وها هو جمال يموت وقد أصبح هو في الجامعة. . . ويموت معه جزء من الذات، وتموت معه مرحلة حياة، وتبدأ مرحلة أُخرى. كيف لا يأسو ويحزن وقد ارتبطت حياته بجمال منذ الولادة وحتى هذه اللحظة!؟. . . لقد حاولوا في التنظيم أن يعلموه كره جمال، وحاول هو أن يقيم له وزناً عندما أعجبته الماركسية وعلميتها، وأصبح جمال ممقوتاً في بلده بعد ثورة اليمن وحربها، ولكنه رغم ذلك غير قادر على كرهه. . . وتلومه نفسه على أنه فكر بمقته في يوم من الأيام.

ـ ٢١ ـ

كانت الأيام التالية لوفاة جمال، أيام حزن ونقاش أيضاً. كان الحديث لا يفتر بين الجميع حول مستقبل مصر والأمة العربية بعد غياب الزعيم. وكانت معالم الحزن لا تفارق وجه مهنا تلك الأيام، وأغلق باب غرفته على نفسه، وأخذ يعبر عن حزنه شعراً ونثراً. فذات يوم، كان الشباب يجلسون في الصالة، ويتناقشون في قدرة أنور السادات على احتلال موقع الزعيم الراحل، وكان هناك قناعة على أن أحداً غير قادر على الحلول محل جمال. وفجأة يخرج مهنا من غرفته المعتمة، وهو يحمل أوراقاً ويقول بحبور وحماس غير معتادين: «دعوني اقرأ عليكم آخر ما قلته في جمال. . . خماسيات ولا رباعيات الخيام»، ولم ينتظر إجابة أحد، بل احتل أقرب مكان إليه، وجلس مستنداً إلى الجدار، وأخذ يقرأ بصوت عال:

وعاد المهدي إلى الغار
تاركاً عار الذل والشنار
مكللة رأسه بالغار
مرتاحاً من عناء الأسفار
والهزيمة وهتك الذمار..

ما مات جمال ولكنه نام
وهو عائد ولو بعد ألف عام
يحمل أكاليل الحب والسَّلام
فسلام عليه يوم البعث والقيام
ويوم كان نبراساً في الأنام..

نحن على الدرب سائرون
ولنهجه مخلصون
ولو كره الكارهون
فسلام عليه يوم كان
وسلام عليه يوم يكون..

شاهت وجوه الجبناء
وتبت أيدي السفهاء

وخاب سعي الحقراء
فهو الزعيم لا مراء
في سراء أو ضراء..

من للقدس بعده وفلسطين
وقد غاب عنها صلاح الدين وحطين
وعاث أبناء الأفاعي في نابلس وجنين
وأصبحنا يباباً في بضع سنين
ومهزلة الأنام من المغرب إلى الصين..

إن مات جمال.. فكلنا جمال
بفكره نسعى إلى الكمال
رغم البؤس وسوء الحال
فقر عيناً في عالم المآل
يا تام الخصال والفعال..

وعندما انتهى مهنا من قصيدته، نظر إلى الجميع وقد اكتسى وجهه بالحزن والفخر معاً، وأخذ يقلب عينيه في الجميع وكأنه ينتظر التعليق، فما لبث عبد المحسن أن صاح: «ابدعت...»، «هكذا الشعر وإلاً فلا»، قال محمد، «لقد عبرت عما يجيش في صدري حقاً...»، قال دعيس، أما هشام فقد بقي صامتاً. لقد أعجبته الكلمات وسجعها فعلاً، رغم عدم حبه للشعر، ولكنه كان متردداً في الإفصاح عن ذلك. ولكن

عين مهنا لا تريد أن تريم عنه، ولذلك لم يجد بداً من التعليق فقال: «فعلاً لقد أبدعت يا مهنا... لقد عبرت عن مشاعرنا في قصيدتك... ولكن»، وصمت لحظة وهو يجيل نظره في الحاضرين، ثم ثبت نظره على وجه مهنا، الذي غابت عنه مسحة الإبتهاج، وقال: «ولكنّ المطلوب في هذه اللحظة أكثر من الشعر، وأكثر من العواطف، رغم الجرح في الأعماق». وبانت علامات الإمتعاض على وجه مهنا بشكل واضح، فيما واصل هشام قائلاً، وهو يجيل النظر في الآخرين: «أرجو ألا تغضبوا... فلطالما قرضنا الشعر، وادمنا البيان، وعلى رأي نزار قباني، سقطت في الوحول كل الفصاحات، ومات الخليل والفراء... ما أردت قوله هو أننا نحتاج إلى أكثر من الشعر... لقد مات جمال، هذه حقيقة رغم حزننا، ولكن هل إذا ما جمال تموت الأمة؟» وصمت الجميع لبعض الوقت، ثم قال مهنا بصوت منخفض وحزين:

ـ صحيح يا أخ هشام... لقد مات جمال. ولكنه باق بفكره بيننا.

وتذكر هشام تلك المناقشة الملتهبة بينه وبين مهنا في القصيم، ويبدو أنه يريد أن يبدأ مناقشة أخرى، ولكن هشام لا يجد في نفسه حماساً للنقاش، فنظر إلى مهنا وهز رأسه بصمت دون تعليق. غير أن دعيس لم يدعه في حاله، إذ علق قائلاً:

ـ أظنك ستقول أن الماركسية هي الحل... أليس كذلك؟

والغريب أن الماركسية وذكرها، لم يثر ذلك الحماس الناري الذي كان يجده سابقاً في نفسه عندما تذكر، بل إنه لا يجد الآن أي حماس لأي شيء، فقال:

ـ أنا لا أطرح شيئاً محدداً هنا... كل ما أقوله هو ضرورة التفكير

في مرحلة ما بعد جمال. هذا كل ما في الأمر.

وهنا انبرى مهنا بحماس، وهو يلوح بيده، قائلاً:

ـ المسألة لا تحتاج إلى تفكير... لقد رحل جمال وفكره باق. ليس لنا إلا اتباع فكره ومنهجه الذي أرساه بيننا طوال هذه السنين.

وصمت مهنا، واستند إلى الجدار مرة أُخرى، وصمت الجميع لحظات أخذوا يرتشفون خلالها ما بقي في الإبريق من شاي بارد، ثم قال عبد المحسن:

ـ ما رأيكم بأنور السادات... لا شك أنه الرئيس الجديد. وهو من أعوان وتلاميذ جمال المخلصين. هل رأيتم كيف كان يتلقى العزاء مع أُسرة جمال، وهل سمعتم خطابه بالسير على خطى جمال. وهو لا يذكر جمال إلاَّ ويقول بتأثر «الله يرحمه»...

ـ معك حق،

قال مهنا:

ـ لا غبار على وطنية وناصرية أنور السادات... ولكنه لا يرقى إلى مستوى جمال. بل ليس هناك من يرقى إلى مستواه. وإذا أراد السادات أن ينجح، فليس له إلاّ السير الدقيق على منهج الزعيم.

وهنا قال محمد:

ـ إنه يؤكد السير على خطاه، وأنا أثق به فعلاً، فهو معروف بحبه وإخلاصه لجمال. أليس هو من كتب «قصة الثورة»، و «يا بني... هذا عمك جمال»، وتلك المقالات الجميلة حول الثورة وجمال، وكان هو من أذاع البيان الأول للثورة، وهذا يدل على ثقة جمال به.

وهنا علق مهنا قائلاً:

ـ على أية حال المسألة محسومة. ليس هناك من يستطيع الإبتعاد عن نهج جمال وإلاّ فقد دعم الجماهير له وسقط... المسألة محسومة... محسومة...

ـ على ذكر الجماهير،

قال دعيس:

ـ هل رأيتم في التلفزيون تلك الأعداد الرهيبة من البشر التي شيعته إلى مثواه الأخير. لقد كان منظراً مثيراً... ملايين البشر تتدافع وتنوح. شيء كيوم القيامة.

ـ بالطبع...

قال مهنا بهدوء، وابتسامة باردة تعلو شفتيه:

ـ رجل مثله لا يجود الدهر به دائماً. هل تعلمون أن ديغول قال مرة أنه لو كان جمال فرنسياً لسادت به فرنسا العالم.

ـ من أين لك بهذه المعلومة؟... أنا لم أسمع بها قبلاً!

قال هشام بهدوء، وبصوت لا يخلو من السخرية. غير أن مهنا حافظ على هدوئه وهو يقول:

ـ ليس من الضرورة أن تسمع أو تعرف كل شيء. عدم معرفتك بالشيء لا يعني عدم وجوده. أليس كذلك؟.. أم أن لليني رأياً آخر؟!.

وأحس هشام أن الدم يغلي في عروقه، فحاول الحفاظ على هدوئه وهو يقول:

ـ معك حق... عدم معرفة الشيء لا يعني عدم وجوده. ولكن مثل

هذا القول، الصادر عن رجل مثل ديغول، حول رجل مثل جمال، لا يمكن أن يبقى طي الكتمان أو غير معروف من الجميع، فهو مما نفتخر به جميعاً. وهل يترك «صوت العرب» مثل هذه العبارة، ولو كانت صحيحة، دون أن يعيدها مرّات ومرّات، كل صباح ومساء؟ وعلى أية حال أنا لم أسمع بهذا القول، فهل سمع به غيرك؟

قال ذلك، وأخذ يجول بين الحاضرين، ولكن أحداً لم يتكلم. وهنا فقد مهنا أعصابه دفعة واحدة، وأخذ يلوح بكلتا يديه وهو يقول بصوت مرتفع:

ـ لقد قال ديغول ذلك فعلاً. ليس ذنبي أنكم لا تعلمون.

وهنا تدخل محمد محاولاً تهدئة الوضع كعادته في مثل هذه الظروف، قال:

ـ اذكرو الله يا جماعة... اذكرو الله. نحن لسنا بحاجة لشهادة أحد في عظمة جمال. لقد كان عظيماً سواء شهد بذلك ديغول أم لم يشهد.

وهدأ الجميع، وإن بقيت نظرات مهنا النارية تخترق هشام، الذي كان دمه يغلي، ويده ترتعش قليلاً وهو يرفع البيالة إلى فمه، ملقياً بحثالة الشاي إلى جوفه.

ـ ٢٢ ـ

وجاء كانون... وبدأ البرد والزمهرير يخترقان العظم قبل اللحم. ليس أشد من حر الرياض إلاّ قرها، وليس أشد من قرها إلاّ حرها... خمسة أشهر مرت عليه في مدينته الجديدة، بل دنياه الجديدة، تحول

فيها إلى شخص مختلف تماماً عن ذاك الذي جاء قبل زمن يبدو سحيقاً في بعده، مستقلاً علبة صفيح ساخن، في يوم حار عاصف من أيام آب. لشد ما تغير خلال تلك الشهور الخمسة، فقد أصبح مدخناً رسمياً، وأخذ يتعاطى الشراب بين الحين والحين، بل إنه بدأ يطلب من ابن خالةّ حمد أن يشتريه له، ويعطيه نقوداً من أجل ذلك. وأصبح له عشيقة رسمية ثابتة، ورغم أن حبها له أصبح مفرطاً لا يطاق مؤخراً، إلاّ أنه يشعر بالزهو من ذلك الحب. وهو بدوره كان يحس بنوع من الحب تجاهها فعلاً، رغم ذاك الوخز في الداخل الذي يحسه كلما خرج من عندها، وعندما يذكر اسم زوجها أمامه، ولم يستطع التخلص منه رغم أنه حاول ذلك بقوة. لم يكن متعلقاً بسوير رغم حبه لها، ولكنها كانت مدلهة به حتى أنها أصبحت تغار عليه من كل شيء. وذات مرة تعاركا، وهددها بعدم العودة، عندما اتهمته بعلاقة مع إبنة خاله موضي، فبكت بدموع غزيرة، وطلبت منه الصفح، فازداد زهواً بنفسه.

ورغم علاقته بسوير، فإنه لم يستطع نسيان نورة، بل بقي حبها في أعماقه، وعاد إلى لقاء رقية بعض الأحيان، رغم أن الجنس لم يعد هاجساً بعد أن تعرف على سوير. لقد كانت نورة حباً من نوع خاص بالنسبة له لا يمكن أن يوصف، ويعطيه إحساساً جميلاً ولذيذاً لم يستطع الحصول عليه من علاقته بسوير. أما رقية، فقد وجد أن الجنس معها أكثر حرارة بعد فترة من تعرفه بسوير... شيء غريب هذا الجنس. يختلف مذاقه رغم أن الفعل واحد. كان يواعد رقية بعض الأحيان مع عبد الرحمن، ويذهبون إلى البرية كالعادة. ولكن بعد أن بدأ الطقس يبرد، أخذ يواعدها في منزلها، ويقابلها هناك في ظلام الليل، دون أن يشعر أهل المنزل. وعندما كان يخلو بنفسه، ويفكر بهذه المغامرات،

يدرك كم تغير، وكان ذلك يحزنه كثيراً، ولكنه سرعان ما ينسى، ويعود إلى عب اللذة من جديد. حاولت رقية ذات مرة أن تقنعه باللقاء في غرفته، ولكنه رفض بحزم ولم تعد إلى الموضوع مرة أخرى. وبدأت تبوح له بكلمات الحب، ولكنه لم يشعر بحبها يوماً، كما لم يكن يكرهها أيضاً، ولكنه كان يحس بشبق شديد معها، لم يعد يجده مع سوير، وإحساس بالأسى بعض الأحيان لم يستطع التخلص منه رغم المحاولة. لديه ثلاث نساء في حياته الآن، واحدة يحبها ولا يسمح لنفسه باشتهائها، وأُخرى يشتهيها ولا يشعر بالحب معها، وثالثة يحبها ويشتهيها معاً، ولكن حبه لها لا يصل إلى حب الأولى، واشتهائه لها لا يصل إلى اشتهاء الأخرى، وكأنها مزيج غير مكتمل لهما معاً.

فعلاً لشد ما غيرته تلك الأشهر الخمسة في الرياض... سجائر وشراب ونساء، وراتب كافٍ للصرف على هذه الملذات. لم يعد يوفر أكثره كما كان في السابق، ولكنه بقي كافياً وإن قل التوفير كثيراً. ويبتسم حين يتذكر ذلك اليوم الذي استلم فيه أول راتب من الكلية. لقد أحس ساعتها أنه أصبح رجلاً كاملاً، لا ينتظر المصروف من والده. لقد أضحى مستقلاً تماماً، وإحساس بالقدرة الفائقة يتملكه، وهو في غاية السعادة بذلك الإحساس. وكان أول شيء فعله عندما استلم الراتب هو أن اشترى زجاجة عطر غالية لسوير، بخمسة وعشرين ريالاً دفعة واحة، فقد ضاق ذرعاً بعطر الليمون الرخيص الذي لا يفارقها. وفرحت سوير بالهدية مثل طفل أهدوه لعبة جميلة، وقالت إن هذه أول مرة يهديها أحد شيئاً. وفتحت زجاجة العطر على عجل، واستنشقتها بعمق ولذة كبيرة، وقد أسبلت عينيها، وابتسم وهو يتذكر رقية عندما استنشقت العرق في خشم العان. ووضعت سوير بعضاً من العطر على عنقها وأسفل أذنيها،

وأعطته من الحب الشيء الكثير ذلك اليوم. كان خائفاً أن يشم زوجها رائحة العطر، ولكنها طمأنته أن عليان لا يلاحظ مثل هذه الأمور، فهو يأتي متعباً، بالكاد يأكل ويجامع وينام، كما أنها لن تضع هذا العطر إلا له وحده، أما علي، فكثير عليه عطر الليمون. قالت ذلك وهي تضحك بحبور، فيما كان هو مشغولاً بتلك اليد التي تعصر معدته بشدة...

فعلاً لشد ما تغير... حتى شكله... فقد أطلق العنان لشاربيه، وكان ذلك مثار إعجاب الإناث اللواتي يعرف. أطلقت موضي صيحة إعجاب، ومنحته سوير حباً كثيراً، وقالت رقية أنها تحس أنها تعاشر رجلاً كاملاً الآن. أحس بالزهو يملأ جوانحه، وأحس أنه قادر على فعل أي شيء. شيء واحد بقي من الأيام الخوالي، ألا وهو حبه للقراءة وانكبابه على الدروس، التي كان يكره أكثرها. لقد كان والداه لا يبرحان خياله في كل لحظة، وكان يحاول أن يكفر عن سلوكه الجديد بالتفوق الدراسي الذي يعني كل شيء بالنسبة لوالده. وفعلاً، كانت درجاته دائماً مرتفعة، رغم أن ساعات الدراسة كانت أقل من السابق. لقد جرفه التنظيم في السابق عن التحصيل الدراسي، ولكنه لن يسمح لما يفعله اليوم أن يجرفه عن تحصيل أعلى الدرجات. وبالرغم من الإحتقار الشديد الذي أخذ ينمو في داخله تجاه نفسه، إلاَّ أنه أصبح مثار إعجاب الأساتذة والزملاء على السواء. لقد كان مبرزاً في كل شيء، ولكن هناك في الداخل شيء يجعله يكره نفسه. إنه يعلم ما هو، ولكنه غير قادر على التخلص منه، أو هو لا يريد التخلص منه. حاول أن يقنع نفسه أن ما يقوم به شيء عادي يقوم به أي شاب في مثل سنه، ولكنه لم يستطع التخلص من ذلك الإحساس الكريه في الداخل.

وها هو كانون يقترب من النصف، وتقترب معه الإمتحانات

النصفية. البرد القارس يتسلل إلى كل مكان، ولم يعد فحم المنقل كافياً لنشر الدفء في الغرفة الواسعة، وهو يرتجف مثل عصفور مبلل، رغم الجمر المتوهج دائماً، ورغم البطانية الثقيلة التي يلف بها نفسه طوال الوقت، وهو يحاول أن يحل كل معضلات المحاسبة، هذه المادة الكريهة إلى النفس. يا لنجد وطقسها الذي لا يعرف الرحمة والإعتدال... مثل أهلها، أوأن أهلها مثلها؟ من يدري؟.. لا فرق. إنها باردة برودة الموت في شتائها، حارة حرارة الجحيم في صيفها، ولا وسط إلاَّ أيام معدودات لا تلبث أن تنتهي بمجرد حلولها، مثل المشمش في مواسمه.

كان يتدثر بالبطانية، وهو يفرك يديه بجانب المنقل، ويحاول أن يستذكر بعض تعريفات في «مبادىء القانون»، بعد أن ألقى بكتاب المحاسبة بعيداً. وفجأة انفتح باب غرفته بقوة جعلته يجفل، وأطل وجه عبد المحسن وهو يدخل بسرعة مردداً التحية بعجلة وعصبية، ثم اتجه إلى حيث المنقل، وأخذ يقلب ويفرك يديه الخشنتين فوق الجمر الملتهب وهو يستشعر لذة الدفء. أزاح هشام البطانية وهو يستشعر هجوم البرد عليه، واتجه إلى الجانب الآخر من الغرفة، حيث شبك موقد الشاي بالكهرباء، ووضع إبريق الماء عليه، ثم عاد إلى المنقل بسرعة وأخذ يقلب يديه بدوره فوق الجمر. كان يعلم أن شيئاً خطيراً جعل عبد المحسن يأتي في مثل هذه الساعة من الليل دون موعد أو اتفاق... هل للأمر علاقة بالتنظيم؟.. وأحس برعدة تعتريه جعلته يلجأ للبطانية من جديد، وهو يترقب بتوتر أن يبدأ عبد المحسن الحديث. ولم يطل انتظاره، إذ سرعان ما قال عبد المحسن، وهو ينظر إليه بتمعن:

ـ لقد تعاركت اليوم مع مهنا.

وعادت الراحة إلى نفسه من جديد، واستمر ينظر إلى عبد المحسن طلباً للمزيد:

ـ كان عندنا بعض الشباب اليوم كالعادة، وتعشوا معنا. وبعد أن غادروا، أخذ مهنا يؤنبنا على كثرة الزوار، وعلى الإسراف في مصاريفّ العزبة التي أصبحت «سبيلاً» للجميع بحسب ما قال، رغم أن العشاء لم يكن من تموين العزبة.

وصمت عبد المحسن للحظة، مرر بها كفيه الدافئتين حول وجهه، ثم قال:

ـ صمتنا جميعاً، ولكن مهنا استمر في تأنيبنا، ووصفنا بمجموعة من «السراسرة» الذين لا مستقبل لهم. وهنا لم استطع التحمل، ولم أتمالك أعصابي، فرددت عليه بقوة لم يتعودها مني، فاستشاط غضباً واتهمني بأني أنا بالذات قد حولت العزبة إلى فندق مجاني لكل الدشر، فلم أستطع التحمل وصفعته دون شعور.

وقطع صفير الإبريق الحديث، فنهض هشام وأعد الشاي بسرعة، ثم عاد بالصينية، وأخذ الاثنان يرتشفان الشاي الحار بلذة وسرعة، وقد بدأ الدفء اللذيذ يغزوهما بسرعة، ثم قال عبد المحسن:

ـ لم يتحمل مهنا المفاجأة، ونهض بسرعة وهو يقول: «الشرهة مهيب عليكم، الشرهة على اللي يسكن معكم...»، واتجه إلى غرفته وعاد بعد قليل وهو يحمل حقيبة ملابسه وكتبه متجهاً إلى الخارج. تجمع الشباب حوله لإقناعه بالعدول عن قراره، ولكنه كان عنيداً كالعادة، وغادر وهو يقول إنهم سيتحاسبون على الأشياء المشتركة لاحقاً.

وتوقف عبد المحسن عن الحديث ريثما يصب لنفسه بيالة شاي أُخرى، ثم واصل قائلاً:

ـ تجمع محمد ودعيس حولي، ولاماني على ما فعلت مع مهنا، ولكني كنت في غاية الغضب فقلت دون تفكير:

ـ وأنا أيضاً سوف أترك هذه العزبة...

وبعد أن شرب جرعة كبيرة من الشاي، قال وقد اتسعت عيناه:

ـ وقلت لهم أننا... أنا وأنت... قد اتفقنا على السكن سوياً.

كان هشام يمسك ببيالة الشاي قرب فمه، وعندما سمع تصريح عبد المحسن، أزاح البيالة بسرعة، ووضعها جانباً وقد اتسعت عيناه بدوره وهو يفكر بسرعة. لقد كان عاقداً النية على السكن خارج منزل خاله على أية حال، ولكن لم يخطر بباله أن يكون ذلك مع عبد المحسن، وبهذه السرعة. لا لعيب فيه، أو عدم رغبة مسبقة، ولكن لأن ذلك لم يخطر على باله أصلاً.

ـ أرجو ألا أكون قد تسرعت فيما قلته للشباب.

قال عبد المحسن، فيما أجاب هشام بسرعة:

ـ إطلاقاً... ولكن لم يخطر ببالي قبلاً أن نسكن سوياً. لقد فاجأتني.

ـ ما معنى ذلك؟.. هل أنت موافق على أن نسكن سوياً أم لا؟ لن أبقى في العزبة على أية حال، سواء سكنا سوياً أو سكنت بمفردي.

وابتسم هشام وهو يقول:

ـ ولم لا... لقد كنت عازماً على السكن خارج منزل الخال، ولا

أعتقد أني سأجد رفيقاً أفضل منك.

وطاف التنظيم بخياله وهو ينطق كلمة «رفيق» بعد أن نجح في نسيانها، أو هو اعتقد ذلك، ثم قال:

ـ ولكن المشكلة أننا في أيام إمتحانات... ومتى نبحث عن منزل، ومتى نؤثث، ومتى. ومتى. أنت تعلم!..

ـ معك حق... ولكننا لن نفعل ذلك دفعة واحدة. سنستأجر المنزل أولاً، وبعد إجازة منتصف العام، نؤثث على مهل. وعلى أية حال، لا نحتاج الكثير، فغرفتك وغرفتي جاهزتان تقريباً. لا نحتاج إلاَّ لبعض الأشياء البسيطة... ثلاجة»، «قز»، وبعض الأواني.

وابتسم هشام حين ذكر عبد المحسن الثلاجة، ولم يستطع أن يمنع نفسه من التعليق، فقال:

ـ ثلاجة؟.. وما الداعي لها؟ أليس الزير كافياً؟

وضحك الإثنان من الأعماق، ثم قال عبد المحسن وعيناه تدمعان:

ـ في مثل هذا الطقس لا نحتاج إلى ثلاجة أو زير... ولكني أصر على الثلاجة كأول شيء في العزبة. لقد تعقدت من شيء اسمه الزير.

وواصلا ضحكهما، وقد نشر الدفء أجنحته، فيما كان عبد الرحمن يدخل بعجلة وهو يقول:

ـ «لعله خيراً؟ عسى مانتم متقوهين؟.. ضحككما واصل إلى آخر الشارع..».

وقبل أن يجلس، جلب لنفسه بيالة شاي، وصب لنفسه ثم أشعل سيجارة أخذ يمتصها بقوة وهو يقول، وقد اختلط الكلام بالدخان الخارج

من فتحات وجهه:

ـ لقد اشتهت نفسي سيجارة، وأتيت لأدخنها هنا. لم أكن أعلم أن لديك حفلة.

ـ ولا حفلة ولا يحزنون...

قال هشام:

ـ كل ما في الأمر أنني وعبد المحسن قررنا السكن سوياً ابتداءً من نصف السنة الثاني.

ـ وتتركنا؟!

قال عبد الرحمن بانزعاج، فيما ابتسم هشام وهو يقول:

ـ أنت تعلم أن سكني معكم مؤقت. سبق أن قلت لك ذلك...

ثم وهو يغمز بعينه ويبتسم:

ـ يا خبيث. أنت لست منزعجاً من رحيلي، ولكنه حرص على الغرفة وما تفعل بها... أليس كذلك؟

ـ أبداً...

قال عبد الرحمن بعصبية:

ـ ولكننا اعتدنا عليك. وأنا شخصياً لا أتصور المنزل بدونك.

وأخذته عاطفة شديدة نحو ابن خاله وهو يقول بتأثر:

ـ لقد كنت أمزح يا عزيزي. فأنا لا أستطيع الإستغناء عنكم. كل ما في الأمر هو أني سوف أغيِّر المكان، أما القلب فهو معكم، سنرى بعضنا بعضاً أكثر... صدقني.

وأخذ الجميع في ارتشاف الشاي بصمت، فيما كان عقله يفكر بأشياء كثيرة، في الوقت الذي كان الجمر يموت في المنقل.

ـ ٢٣ ـ

في اليوم التالي، بدأ الإثنان في البحث عن مسكن جديد مناسب في الموقع والإيجار. كانا يبدآن البحث بعد صلاة العصر مباشرة، مارين على أعداد كبيرة من المكاتب العقارية الصغيرة في الأحياء القريبة من عليشة، فقد كانت عليشة منطقة راقية فوق مستواهما، ولا ينتهيان من التجوال إلاَّ مع أذان العشاء وإغلاق المحلات أبوابها، حيث ينتظران حتى تنتهي الصَّلاة، ثم يقصدان مطعماً من مطاعم الفول أو المطبق ويتناولان عشاءً سريعاً، وكثيراً ما كانا يكتفيان بسندويش بيض وطماطم، ثم يذهب كل منهما إلى منزله. كانت المنازل والشقق كثيرة جداً، وكان هناك ما يناسبهما إيجاراً وموقعاً، ولكنهما كانا يواجهان بالرفض في كل مرة، عندما يعلم صاحب العقار أو السمسار أنهما من العزاب.

أن تكون عازباً في الرياض جحيم لا يطاق، فالكل لا يثق بك، والكل ينفر منك، وكأنك جرب متنقل، فأنت متهم حتى تثبت براءتك، أو أنت مذنب غالب الأحيان دون حاجة إلى دليل. وقد اكتشف هشام خلال رحلة البحث عن مسكن، الكثير من الأمور التي لم تكن تخطر له على بال قبل ذلك. توصل إلى قناعة أن الخوف والشك بالعازب هو عدم ثقة بالنساء، اللواتي يقبعن خلف جدران وجدران تفصلهن عن أقرب رجل. فالمرأة الفاضلة تبقى فاضلة حتى لو كانت وحيدة وسط ألف رجل، والرجل لا يأخذ من المرأة إلاَّ ما تريد أن تمنحه إياه، ولا

يمكن إجبار امرأة على إعطاء ما لا تريد. أما إذا أرادت المرأة أن تمنح شيئاً، فليس هناك قوة قادرة على منعها، مثل تلك الفتاة التي حبسها عفريت في صندوق ألقاه في قاع البحر، لا يخرجه ويفتحه إلاَّ إذا أرادها. ومع ذلك، استطاعت هذه الفتاة أن تعاشر أكثر من خمسمائة إنسان، كان آخرهم شهريار، كما تقول القصة الشهيرة في ألف ليلة وليلة. إنهم يضطهدون الرجال لأنهم لا يثقون بالنساء.

بحثا في كل مكان: في الشميسي، ودوار أُم سليم، وشارع عسير، ومنفوحة، وظهرة البديعة، والعجيلية، وفي عليشة ذاتها، إذ لعل وعسى، ولكن لا جدوى. وبعد أن كادا يفقدان الأمل، وجدا منزلاً في أحد الأزقة المتفرعة عن أحد الشوارع الترابية المتفرعة من شارع عسير. كانت مفاجأة سارة بكل المعايير، عندما لم يمانع السمسار من سكنهما في المنزل، رغم علمه أنهما عازبان. وكان تعليقه على ذلك، أن أخلاقهما عندما يسكنان هي التي سوف تقرر بقاءهما من عدمه، وكان موقفاً وتعليقاً نادراً من سمسار مثله. ولم يساوما كثيراً في الإيجار، فقد أنستهما الفرحة غلاء الإيجار الذي كان خمسة آلاف ريال في السنة. وعندما شاهدا البيت، زاد سرورهما، فقد كان واسعاً وشرحاً بكل المعاني. لم يكن بيتاً طينياً، بل حديثاً مبنياً بالأسمنت المسلح، من أربع غرف وحمامين ومطبخ وصالة صغيرة مبلطة مفتوحة من الأعلى. كان هناك غرفتان تطلان على الصالة مباشرة بالإضافة إلى المطبخ، وغرفة بالقرب من الباب الخارجي، يقابلها حمام، ويفصلها عن الصالة باب صغير. أما الغرفة الرابعة، فقد كانت تقع على السطح، وكانت أشرح الغرف فعلاً، فيها نافذتان إحداهما تطل على الزقاق، والأخرى على السطح الفسيح، بينما لم يكن في بقية الغرف أي نافذة، ما عدا واحدة

تطل على الزقاق في الغرفة الخارجية. حجز هشام الغرفة العلوية لنفسه، فهي توفر له العزلة التي يريد بعض الأحيان، وكذلك الهدوء، خاصة وهو يعلم أن لعبد المحسن الكثير من الأصدقاء والمعارف، وهو لا يريد الإختلاط بأحد إلاَّ عندما يريد ذلك، وليس عندما يريد الآخرون. واختار عبد المحسن أوسع الغرفتين المطلتين على الصالة، وجعلا من الغرفة الأخرى القريبة من المطبخ مخزناً للمؤن. أما الغرفة الخارجية، فقد جعلا منها مجلساً.

وعندما وقعا عقد الإيجار عصر ذلك اليوم التاريخي بالنسبة لهشام، ودفعا للسمسار نصف الإيجار مقدماً، بعد أن استدان هشام من ابن خاله أحمد مبلغ ثمانمائة ريال بعد إلحاح وعهود ومواثيق. أخذهما الحماس واتجها مباشرة إلى الحراج، فاشتريا ثلاجة صغيرة الحجم، وموقد غاز مع أنبوبته، وبعض الأواني المطبخية الضرورية. أما المجلس، فقد أجلا تأثيثه إلى ما بعد إجازة منتصف العام، حين ينتقلان للسكن الدائم في المنزل الجديد. وخلال الأيام السابقة للإجازة، كانا يذهبان كل عصر إلى «منزلهما» يستكشفان حيهما الجديد، ويستنشق هشام عبيراً لذيذاً من داخله، مبعثه إحساس غامر بالحرية والإستقلالية، رغم أنه يحس ببعض الضيق والخوف من المجهول، فهذه أول مرة يستقل فيها بنفسه.

كان الحي الذي يقع فيه المنزل كمعظم الأحياء في الرياض: أزقة وشوارع ترابية ضيقة، تقع على جنباتها منازل أكثرها طيني وبعضها مسلّح. وكان الحي قريباً من بعض المعاهد العلمية، ومن المستشفى الحكومي العام، ولذلك كان مكتظاً بالطلبة والمدرسين والموظفين الصغار، وتنتشر فيه محلات الخدمات من مخابز وبقالات صغيرة ومغاسل. وغير بعيد عنه، يقع شارع عسير، حيث محلات الجزارة

المتعددة، ومطاعم الفول وأفران خبز التميز ومحلات المطبق والساندويشات السريعة. كان كل شيء يبدو مريحاً في الحي الجديد، موقعه والخدمات المتوافرة. كل شيء من الممكن إنجازه مشياً على الأقدام. فعليشة، حيث الكلية، لا تبعد أكثر من نصف ساعة من المشي، بالإضافة إلى توافر خط البلدة الذي يسير من شارع عسير إلى كل أرجاء الرياض بأربعة قروش للمشوار الواحد.

أما الجيران فلا يعلمون عنهم شيئاً. كل ما يعرفونه هوأن جيرانهم في الزقاق كانوا من العائلات، وليس هناك عزاب غيرهم في الزقاق. وكان منزلهم ملاصقاً لثلاثة منازل من أحد جوانبه، وأربعة من الجانب الآخر، ومنزلان من الخلف، وبعد ذلك تكثر قطع الأرض الخالية التي تفصل بين كتل أُخرى من المنازل. وفي مواجهة المنزل، كان هناك منازل متلاصقة أُخرى على الجانب الآخر من الزقاق، الذي يضج بصراخ الأطفال، التي تنطلق من بعد العصر، ولا تهدأ إلاَّ قبيل العشاء، ليحل محلها عواء الكلاب الشاردة وتهارشها.

ولاحظا أن الجيران كانوا منزعجين من استئجارهم للمنزل، من خلال تلك النظرات المرتابة التي يقابلونهما بها عندما يحضران كل عصر للمنزل. وحتى عندما يسلمان على أحد من الجيران يتصادف وجوده في ذلك الوقت، كان يرد السَّلام بغمغمة غير مفهومة، وهو ينظر إليهما شزراً. ولو لم يقل الرسول إن «السلام سنة ورده واجب»، لربما لم يرد السَّلام. وقررا أن يكونا في منتهى الإنضباط والأخلاق لانتزاع ثقة هؤلاء الجيران، ولكن كيف يستطيعان ذلك وهما يشعران بأعين خفية تتابعهما من وراء الأبواب والنوافذ المغلقة في الرواح والمجيء...

ـ ٢٤ ـ

عندما أخبر سوير بعزمه على الرحيل إلى مسكن جديد بعد الإجازة، جن جنونها. لم يجرؤ على إبلاغها الخبر إلاَّ بعد أن منحها من الحب ذلك اليوم الشيء الكثير، وكانت تبدو في غاية السعادة والإنشراح. بل إنه هو ذاته لم يكن يعلم أنه قادر على إعطاء كل ذلك الحب دفعة واحدة، ولكنه كان يحس في أعماقه أن هذا ربما يكون اللقاء الأخير، فقد ضاق في المدة الأخيرة من غيرتها العمياء، كما أن ذلك الوخز الذي كان يحسه كلما خرج من عندها، بدأ يصبح أشد وطأة من ذي قبل، خاصة عندما كان يمر بعض الأحيان من أمام دكان عليان فيراه غارقاً في تقطيع اللحم، واثقاً من طيبة كل العالم، وغافلاً عما يجري غير بعيد عنه.

عندما أخبرها بقراره في الرحيل، وكانا يحتسيان حليباً بالزنجبيل، وضعت البيالة بعصبية على الصينية، وأخذت تنظر إليه بعينيها الواسعتين اللتين بدأتا تتبللان، دون أن تفقدا من حدتهما شيئاً، وقالت بتهكم:

ـ الآن عرفت لما كل هذا القدر من الحب!... لقد كنت أتساءل طوال الوقت عما دهاك اليوم. وكنت أحاول إقناع نفسي أنك قد احببتني أخيراً. كم كنت بلهاء...

ولم تستطع أن تكمل، فقد أجهشت في البكاء، واضعة رأسها بين ركبتيها العاريتين. وحاول تهدئتها، ولكنها أزاحت يده بعنف غير متوقع وهي تقول بصوت متهدج:

ـ أبعد يدك عني أيها الخائن... أتريد أن تتركني بعد أن وجدتك؟

ـ من قال لك ذلك... أنا سأبتعد قليلاً، ولكن لن أتركك.

ـ كذاب... كذاب.

وتركها تبكي ما طاب لها البكاء، ثم هدأت قليلاً، وأخذت تنظر إليه بعينين حمراوين وهي لا زالت تنشج، ثم مسحت دموعها بكفها، ثم قالت بصوت منكسر:

ـ كنت أعلم أن النهاية قادمة، ولكني لم أتوقعها بهذه السرعة. لقد كان كل شيء جميلاً لدرجة لا تصدق... كنت أعوم في بحيرة من السعادة، ولكن ها أنذا أغرق في بحيرة الشيطان. ها أنذا أعود إلى الظلام من جديد...

وصمتت للحظة مسحت خلالها دمعة منحدرة، ثم ابتسمت بأسى وهي تقول:

ـ لقد أحببتك بجنون منذ أن رأيتك... لم أكن أعرف معنى الحب قبلك. أنا أعلم أنك لم تحبني يوماً، لقد كنت تحب جسدي. وليس لدي مانع طالما أنك معي وبقربي... ولكن أن تتركني... ليتني لم أعرفك. ليتني لم أعرفك.

ولم تستطع أن تواصل، فأخذت تنشج من جديد. وأحس في تلك اللحظة أن نصلاً حاداً كان يخترق جسده في الأعماق، ممزقاً كل ما يجده أمامه. ولم يشعر بنفسه، إلاَّ وهو يجذبها إليه، دافناً رأسها في صدره، دون ممانعة منها هذه المرة، وتركها تبكي، وهو يمرر يده على شعرها المضمخ بالدهون ويقول:

ـ أنا أحبك... صدقيني أنا أحبك ولا يمكن أن أتخلى عنك.

وفجأة انتزعت رأسها من صدره وهي تقول بانكسار، والدموع ما زالت تتماوج في عينيها:

- تحبني؟.. كذاب. وهل يترك الحبيب حبيبه؟!

- ومن قال لك أني سأتركك!.. كل ما في الأمر أني سوف أنتقل إلى منزل جديد.

ولأول مرة تبتسم منذ أن أبلغها بخبر انتقاله، فنظرت إليه ببؤس وهي تقول:

- حقاً؟.. ولكنك سوف تكون بعيداً عني.

- ألا يقولون إن البعد يؤجج نار المحبة؟

وابتسم وهو يقول هذه العبارة فيما ضحكت هي بسعادة، وقالت وقد خف نشيجها:

- حبي لك متأجج مذ عرفتك، ولا يحتاج إلى تأجيج... هل رأيت أحداً ينفخ على النار في يوم عاصف؟

- سوف تكون علاقتنا أقوى... صدقيني.

قال ذلك وهو يعنيه في تلك اللحظة، فيما صمتت هي وقد ارتاحت قليلاً، وأخذ ينظر إلى وجهها الخمري، وشعرها المتموج وقد تناثر بجنون على كتفيها العاريتين. وكفكفت دموعها، ثم قالت بلهجة توحي بالشك:

- أرجو أن تكون صادقاً... وهل أمامي إلاّ التصديق؟

ثم وهي تمسح دموعها:

- ستريني منزلك الجديد... أليس كذلك؟

- كلا، لا تفكري بذلك... ولكن سترينني دائماً. صدقيني.

قال ذلك وهو يبتسم، ثم جذبها إليه، فارتمت عليه بكليتها، وتحولا إلى جسد واحد.

- ٢٥ -

وأخيراً انتهت امتحانات نصف العام الدراسي، واجتازها بتفوق ملحوظ. لقد كان في غاية الشوق إلى أهله وأصدقائه ونورة في الدمام، بعد هذه الأشهر الطويلة من الفراق التي خالها دهراً، وقد كانت بالفعل دهراً في أحداثها والتغيرات التي طرأت عليه. في شوق عارم إلى وجه أُمه، ومحيا أبيه، ورائحة نورة، والشلة في منزل عبد الكريم. وأعد حقيبة السفر قبل فترة من يوم السفر، وقبل السفر بيوم، عرج على سوير وودعها، وبقيت تبكي طوال الوقت وهي تقول: «لدي إحساس أن هذا هو اللقاء الأخير...»، ولكنه لم يكن على استعداد لتطييب خاطرها، فالشوق إلى الدمام جعله لا يحس بأي إحساس آخر، فودعها على عجل وهي قابعة في الغرفة تنشج. ثم عرج على عزبة الشباب وودع محمد ودعيس إلى حين. وفي ليلة السفر، اجتمع مع عبد المحسن، وابني خاله حمد وعبد الرحمن في غرفته، وقد أتحفهم حمد بزجاجة «هيغ» توديعاً لهشام، صبوا بعضاً منها في إبريق الشاي، وأضافوا الثلج والماء، وأخذوا يشربون على راحتهم ببيالات الشاي، ما عدا عبد الرحمن الذي اكتفى بالتدخين فقط. وقد فوجىء هشام بكون عبد المحسن يشرب، فسأله عن هذه المفاجأة التي لا تخطر على بال، وكانت الإجابة بسمة سريعة وتعليق هامس: «السنا ريفيين إلى هذه

الدرجة. . .»، فابتسم بدوره مسروراً ولم يهتم بالسبب طالما أن صاحبه يشرب. كان الجميع في غاية السعادة، وخاصة هشام الذي كان يتعجل قدوم الغد، وقد تراكمت في الغرفة سحب دخان المارلبورو وأبو بس، المشبعة بالكحول. ولم تكن مازتهم تزيد عن جبنة صفراء وتونه وبعض المكسرات والقريض، ولم يحسوا أنهم بحاجة إلى أكثر من ذلك، خاصة وأن أم كلثوم تشدو من «صوت العرب» تلك الليلة. كان هشام يشرب ويدخن ويفكر، فقد أحس أن الكحول قد منحه صفاءً في الذهن لم يعهده من قبل، في الوقت الذي كان يحس بالشبق يجتاح كل جسده مع كل كأس يشربها. وطافت سوير بخياله، وود لو كان معها في هذه اللحظة، فهو لم يودعها كما يجب. . . وكاد أن يقفز إلى النافذة ليرى ماذا تفعل، وقد تخيلها جسداً واحداً مع عليان، فشعر بالحرارة تسري في عروقه، وكل شيء فيه قد توتر. ومع الكأس الرابعة، خفت حدة الشهوة، وبدأ يفكر بعلاقته مع هذه المرأة. . . هل يحبها فعلاً كما قال لها آخر مرة، أم أن المسألة لا تعدو مجرد الشهوة. ولكن لماذا لا يشتاق لرقية كما يشتاق لسوير، رغم ضيقه مؤخراً من علاقته معها، ورغم شعوره بعض الأحيان أنه لا يريدها؟ هل أن الكره نوع من الحب؟ ولكن ما هو الحب؟. . . إنه يحب نورة، ولكنه لا يشعر تجاه سوير بالأحاسيس نفسها التي تنتابه عندما يفكر بنورة. وهو لا يكره رقية ولا يحبها، ولكنه يموت شوقاً إليها عندما يطوف مثلثها المتوحش في خياله، ويتصور جسدها الناعم القاسي. فما هو الحب إذاً؟ ولكنه لا يكف عن التفكير بسوير، إنه يشتهيها فعلاً، ولكنه يفكر فيها بعض الأحيان دون أن يتوتر أي شيء في جسده، بعكس رقية التي لا تخطر على باله إلاّ عندما يكون كل شيء فيه متوتراً. لعله العطف والشفقة والحنان الذي يشعر به

تجاه سوير منذ أن أخبرته ذات يوم بقصة زواجها من عليان.

كانت صغيرة جداً، في حوالى السادسة عشرة من عمرها، عندما زوجوها من عليان، الذي كان قد تجاوز الخامسة والأربعين عندئذ. عندما زفوا إليها الخبر، أحست بسعادة طاغية، فهي ستتخلص أخيراً من استبداد الأب وقسوة الأم وأوامر الأخوة، وسيكون لها بيتها الخاص وجنتها الخالصة. . . ستنال حريتها واستقلالها أخيراً. كانت تتخيل نفسها وقد أصبحت عروساً وبجانبها رجل يحميها ويمنحها دفء المنزل، ووجود الأب المفقود. ولكن لحظات السعادة لم تدم، إذ سرعان ما تمنت لو أنها لم تغادر بيت والدها. لقد أدركت طعم الزواج من الليلة الأولى. دخل عليها تلك الليلة رجل متجهم فجعت بمنظره من أول وهلة. لم تكن تحمل شيئاً من الأحلام الرومانسية لفتاة في عمرها تلك الأيام، فقد كانت تكدح في البيت منذ الصباح وحتى المساء، حتى المدرسة انقطعت عنها بعد السنة السادسة. ولكنها لم تتصور أن يكون زوجها بتلك الفظاظة ومن أول ليلة. لم تكن تحفل أن يكون شاباً أو كبيراً في السن، ولكنها كانت تبحث عن حضن دافىء. هجم عليها عليان تلك الليلة مباشرة ودون مقدمات، وأصابها الرعب والشلل وهي عاجزة عن فعل أي شيء. مزق ثيابها، وافتضها بعنف وألم، غير آبه بصراخها ومعاناتها تحت جسده الثقيل، ولم تشعر بأي لون من ألوان اللذة والسعادة تلك الليلة. كل ما أحست به هو الألم وتلك الدماء التي لوثت الشرشف الأبيض. وعندما قضى وطره منها، أدار ظهره وعلا شخيره تاركاً إياها في حالة من الرعب والخوف لم تتخلص من ذكرياتها حتى هذه اللحظة، وحتى الدموع كانت خائفة تلك الليلة فلم تخرج. وأدركت قيمة تلك الدماء التي خرجت من أحشائها صباح اليوم التالي،

عندما جاءت أمها وأخذت تقلب الشرشف الملوث وهي تضحك وتطلق صيحات الفرح ثم تقبل إبنتها وتبارك لها زواجها الميمون، ثم جاء أبوها والإبتسامة تعلو وجهه وهو يبارك لها زواجها. أدركت أن تلك القطرات من الدم كانت أعز ما تملك، بل هي قدس أقداسها، وكل ما يهم أهلهاً منها، وها قد ذهبت هذه القطرات، فهل بقي لها من قدس أو قيمة؟ لقد ذبح القربان، وانتهى كل شيء.

واستسلمت في النهاية لما هو مكتوب لها وعليها، على حد تعبيرها، وأصبحت تمارس حياتها الجديدة التي لم يتغير فيها شيء عن حياتها القديمة سوى أن سيد المنزل الآن له متطلبات في جسدها ذاته، فوق متطلبات أسياد البيت القديم. وعندما مر عامان على زواجها دون أن تنجب، أخذ عليان يتساءل أول الأمر، ثم أخذ يعيرها بعقمها الواضح، ويهددها بالزواج من أُخرى تنجب له إبناً يحمل اسمه. كانت تتمنى من كل قلبها أن يتزوج فعلا ويريحها، ولكنه لا يفعل، واستمرت الحياة على منوالها الروتيني المعتاد. وعنما رأته... عندما رأت هشام وهو يتلصص عليها من النافذة، ثم أخذت تراقبه عند عودته من الكلية، تحركت فيها مشاعر الأُنوثة الدفينة، وأحست أن هناك شيئاً يتحرك داخلها لم تدرك كنهه وإن شعرت به... هكذا قالت له. ويذكر أنه سألها ساعتها إن لم يكن هناك شخص آخر حرك تلك المشاعر الدفينة، فغضبت وأخذت تبكي بحرقة، ولكنه سرعان ما أرضاها بالقبلات والإعتذار، ولكن الشك لم يفارقه منذ ذلك الحين، وإن كان يحاول إبعاد الشكوك والسخرية منها، وسط ما يراه من حب خالص تمنحه إياه دون مقابل.

كان يحاول إقناع نفسه أنه لا علاقة تربطه بها حتى يشك أو لا يشك، وليس له الحق في محاسبتها عما تفعل، ولكنه يشعر بالغيرة

تحرقه كلما خطر بباله أنها تعرف شخصاً آخر، أو عرفت شخصاً آخر. إنه يغار حتى من زوجها، وخاصة عندما تنبح الكلاب في آخر الليل. ورغم إحساسه بشيء من الضآلة يملأ كيانه عندما يرى زوجها أحياناً، إلاّ أن ذلك كان ممزوجاً بشيء كبير من الغيرة... نعم إنه يحب سوير بشكل من الأشكال غير قادر على فلسفته أو فهمه، ولكن هل يحتاج الحب إلى فهم وفلسفة، إنه شعور وحسب. وإذا كان ما يشعر به تجاه سوير ليس حباً، فماذا يكون إذاً؟ فآفة المشاعر فلسفتها.

وأخرجه من تفكيره صوت الباب وهو يطرق طرقات خفيفة متتابعة، فجفل وصمت الجميع فجأة... ترى من يكون؟ لعله خاله قد شم رائحة الدخان وسمع صوت الضحكات العالية، «الله يستر»، ردد الجميع في أنفسهم. أطفأوا سجائرهم بسرعة واخفوا المنافض تحت السرير، وتأكدوا من عدم ظهور أي شيء من زجاجة الويسكي تحت السرير أيضاً، ثم نهض هشام ليفتح الباب وهو يحاول أن يتزن في مشيته، وقد طار أثر الكؤوس التي شرب، واقشعر جلده من أثر البرد الذي يحس به لأول مرة. كان ذهنه يعمل بسرعة لاختلاق عذر مناسب لجمعتهم فيما لو كان الخال هو الطارق، ولكن ما أن فتح الباب حتى شعر براحة كبيرة فعلاً، فلم يكن الطارق غير ابن خاله أحمد الذي كان يحمل كيساً من الورق. دلف أحمد إلى الغرفة، ثم أخذ يستنشق رائحة الغرفة، فيما ظهرت البسمة على وجوه الجميع وهم يرددون: «غربلك الله يا شيخ...»، فجلس أحمد وهو يقول، وقد ضاقت عيناه الضيقتان أصلاً:

ـ غربلني الله!؟.. ماذا تفعلون يا عكاريت؟

ـ دائماً تعكر مزاجنا، الله يعكر مزاجك يا شيخ.

قال حمد وهو يصب لنفسه «بيالة» ويسكي، فيما كان أحمد يضحك وهو يشم الغرفة بقوة ويقول:

- أعوذ بالله... لقد حولتم الغرفة إلى مدخنة.

ثم وهو يشم بقوة أكثر:

- ولكن هناك رائحة غريبة.

ونظر إلى إبريق الشاي، ثم إلى الجميع وقد زوى ما بين عينيه وهو يقول:

- ما هذا؟.. شاهي... يا زينه بهالبرد.

والتقط الإبريق، ولكن ما أن مسه حتى قال:

- كما توقعت أيها الفسقة... شاهي بارد.

ورفع غطاء الإبريق وشمه بسرعة، ثم قال متأففاً، وهو يبعده عن وجهه:

- عليكم اللعنة... ويسكي في منزل المباركي. اتقى عباد الله!!

- خلنا من خرابيطك ونفاقك اليوم... إن كنت تريد أن تشرب، فالخير كثير. أما إذا كنت تريد التنكيد علينا كالعادة، فعليك بالباب.

وضحك أحمد وهو يقول:

- لكم دينكم ولي دين... لا تنكدوا علي ولا أُنكد عليكم.

ثم وهو ينظر إليهم مبتسماً:

- ولكن حسافة عليكم الهدية التي أتيت بها.

قال ذلك، ثم أخرج لفافة من الورق الفضي من كيس الورق الذي

معه، وفض اللفافة فانتشرت في الغرفة رائحة اللحم المشوي...

- كيلو أوصال لحم غنم صافي اشتريته لتناوله مع هشام بمناسبة سفره، ولكن الله كاتب لكم فيه نصيب... هيا... سموا. عساكم ما تحدرونه.

وضحك الجميع بابتهاج، ثم هجموا على قطع اللحم، وما هي إلاَّ ثوان حتى اختفى كل أثر لها.

عندما غادروا الغرفة بعيد منتصف الليل، كانت زجاجة الـ «هيغ» قد فرغت تماماً، وأخذها حمد معه كي يتخلص منها بطريقته الخاصة، وبقي بعض المشروب في الإبريق لا يتجاوز البيالة الواحدة. كان رأس هشام يدور وهو يفكر في هذه الأشهر التي قلبت كيانه رأساً على عقب. صب لنفسه ما بقي من شراب، وأخذ يشرب ويفكر... سوير... لم يستطع المقاومة، جذب الكرسي أسفل النافذة وأخذ يراقب. كل شيء هادىء، ولا حركة أو بصيص نور يأتي من هناك، وصوت الكلاب في كل مكان. ولسعته رياح كانون، فعاد أدراجه وأخذ يشرب بقية الكأس وكل شيء في الغرفة يدور ويدور. ولم يعِ نفسه إلاَّ في صباح اليوم التالي على طرقات الباب. وجد نفسه على سريره بكامل ملابسه، والصداع العنيف يخرق رأسه خرقاً، ولكنه كان في غاية السعادة، فاليوم يلقى الأحبة في الدمام. نهض وفتح الباب، بعد أن وضع الإبريق في مكانه بجانب الباب، وكانت موضي هناك تحمل صينية الشاي وبعض أرغفة خبز التميز وصحن من الطماطم المقلية. وضعت كل ذلك في وسط الغرفة، ثم غادرت وهي تقول: «سامحنا على القصور... لا تمشي قبل ما نشوفك»، وهز رأسه الذي تتصارع فيه الأمواج، وتتعارك المطارق، واتجه في أثرها إلى الحمام.

ـ ٢٦ ـ

كان الإزدحام شديداً عند محطة القطار، فقد انتهت الإمتحانات النصفية، والكل يريد قضاء الإجازة عند أهله. رأى الكثير من الوجوه التي يعرفها في الثانوية، تبادل معهم أحاديث خاطفة، وتحيات سريعة، ثم أخذ يزاحم مع المزاحمين للحصول على تذكرة أولاً، ثم الحصول على مقعد مناسب ثانياً. لم يتأفف من الزحام أو يتضايق، فهو يعرف أن نهاية ذلك هي الدمام حيث الأهل والأحباب والبحر. . . لكم اشتاق للبحر بعد هذه الأشهر الطويلة في مدينة لا بحر فيها. وعندما تحرك القطار أخيراً، كان قد بدأ في قراءة «الطريق» لنجيب محفوظ، فيما كانت تلال الرمل الحمراء تمر سريعاً على جانبي القطار.

في منتصف المسافة تقريباً بين الدمام والرياض، عضه الجوع، فهو لم يتناول من إفطار موضي سوى الشاي، فلم يكن ساعتها يشتهي شيئاً مع ذلك الصداع الذي كان يمزق رأسه، ولا يزال وإن كان أقل حدة. ألقى «بالطريق» جانباً، واتجه إلى المطعم في العربة الخلفية للقطار. جلس إلى إحدى الموائد بقرب النافذة، وطلب أرزاً ودجاجاً وكولا، وأخذ يتناول الوجبة بهدوء. لم يكن الدجاج بطعم الدجاج، بل أشبه بليف مطبوخ، ولم يكن الأرز بطعم الأرز، وتفوح منه رائحة غير مستساغة، ومع ذلك أكل كل شيء. لم يكن المطعم مكتظاً، فمعظم المسافرين يجلبون معهم بعض الطعام والشراب، ولكن كان هناك عدد لا بأس به من الجالسين. بعضهم كان يشرب الشاي والمرطبات، والبعض الآخر كان يأكل سانديوشاً، وبعضهم لا يفعل أي شيء على الإطلاق سوى مراقبة كثبان الرمل، التي أصبحت صفراء اللون بعد تجاوز الدهناء، وهي تمر سريعاً مثل سنوات العمر.

انتهى من وجبته، فطلب كأس شاي، أخذ يرتشفه بهدوء وهو يدخن بعمق وينفث الدخان إلى الأعلى ويراقبه وهو ينتشر في سماء العربة. كان مستغرقاً في التفكير بلا شيء، عندما أحس بيد توضع على منكبه وصوت مألوف يقول: «السلام عليكم. . .» نظر إلى مصدر الصوت فإذا بعدنان يقف وراءه وظل ابتسامة يلوح على وجهه. كان يقف منتصباً، وقد زاد نحول جسده، وإن كان وجهه أقل شحوباً، أو ما بقي ظاهراً من وجهه، فد توزع الشعر على مختلف مناطق وجهه دون ترتيب، ونمت لحيته بشكل كبير ودون تهذيب، فيما كان الشاربان في غاية الدقة ومحفوفان بشكل واضح. وكان يلبس ثوباً صوفياً بنياً قصيراً، وشماغاً أحمر دون عقال، وقد بانت مقدمة رأسه وطرف من الطاقية البيضاء، وأثر من رائحة دهن عود تفوح بهدوء. نهض هشام بسرعة، وقد رسم على فمه ابتسامة واسعة، ومد يده باتجاه صاحبه وهو يقول بصوت حاول أن يكون عميقاً: «وعليكم السَّلام ورحمة الله وبركاته. . . حيا الله أبو نزار. . .»، وتصافح الإثنان، وجذب هشام صاحبه إلى مقعد شاغر في مقابله على المائدة. أخذ الإثنان يتأملان بعضهما بعضاً لفترة وجيزة، فهما لم يتقابلا منذ حوالى الشهرين، إذ حتى بوفيه الكلية ابتعد عنه عدنان في الآونة الأخيرة. وأخيراً قطع هشام لحظات التأمل عندما سأل صاحبه إن كان يريد أن يأكل أو يشرب شيئاً، ولكنه أجاب بالنفي. ونظر إليه عدنان متفحصاً، ثم قال: «ما شاء الله. . . لقد أطلقت شاربيك. تبدو أكبر من سنك الحقيقي، ولكن أكثر وسامة»، فابتسم هشام وشكره على هذه المجاملة. غير أن عدنان أضاف قائلاً: «ولكن أما كان من الأولى أن تطلق لحيتك؟. . إن ذلك أدنى إلى حب الله وطاعة رسوله، واللحية من مظاهر الرجولة الحقة. . .». لم يكن هشام راغباً الدخول في مناقشة من

أي نوع، لذلك ابتسم وهز رأسه موافقاً وهو يقول: «الشاربان خطوة أولى، ولعل اللحية تأتي لاحقاً إن شاء الله». كان عدنان يعرف صاحبه أكثر من أي شخص آخر، لذلك أدرك أن هشام غير راغب الخوض في حديث من هذا النوع، لذلك قال بسرعة وهو يستعد للنهوض: «إن شاء الله. إن شاء الله. وبالمرة تترك التدخين، فهو مدمر للصحة ومغضب للرب، والله يسوي اللي فيه الخير دائماً...» حاول هشام أن يستبقيه، ولكنه اعتذر بارتباطه برفاق آخرين، ثم غادر متجهاً إلى مائدة في آخر المطعم كان يجلس إليها شخصان بهيئة عدنان يشربان الشاي. وطلب هشام كأس شاي آخر، أخذ يحتسيه، وهو يحاول أن يفلسف التغير الذي طرأ على عدنان، وينفث الدخان في الهواء من جديد، وهو يسترق النظر إلى حيث عدنان.

لم يكن هناك من ينتظره في المحطة، فهو لم يبلغ أحداً بوصوله، وكان متعمداً فعل ذلك، رغم علمه أنهم يتوقعون وصوله. ترك القطار بسرعة، واستلم حقيبته على عجل، ثم استقل أول سيارة أُجرة صادفته دون أن يسأل عن الأجرة. أعطاه العنوان بسرعة، وانطلقت السيارة مخترقة الشارع الرئيسي، متجهة إلى شارع «ثمنطعش». كان في شوق إلى كل شيء في الدمام، حتى مبنى البلدية القبيح كان جميلاً في عينه هذه المرة عندما مر عليه في الطريق إلى المنزل. وما هي إلاّ عشر دقائق أو أقل، وتقف السيارة أمام منزلهم... لكم كان جميلاً ومريحاً في تلك اللحظة. نزل من السيارة بسرعة، ومنح السائق ريالين دون مساومة، وأخذ يطرق الباب ويقرع الجرس في الوقت نفسه، وقلبه يخفق بعنف. لحظات قليلة وأتاه صوت يعرفه جيداً كأنه قادم من بعيد وهو يردِّد: «طيب... طيب»، ثم أصبح قريباً وهو يقول: «من... من عند

الباب»، «أنا... أنا يا أمي»، وفتح الباب على اتساعه ولم يجد نفسه إلاّ وهو يشم رائحة أمه اللذيذة. قبلته كثيراً، وقبل جبينها ثم استسلم لأحضانها الدفئة. لم يكن والده موجوداً في تك اللحظة، فقد كان في إحدى «الشبات» التي تكثر أيام الشتاء. جلسا في غرفة العائلة حيث التلفزيون والذكريات التي يثيرها، ووالدته تتفقده من الأعلى إلى الأدنى وهي تبتسم وقد بان السرور في عينيها وهي تقول: «ما شاء الله... لقد أصبحت رجلاً يا هشام. ووسيماً أيضاً»، وهي تشير إلى شاربيه الفاحمين. ابتسم بدوره، وأخذ يتحسس شاربيه وهو يقول: «القرد في عين أمه غزال»، وضحكت أمه كاشفة عن تلك «الفلجة» المميزة بين أسنانها ثم قالت: «قرد أو غزال، المهم أن يعطيك الله الصحة والعافية وطول العمر والصلاح»، ثم نهضت وهي تعده بوجبة عشاء فاخرة من أطباقه المفضلة، وتركته وحيداً.

أخذ يتأمل الغرفة من حوله... لم يتغير فيها شيء البتة، كل شيء كما كان. وضحك في سره، إنه لم يغب أكثر من خمسة أو ستة أشهر على الأكثر، فماذا يمكن أن يتغير في منزل تعود على النظام والثبات. آه لو تدري أمه كم تغير هو خلال تلك الأشهر البسيطة... لم يعد بريئاً كما عهدته آخر مرة. لقد مارس كل رذيلة ونقيصة في قاموسها... شرب الخمر، وعاشر النساء، وهو يدخن بشكل رسمي. ماذا تفعل أمه لو عرفت بما فعل في الرياض يا ترى؟.. لن تكرهه بالطبع، فسوف يبقى إبنها مهما كان الأمر، ولكنها ستجرح جرحاً لا يمكن أن يندمل... «لا بد أنك في غاية الجوع»، كان ذلك صوت أمه وقد عادت حاملة صينية الشاي، ومعها طبق صغير فيه بعض أقراص المعمول والغريْبة، وبجانب الشاي بعض النعناع الأخضر. وضعت الصينية أمامه

دون أن تجلس، إذ استدارت عائدة إلى المطبخ وهي تقول: «سوف أنتهي من الطبخ ريثما تتمتع بشايك». حاول أن يستبقيها ويثنيها عن الطبخ، فالوقت متأخر لذلك، فهي حوالى السامنة مساءً، ولكنها أبت وقالت وقد تحول كل وجهها إلى ابتسامة واسعة وصافية: «وكم لدي من هشام حتى أفرح به؟... وعلى أية حال، فليل الشتاء طويل. لا تقلق...» ثم اختفت في المطبخ. ليس ألذ من شاي أمه وحلوياتها في ليالي الشتاء، فهو يشرب الشاي وكأنه لم يذقه منذ أمد، ويأكل معمول التمر وكأنه يراه ويذوقه لأول مرة في حياته. شاي موضي لا طعم له، أما شاي سوير فهو لا يذكر طعمه من الأساس، رغم كثرة ما شرب منه.

انتهى من الشاي والكعك، وأمه لا تزال في المطبخ، وقد فاحت رائحة البصل المحموس في أرجاء البيت. نهض من مكانه وأدار التلفزيون، وكانت هيام يونس تغني «تعلق قلبي». أغلق التلفزيون واتجه إلى غرفته... كل شيء على حاله. السرير، الكتب، المنضدة، كل شيء... جلس على السرير وابتسم والذكريات تدور في رأسه بسرعة. هنا كانت أول قبلة في حياته مع نورة... كانت ألذ من العسل، رغم أنه لا يحب العسل، وأشد حرارة من النار. جرب بعدها قبلات أخرى وأكثر من ذلك، ولكن طعم تلك القبلة لا زال يحرق شفتيه. وهناك مكتبته الصغيرة، كل كتاب فيها له قصة وذكريات... هذا هو الكتاب الذي وجد فيه عدنان المنشور وكان بداية الفراق بينه وبين صديق العمر. وذاك هو الكتاب الذي تعرف من خلاله على الماركسية أول مرة، ولم ينم ليلة انتهائه من القراءة، فقد أحرقته الأفكار والهواجس. وهذه هي الرواية التي أججت النار في داخله عندما قرأها أول مرة. وخرج من الغرفة واتجه إلى الفناء الخلفي... هناك النقود المدفونة. أشعل سيجارة

أخذ يدخنها بعمق وهو ينظر إلى مكان النقود... لقد انتهى التنظيم، وها قد مرت ستة أشهر دون أن يسأل عنه أحد. لقد انتهى كل شيء وها هو يبدأ حياة جديدة... لِمَ لا يستولي على النقود، لقد أصبحت من حقه الآن. وكاد أن يحفر الأرض، ولكنه عدل عن ذلك في آخر لحظة... ألقى السيجارة خارج سور المنزل، وعاد إلى الداخل.

كانت أمه لا تزال في المطبخ، وهو يشاهد تمثيلية محلية سمجة لا شيء غيرها، عندما دخل أبوه. هب واقفاً، قبل جبينه وعانقه، وكانت علامات الفرح واضحة على محيا أبيه، رغم محاولته عدم إظهار ذلك، فالرزانة المفرطة أهم شيء يحافظ عليه أبوه، ككل نجدي تقليدي، مهما تقلبت به الأحوال. لقد تعود هذا السلوك من والده، وهو يعلم أنه يود لو احتضنه بقوة ولكنه يمنع نفسه. وقبل أن يجلس، صاح بأعلى صوته: «قرت عينك يا أم هشام... حمداً لله على سلامة هشام»، وجاء صوت الوالدة من بعيد وهي تردد: «بنبيك... بنبيك إن شاء الله... الله يسلمك...»، ثم جلس والده في ركنه المفضل من الغرفة، في حين اتخذ هشام لنفسه مجلساً بقربه. وأخذ والده يسأله عن الدراسة وخاله وأبنائه وشاربيه الجديدين، وأحاديث عادية أخرى حتى أطلت الوالدة وقد حملت «السماط» إيذاناً بوصول العشاء. وتحلق الثلاثة حول صينية اللحم بالبطاطس، وأخذوا يأكلون بسرور فيما كان الوالد يعلق قائلاً: «بارك الله بهشام، فقد عشانا هذه الليلة...»، ثم يضحك بحبور، فترد عليه الوالدة بلهجة غاضبة مصطنعة فيها شيء من الدلال: «يا سلام... وكأنك تنام خاوياً كل ليلة. نسينا ما كلينا؟...»، ويضحك الجميع، والأب والأم ينظران إلى هشام بسعادة... يا الله... لكم يحب هذين الشخصين...

حين أوى إلى سريره تلك الليلة، أحس أنه عاد إلى قواعده أخيراً، إلى ما ينتمي إليه ويحبه، خاصة بعد قبلة أمه التي عادت به إلى تلك الأيام... وأغفى وقد ارتسمت بسمة راضية على فيه، ونام وكأنه لم يذق طعماً للنوم قبل اليوم...

- ٢٧ -

نهض في الصباح الباكر على صوت أمه المميَّز الحنون، وكان في أشد الشوق لأن يرى الدمّام وأهل الدمّام... لم يكن يتخيَّل أنَّ فترة غيابه كانت خمسة أشهر فقط، فقد كان يحس أن دهوراً قد انصرمت منذ أن غادر. تناول الشكشوكة التي أعدَّتها أمه طعاماً للإفطار على عجل، وكان والده قد غادر إلى العمل منذ وقت، ثم انطلق إلى الخارج وسط دعوات والدته أن يبعد الله عنه أولاد الحرام. ذهب إلى البحر مباشرة، وجلس قبالته، متمتِّعاً بالطقس في مثل هذا الوقت من العام، وهو يستنشق رائحة البحر المميَّزة التي لا تزال محمَّلة بالعفونة ورائحة البراز والبول، ولكن حتى تلك الرائحة كانت لذيذة ومليئة بالذكريات. غاب مع البحر لبعض الوقت، ثم أخذ يتسكَّع في شارع الحب لبعض الوقت، وعرَّج على منزل راشد، وانتابته رغبة في طَرق الباب والسؤال عنه، ولكنه أزاح الفكرة من رأسه وابتعد سريعاً وكأنه يهرب من نفسه. ثم مرَّ بمنزل فريد المدراسي، وانتابته الرغبة ذاتها في طَرق الباب، ولكنه أسرع مبتعداً أيضاً، وعاد إلى التسكُّع في شارع الحب من جديد. دخل المقهى الذي جلس فيه ذات مرة مع زكي ومرزوق، وطلب شاياً بالحليب شربه بسرعة، ودخَّن سيجارة، وعاد إلى التسكُّع في الشارع. كان الشارع خالياً في مثل هذا الوقت من النهار، إلا من بعض النسوة المتسكِّعات،

والعمال العاطلين. ولفت نظره إحداهن، كانت تسير الهوينا وقد التفت بعباءتها، ووضعت حجاباً رقيقاً على وجهها لا يستر شيئاً منه. لم تكن جميلة الوجه، ولكنها كانت ممتلئة إلى حد البدانة، بردفين ضخمين يفرّق بينهما فَج واضح وعميق، يجعلهما في حالة من التأرجح الدائم. وأثار منظر عجيزتها المترجرجة جوارح هشام، وارتفعت حرارته وأخذ ينظر إليها بشبق، وهو يدخِّن سيجارة بعمق. وأحسَّت المرأة بنظراته، فنظرت إليه بدورها وابتسمت بإغراء، ولكنه عدل عن مغازلتها في آخر لحظة، وسار في طريقه على عجل. لكَم غيرته الرياض... لقد عاش في الدمّام طوال حياته، وجاء إلى شارع الحب أكثر من مرة، ولكنه لم يلاحظ ما لاحظه اليوم، ولم يدر في خلده ما دار.

ملَّ التسكُّع، وقرَّر الذهاب إلى منزل عبدالكريم، لا بد أنه قد استيقظ الآن، فالساعة تقترب من العاشرة. مرَّ في طريقه على حديقة البلدية، وطافت بذهنه ذكريات راشد ومنصور. كان الفضول يقتله لمعرفة مصيرهما ومصير فريد، ولكنه لم يكن على استعداد للسؤال عن أي منهم. كان زُقاق منزل عبدالكريم هادئاً هدوء الموت، إلا من عامل بلدية كان يكنس الشارع بتكاسل بمكنسة مهترئة لم تكن تجمع شيئاً في طريقها. طرق الباب، وبعد لحظات أتاه صوت أم عبدالكريم الحاد وهي تصرخ: «مين... مَن الطارق»، «أنا... أنا هشام العابر»، ولم يلبث الباب المعدني الصغير أن انفرج عن وجه أم عبدالكريم وقد أسبلت غدفتها وهي تقول «يا هلا... الحمد لله على السلامة. تفضَّل. عبدالكريم لا زال نائماً، إنها الإجازة كما تعلم»، ودخل إلى المجلس الذي يعرفه جيداً.

إتخذ لنفسه مجلساً قريباً من الباب وأخذ يتأمَّل المكان... كل شيء

على حاله وكأنه غادره البارحة... وابتسم من جديد. لقد غاب خمسة أشهر فقط وليس خمس سنوات. فما الذي يمكن أن يحدث خلال خمسة أشهر في مدينة هادئة كالدمّام؟... وجاءت أم عبدالكريم بالشاي ووضعته أمامه وهي تقول: «لقد أيقظت عبدالكريم... إنه قادم حالاً»، ولم تكد تُكمل جملتها، إلا وعبدالكريم يطل من الباب وهو يمسح وجهه بفوطة صغيرة ألقاها على كتفه. كان لا يزال يرتدي ملابس النوم، التي هي ذاتها ملابسه الداخلية: فانلة بيضاء نصف كم، وسروال أبيض إلى مستوى الركبة. نظرت إليه أمه وقالت: «الجو بارد يا عبدالكريم، يجب أن تلبس شيئاً وإلا أصبت بالبرد». هزَّ عبدالكريم رأسه علامة الإيجاب وهو يندفع إلى هشام مبتسماً ومرحِّباً. تعانق الإثنان وجلسا جنباً إلى جنب. وقبل أن يستقر بهما المجلس، كانت أم عبدالكريم قد عادت وبيدها ثوب صوفي بني اللون ألقته إلى عبدالكريم وهي تأمره بارتدائه، وعندما تأكدت من إطاعته لأمرها، غادرت وهي تدعو لهما بالصحة والسلامة، وأن يجنِّبهما الله أولاد الحرام ورفاق السوء.

كان هشام في غاية الشوق لمعرفة الأخبار... أخبار كل شيء وأي شيء. سأل عن الأصحاب، سعود وعبدالعزيز وسالم، وأخبار المدرسة، ونوايا عبدالكريم بعد الثانوية. لم يكن هناك جديد، وأخيراً استجمع هشام شجاعته وسأل عن راشد وهو يتصنَّع الهدوء واللامبالاة. ضحك عبدالكريم عند ذِكر «وجه العنز»، وأخبره أنهم عيَّنوا مراقباً جديداً أحسن وجهاً من وجه العنز الذي اختفى منذ فترة ولا أحد يعلم عنه شيئاً. وأدرك هشام أن راشد قد فرَّ إلى البحرين ثم إلى مكان آخر، كما أخبره في السابق، أو أنه معتقَل، وعاد الخوف ينتابه من جديد، وأحسَّ بكره غريب للدمّام ينتابه لأول مرة.

جرت الأحاديث عادية بين الصديقين، حيث علَّق عبدالكريم على شاربي صاحبه الجديدين، ثم أخبره هشام عن بعض مغامراته في الرياض، وكان يبالغ في الوصف عندما يرى علامات الإثارة على وجه صاحبه، ويختلق قصصاً لا وجود لها، وهو يذكر أدق التفاصيل، مستوحياً تلك القصص المهرَّبة التي كانوا يقرأونها في نزهاتهم. ولكنه أدرك من حديثه مع عبدالكريم مدى المسافة التي أصبحت تفصله عن أصحابه في الدمّام، بل عن تلك الأيام التي كان لا يعرف فيها الدمّام نفسها وما تخفيه وراء وجهها البريء. إنهم لا يزالون يعيشون في ذلك البُعد الذي تركه وتركه منذ أن انخرط في التنظيم، ومنذ أن دخَّن أول سيجارة وشرب أول كأس وضاجع أول امرأة... وسأل عبدالكريم عن آخر قراءاته، فأخبره أنه يقرأ «آنا كرنينا» هذه الأيام، فأخذا يتناقشان في الرواية. واستمر الحديث بين الصديقين إلى ما بعد منتصف النهار، حين استأذن هشام بالإنصراف رغم إلحاح عبدالكريم على البقاء وتناوُل الغداء سوياً، ولكن هشام اعتذر بانتظار الوالدة له على الغداء، ولكنه أصر على عبدالكريم بجمع الأصدقاء بعد العصر، وأخبره بوجود عدنان الذي كان قادماً معه في القطار نفسه. وفي طريق العودة إلى المنزل، عرَّج على منزل نورة، وعقد العزم على رؤيتها في ليلته تلك.

ـ ٢٨ ـ

عندما عاد بعد العصر إلى منزل عبدالكريم، كان الجميع هناك عدا عدنان. تعانق الجميع بحرارة، وبدأت التعليقات على شاربيه والغمز والتلميح لما وراءهما. ظنَّ بادىء الأمر أن عبدالكريم أخبرهم ببعض ما

أخبره به في الصباح، بمثلما أخبرهم عن إلحاد إبراهيم الشديخي منذ زمن، ولكنه تبيَّن له أن شكوكه في غير محلِّها، وأن المسألة لا تعدو العبث والمزاح. وسأل عبدالكريم عن عدنان، فأخبره أنه أرسل أخاه الأصغر للجميع، ولكن عدنان لم يظهر. لم يتغير شيء في الشلة أيْضاً، الحديث نفسه والتعليقات نفسها تقريباً. وأخذ ملل لم يعرفه سابقاً يتسرَّب إلى نفسه... أهذا هو ما كان يحنُّ إليه وهو في الرياض طوال تلك الشهور؟ لقد كان قضاء الوقت مع الشلة ألذ شيء في الوجود، فما باله اليوم يشعر بالملل وهو لا يكاد يُكمل عشر دقائق معهم؟ إنه يشعر بسكون قاتل وسط هذه الشلة التي بدت غريبة عليه، أهذا هو «عالَم البراءة» الذي أحس بالذنب حين دمَّر تماثيله واخترق أغشية عذريته؟ وأخذ يجيل النظر في أصحابه وهم يحتسون الشاي ويضحكون، وحسدهم على ما هُم فيه من دعة وبراءة، ولكنه لم يكن يريد أن يعود إلى عالمهم من جديد... بل لم يكن قادراً على ذلك حتى ولو أراد. لقد اكتشف عوالم جديدة من الإثارة والخوف والقلق واللذة معاً، لن يكون من السهل معها أن يستطيع العودة إلى عالم البراءة الذي لا زال يعيش فيه أصحابه. قد تكون هذه العوالم خبيثة وغير طيبة بمقاييس أمه، ومقاييس عالم البراءة الذي تعيش فيه الشلة، ولكنها أصبحت جزءاً من عالمه لا يستطيع العيش بدونه، وإلا كانت الحياة خالية من الطعم واللون والرائحة. إنهم لم يتذوقوا المرأة، ولم يدر رأسهم الشراب، ولم يعانوا قلق المغامرة والخوف من المجهول، فهل يعيش الحياة مَن لم يمر بهذا النفق من اللذة والتوتر؟ قد يكون كل ذلك خطأ، ولكن ما لذة الحياة دون أخطاء؟ الخطأ يعني التجربة، والتجربة تعني حرية الإختيار، والحياة كلها لحظة إختيار وتمرُّد. قد تكون تلك الأيام البريئة الجميلة الماضية

بلا أخطاء، وقد تكون سعيدة صافية، ولكنها سعادة الروتين والوتيرة الواحدة. كيف نعرف اللذة دون ألم، وكيف نحس بالخطأ والخطيئة دون لسعات الإثم وسياط الذنب، وكيف نحس بحرارة الحياة دون قلق المغامرة والإقدام على المجهول؟ لقد اكتشف عوالم جديدة من المستحيل معها أن يعود إلى عالمه القديم، بمثل ما أن العالم لا يستطيع أن يعود جاهلاً حتى لو أراد. من الممكن أن يكون الجاهل أكثر سعادة من العالم، ولكن سعادة العالم المغموسة بقلق الوجود أكثر إثارة ولذَّة، فهل تكون هذه هي حاله اليوم؟... إنه لا يدري. كل ما يدريه أن الملَل يكاد يكتم أنفاسه.

كان قد قرَّر ترك المجلس حين أطل عدنان فجأة محيِّياً الجميع: «السلام عليكم...»، فردَّ الجميع بصوت واحد: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»، وهبَّ الجميع لمعانقته وهم يعلِّقون: «أين أنت يا رجل؟»، «ما هذه اللحية... طبيعية أم عيرة؟»، «ما حكاية الشوارب واللحى هذه الأيام؟». وجلس عدنان قريباً من الباب، رغم إلحاح عبدالكريم عليه بالجلوس بجانب هشام في صدر المجلس، إلا أنه رفض وجلس حيث انتهى به المجلس. وببراءة وشيء من الدعابة، سأل سعود عدنان عن هذه اللحية الجديدة ولماذا أطلقها، فردَّ عليه عدنان بحدَّة غير متوقَّعة قائلاً: «كان الأَوْلى أن تسأل لماذا نحلق اللحى لا لِمَ نطلقها... الإطلاق هو القاعدة وليس الحلق»، ثم ملتفتاً إلى سالم: «أليس كذلك يا سالم؟...»، ولكن سالم بقي صامتاً لا يجيب، وقد بانت علامات الدهشة في عينيه كما الجميع من هذه الحدَّة الغريبة على عدنان. وصمت الجميع لبرهة وهم يحتسون آخر قطرات من الشاي، ثم صاح عبدالعزيز: «بلوت يا شباب...»، وتحلق سعود وسالم وعبدالكريم، في حين نهض

عدنان مستأذناً في الذهاب، ووجدها هشام فرصة للفرار من السأم والملل، فنهض وهو يقول: «خذني على دربك يا عدنان...»، وغادر الإثنان رغم إلحاح عبدالكريم عليهما بالبقاء، فيما كانت نظرات الآخرين تتبعهما باستغراب. وعند الباب الخارجي، نظر الإثنان إلى بعضهما بَعضاً بسرعة ودون كلام، ثم ذهب كل منهما في طريق مختلف.

- ٢٩ -

كان مع والديه في غرفة التلفزيون يحتسون الحليب بالزنجبيل، فيما أبوه يستمع إلى أخبار «لندن» من راديو صغير بجانبه، وأمه تشغل نفسها بالكروشيه، وقد توسَّط المنقل الممتلىء بالجمر أرض الغرفة، وهو على جمر أشد حرارة من ذلك الجمر في إنتظار تلك اللحظة... لحظة إتيان نورة باللبن كالعادة. وخفق قلبه بشدة عندما سمع صوت جرس الباب، وارتفعت حرارته مثل تلك الأيام الخوالي، عندما كانت فتاة عذراء في خدرها. ألقت أمه الكروشيه من يدها، ونهضت وهي تقول: «هذا أوان لبن أم محمد...» بقي في مكانه للحظات يترقَّب وهو في غاية الإثارة، ثم نهض متصنِّعاً الذهاب إلى الحمام، في الوقت الذي كانت أمه قد أتت من الخارج تتبعها فتاة في نحو الثانية عشرة من العمر، تحمل وعاء اللبن الأسطواني، وتتجه الإثنتان إلى المطبخ. دخل الحمام وخرج بسرعة، فيما كانت أمه تودِّع الفتاة قائلة: «سلِّمي لي على أمك يا بدرية...»، ثم عادت إلى غرفة التلفزيون وهي تمسح يديها بطرف غدفتها من أثر الماء. وبهدوء مصطنع، سأل أمه عن الفتاة، فأخبرته أنها بدرية بنت أم محمد... أخت نورة إذاً. وبهدوء أيضاً سأل أمه: «بنت أم محمد...

إذاً هي أخت تلك التي كانت تجلب اللبن... ما إسمها؟»، «نورة... نورة... سرعان ما نسيت يا ولدي»، قالت أمه دون إكتراث، فيما كانت بسمة مبهمة تحتل فيه وهما يعودان إلى الغرفة، حيث كان الوالد يستعد للذهاب إلى «الشبة» الليلية المعتادة. كان في غاية الشوق لمعرفة ما حلَّ بنورة، حتى إذا ما تأكَّد من خروج الوالد، اقترب من المنقل وأخذ يقلب يديه على الجمر، ثم قال بتلقائية متصنَّعة: «آه... لقد تذكَّرت يا أمي نورة. ولكن لماذا لم تعد تأتي باللبن؟» نظرت إليه أمه بعينين خيِّل إليه أنهما تعرفان كل شيء، ثم عادت بنظرها إلى الكروشيه في يدها وقالت بهدوء: «لقد كبرت نورة وحُجِّبت، ولا يجوز لها الخروج لوحدها في مثل هذا الوقت»، وبعد صمت يسير، «كما أنها خُطبت قبل شهرين، ولا يجوز أن تتردَّد على البيوت... لكم تمنَّيتها لك، أدب ومال وجمال وبنت حمولة قبل كل شيء، لكن... لا أحد يأخذ غير نصيبه»، قالت ذلك وهي تطلق تنهيدة خفيفة. ونزل عليه الخبر كالصاعقة... خُطبت نورة؟! لم يكن حقيقة يفكِّر بالزواج منها أو من غيرها، ففكرة الزواج لم ترد على خاطره أصلاً، ولكنه لم يتصوَّر أن يشاركه أحد في نورة، بل لا يتصور أن تكون نورة لأحد غيره، ولا يتصوَّر أن نورة من الممكن أن تتزوج وتصبح مثل سوير... إنها شيء آخر لم يُخلق للزواج. لم يستطع البقاء في الغرفة، فخرج للشارع وأخذ يحوم حول منزلها من بعيد وهو مصمِّم على رؤيتها بأي طريقة، ولكن يجب أن تعرف بوجوده أولاً، ولكن كيف؟ هل يرسل لها رسالة مع بدرية؟... في ذلك مخاطرة غير مأمونة العواقب. هل يقرع بابهم بحجة السلام على والدها؟ ليست العادة أن يقوم بذلك. وأخيراً استقرَّ رأيه على طريقة واحدة لا طريقة غيرها، وعاد إلى المنزل باسماً.

فوجىء عند عودته بوجود والده، ولكنه علم أن البرد القارس هذه الليلة منع الكثيرين من الحضور، لذلك فضّل الباقون العودة إلى منازلهم والإستمتاع بالدفء والنوم الباكر. وعندما بدأ مؤذِّن المسجد المجاور في الدعوة إلى الصلاة، نهض هشام على عجل وسط نظرات أبيه المتسائلة: «إلى أين؟...»، فأخبره أنه يريد الذهاب إلى المسجد، فاستغرب والداه هذا السلوك الجديد. لم يكن من عادته تأدية الفروض بصفة عامة، وكان والداه متسامحين معه في هذه المسألة، وإن كانا يحضانه على أداء واجب الرب ولو بعض الأحيان، فقد كانا يؤمنان أن الشدة في هذه الأمور قد تنفره من الصلاة بشكل كامل. أما أن يؤدي الفرض في المسجد مع الجماعة، فهذا إنقلاب جذري في حياته. حتى والده لم يكن يؤدي الفروض في المسجد أكثر الأحيان، كأكثر أهل الدمّام، بل كان يؤديها في المنزل غالباً، وذلك على عكس أهل الرياض والقصيم الذين لا تجوز الصلاة عندهم إلا في المسجد عندما لا يكون هناك عذر لتأديتها في المنزل سواء فرداً أو جماعة. نظر إليه أبوه وقال مبتسماً: «أشوفك صرت مطوع... وش هالطويرات بداركم!»، ثم وهو ينهض: «أنا قادم معك، إنتظرني حتى أتوضّأ».

في الطريق إلى المسجد، سأله أبوه مازحاً: «لم أكن أعلم أنك قد تطوّعت وأصبحت تصلّي مع الجماعة في المسجد... أم أن الرياض نجدتك وأصبحت نجدياً مخلصاً؟»، وضحك أبوه إحدى ضحكاته النادرة، ثم عاد إلى وقاره وهدوئه المعتادين وهو يقول بحزم: «إسمع يا ولدي... إن الله موجود في كل مكان، والتقوى في النية الطيبة والسلوك الطيب مع الناس، وليست في مجرد الركوع والسجود، فالصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء والمنكَر وسوء الأخلاق لا قيمة لها، والله

ليس بحاجة لها... صلِّ في المسجد أو المنزل أو أي مكان شئت، ليس المكان هو المهم، فقد جعل الله لنا الأرض كلها مسجداً وطهوراً، ولكن المهم هو الإخلاص في كل ما تفعل، هذه هي العبادة الحقة...». كانا قد وصلا المسجد عندما أتم والده جملته الأخيرة، حيث كان المؤذِّن قد أقام الصلاة، واصطفَّ الجميع خلف الإمام الذي كان يردِّد بروتينية: «استئو... تراصُو... ساوو صفوفكم، فإن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج...»، ثم كبَّر وبدأ بقراءة الفاتحة بصوت عذب رخيم.

عندما انتهت الصلاة، أخذ يبحث عن «أبو محمد» بعينيه، حتى وجده جالساً خلف الإمام مباشرة. وما أن بدأ المصلُّون في المغادرة، حتى وقف هشام وأخذ يصلِّي ركعتي السنة وعيناه لا تفارقان «أبو محمد» الذي كان يتسنَّن بدوره. كان أبوه في غاية التعجُّب من هذا «الطوع» الذي هبط على ولده فجأة، وهشام يعلم أن والده لم يكن مرتاحاً لذلك كثيراً. فوالده يرى أن تأدية فرض الله بإخلاص، وحُسن معاملة عباد الله، هما كل ما يحتاجه الفرد للسعادة في حياته الدنيا والآخرة. ولكنه لم يجد بُداً من مجاراة ولده، فصلَّى ركعتي السنة بسرعة وجلس يسبِّح ويحوقل ويهلِّل. ولكن هشام أطال في صلاته كي تتوافق مع صلاة أبو محمد، حتى إذا رآه قد سلَّم، سلَّم بدوره، ثم نظر إلى أبيه المندهش قائلاً: «أليس ذاك أبو محمد؟... أعتقد أنه من الواجب أن أسلِّم عليه...»، وانطلق دون إنتظار للإجابة التي يعرفها، وأقبل على أبو محمد وهو يحيِّيه بتقبيل رأسه قائلاً: «مسّاك الله بالخير يا عم...» عرفه أبو محمد هذه المرة بسرعة، وأخذ يسأله عن أحواله وأحوال الوالد، فأشار هشام إلى والده الذي كان قد نهض إستعداداً للمغادرة. أقبل

الرجلان على بعضهما، وتعانقا وهما يتلاومان على التقصير، ثم خرج الجميع معاً. وعندما حاذى الجميع منزل نورة، دعاهما أبوها إلى الدخول، فاعتذر الوالد، ولكن الرجل أصرَّ على تناول العشاء معه في الليلة القابلة. وبعد إلحاح وإصرار، وافق أبو هشام، فودَّعهما الرجل، وسارا في الطريق إلى المنزل صامتين. . . أحدهما تمتلىء عيناه بالحيرة، والآخر يفتر ثغره عن بسمة ماكرة.

ـ ٣٠ ـ

كانت أول مرة يدخل فيها منزل نورة بشكل علني ودون خوف، وأول مرة يتجاوز فيها حديقة المنزل إلى داخل المنزل. كل شيء كان يهمس بوجود نورة: النخلة عند الركن البعيد التي شهدت لقائهما الأول في منزلها، والحشائش المتفرِّقة في الحديقة كانت تقول أن نورة كانت هنا. . . جلست هنا. . . وقفت هنا. . . إنه الآن في منزلها، يجمعهما مكان واحد تتردَّد فيه أنفاس نورة، وعادت أيام البراءة تغازله من جديد.

لم يكن هناك الكثيرون على العشاء: هو ووالده، وأبو محمد وابنه الكبير محمد، وشخصان لا يعرفهما، وخطيب نورة الذي أخذ هشام يتفحَّصه والغيرة تنهشه من الداخل. كان شاباً وسيماً في حوالى الرابعة والعشرين من العمر، نحيف البنية، طويل القامة، يميل إلى السمرة، حاد القسمات، بشاربين دقيقين، ولحية مربَّعة صغيرة داكنة السواد تحتل طرف ذقنه. شعر هشام ببغض شديد نحوه، رغم أن الشاب كان في غاية الرقة ودماثة الخلق وهو يتحدث مع الجميع، وذلك ما أثار هشام أكثر.

وتحلَّق الجميع حول تبسي كبير من الأرز فوقه ذبيحة كاملة يعلوها

رأس الخروف، وحول الخروف تناثرت أحشاؤه من كبدة وكرشة وامعاء، وقد زُيِّن الأرُز بالزبيب والصنوبر وبعض البيض المسلوق المغروس في الأرُز. وحول الطبق الكبير، تناثرت أطباق صغيرة كثيرة تحتوي على القرصان والجريش والسلطة، بالإضافة إلى طبقين كبيرين من الفاكهة يحتلان طرفي المائدة. وعلى رؤوس الجالسين، وقف أحد أبناء أبو محمد يحمل اللبن الطازج في انتظار إشارة أحد الجالسين. وأثناء الطعام، أخذ أبو محمد يمازح نسيبه المقبل قائلاً: «عليك بالقرصان يا فهد، إنه من إعداد زوجة المستقبل. . . لعلك بعد أن تذوقه تعقل وتبطل عرس»، ثم يضحك الجميع ويعلِّق بعضهم: «عز الله إن العرس والزواج كله مشاكل، والحريم كلهن مشاكل، والحظيظ مَن عاش حراً»، «المشكلة أن أحداً لا يستطيع العيش بدونهن أو معهن. . . الله يسوِّي اللي فيه الخير» وتستمر التعليقات والضحكات والأيدي العارية تنهش الخروف، وتلقي بلحمه المجبول بالأرُز في الأفواه. ولم يتناول هشام على العشاء إلا القرصان، وبعض قطع اللحم التي كان أبو محمد يلقيها أمامه، وشعر أنها ألذ قرصان ذاقها في حياته، فقد مسَّتها يدا نورة. وكان الوالد أول المنتهين من الطعام، ولكنه لم ينهض، بل لبث جالساً يلعق يده من أثر الطعام، ويتشاغل بتقشير برتقالة، حتى أحس أن الجميع قد انتهوا، فنهض وهو يقول: «أنعم الله عليك يا أبو محمد، وكثر الله خيرك»، ثم نهض الجميع في أثره دفعة واحدة وهم يردِّدون الجملة ذاتها. ودارت فناجين القهوة المرة بالزعفران، وجاء دور البخور، الذي بدأ بعده الجميع بالمغادرة وهم يردِّدون الجملة ذاتها التي قالوها بعد الإنتهاء من الطعام. حاول أحد المدعوين أن يدعوهم إلى العشاء بدوره، ولكنهم رفضوا، وهو لم يصر، فانتهى كل شيء بعشاء أبو محمد.

وعندما استلقى على سريره تلك الليلة، كان في غاية السعادة والإثارة، فهو يعلم الآن أن نورة سوف تعلم بوجوده، وعليها أن تدبر الحيلة للقائه إن كانت لا تزال تحبه، أما هو فقد أدى ما عليه... وأغمض عينيه قريراً، بانتظار الغد وما يحمله.

ـ ٣١ ـ

كان في غرفة التلفزيون يطالع المجلات عصرية اليوم التالي للعشاء، حين سمع جرس الباب الخارجي. وبعد لحظات جاءت أمه وهي تقول بعجل: «عليك إخلاء الغرفة حالاً يا هشام، لقد جاءنا بعض الضيوف على غير إنتظار،... أم محمد ونورة، وغرفة النساء غير مرتَّبة» وخفق قلبه بشدة عند سماع إسمها، وانسلَّ إلى غرفته بسرعة، وأغلق الباب على نفسه. وما هي إلا لحظات حتى سمع صوت أمه مهلِّلاً ومرحِّباً، مختلطاً بصوت أم محمد مهنِّئاً بعودة هشام. كانت تضحك بوضوح وهي تقول: «والله ما درينا إلا البارحة من أبو محمد، فعذراً على القصور...»، ثم يأتي صوت أمه قائلاً: «ما بين الأهل قصور يا أم محمد...». لقد نجحت خطته إذاً... إنه يحس أن نورة هي التي ألحَّت على أمها بهذه الزيارة من باب الواجب، وإلا فهو يعلم أن أم محمد مثل أمه تماماً لا تحب الخروج من المنزل إلا للحاجة القصوى. وفتح الباب قليلاً، وألقى نظرة على الصالة، فلمح ظهر نورة، فهو يعرف ذلك القوام جيداً، وهي تدخل غرفة التلفزيون خلف أمها وأمه، وكان ذلك كافياً لسريان الحرارة في جسده رغم برودة شباط القارسة.

بقي في غرفته يتصفَّح بعض المجلات، وأذنه نحو الطرف الآخر من

المنزل. أحسَّ وكأنه سمع صوت حفيف ثوب عند غرفته، فألقى بالمجلة جانباً، واتَّجه نحو الباب. وجد تحت الباب ورقة مطويَّة بعناية. التقط الورقة، وفتح الباب بسرعة، فلمح نورة وهي عائدة إلى غرفة الجلوس. وقبل أن تبتلعها الغرفة، نظرت إليه على عجل وبجرأة عجيبة، بوجه امتلأ بالمساحيق، ومنحته إبتسامة جعلته يتأكَّد أنها ما زالت تحبه. فتح الورقة وقرأ: «الليلة، نفس المكان والزمان»، مزَّق الورقة وهو يبتسم، فقد عرفت خطته واستجابت لها، وخرج إلى الشارع، وأشعل سيجارة امتصَّها بلذة وسعادة بالغتين، ثم عاد إلى المنزل، وأخذ يعد الدقائق الثقيلة حتى يأتي المساء.

ـ ٣٢ ـ

بعد أذان العشاء مباشرة، خرج من المنزل متجهاً إلى منزل نورة، وحمد الله أن والده لم يكن موجوداً، وإلا ظنه خارجاً للمسجد، وربما يرافقه. لم يكن قادراً على الصبر رغم أن الموعد لم يحن بعد. اختار زاوية معتمة في أحد الأزقَّة المواجهة للمنزل، وأخذ يراقب ويدخِّن بعصبية. وبعد نصف ساعة تقريباً، أقبل أبو محمد قادماً من المسجد، ثم دخل المنزل وأغلق الباب وراءه. وبعد ربع ساعة تقريباً، فتح الباب عن فرجة صغيرة لا تكاد تبين. ألقى السيجارة وسحقها بعنف، وتقدَّم نحو الباب بأعصاب في غاية التوتُّر. ألقى نظرة حوله، ثم دفع الباب بعجل وأصبح في الداخل، وكانت رائحة نورة، المتسلِّلة من خلال رائحة عطر قوي، أول ما استقبله. جذبته من مرفقه بعجل كالعادة، وجرَّته إلى ركنها المعهود تحت النخلة. وقبل أن يجلسا، ألقت بنفسها عليه وأخذت تقبِّله

بحرارة وإندفاع لم يعهدهما. وعندما انفصلا، أخذ يتأمّلها تحت أنوار خافتة قادمة من بعيد، ليرى أثر الأشهر الخمسة فيها، وهل تغيَّرت أم أنها غير قابلة للتغيُّر ككل شيء وجده في الدمّام. لقد ازداد فوران جسدها، وأصبح أكثر إكتنازاً. كل شيء فيها كان قابلاً للتكوُّر قد تكوَّر واكتنز. وشعرها الذي كانت تجدله ضفيرتين طويلتين، تركته حراً طليقاً ينساب على ظهرها وأعلى ردفيها. كل شيء فيها يقول إنها أصبحت كاملة الأنوثة، مثيرة لكل شهوة. شيء واحد فيها أشعره بالضيق لسبب لا يدريه، فقد كانت تضع أحمر شفاه وبعض المكياج على وجهها، وعطراً مثيراً خلف أذنيها. لقد تغيَّرت نورة كثيراً خلال غيابه، ولم يعجبه هذا التغيُّر. أليس من العجيب أن يتغيَّر ما لا نريد أن يتغيَّر، ويثبت ما نريد أن يتغيَّر؟... لم تكن هذه هي نورة التي قبَّلها أول مرة في غرفته، بل هي أقرب إلى سوير الآن، بل هي سوير. ولكنه لا يريد سوير الآن بل يريد نورة.

وعندما جلسا، ألقت برأسها على صدره وأخذت تقبِّل كل جزء من وجهه تصل إليه شفتاها، وهي تتحدَّث معبِّرة عن شوقها وحبِّها، وتلك الأيام التي ضاعت من عمرها خلال غيابه، وكان هو صامتاً طوال الوقت. ثم انفصلت عنه وهي تضحك بهمس، دون أن تغطِّي فاها بكفها كالعادة، تاركة بياض أسنانها الصغيرة المنفرجة يلوح في الظلام، وتقول:

ـ حين رأيتك اليوم بشكلك الجديد، كدت ألقي بنفسي عليك ولتكن العواقب ما تكون... لم أكن أعلم أن الشارب يجعلك بهذا الجمال...

ابتسم لتعليقها، وأخذته نشوة الإطراء، وقال:

ـ الجمال للنساء، والوسامة للرجال...

ـ سمِّه ما شئت... أنت جميل. بل أنت مثير.

ثم ألقت بنفسها عليه وأخذت تقبِّله بعنف وحرارة... لشد ما تغيَّرت يا نورة!... من أين تعلَّمت التقبيل بهذه الطريقة؟ كان يحدِّث نفسه بذلك، وشفتاها لا تزالان تجوسان خلال وجهه. وعندما انفكَّ الاشتباك للحظات، قالت له وهي مبهورة الأنفاس:

ـ بودِّي أن أبقى معك طول العمر.

ـ وماذا بشأن فهد؟... خطيبك؟

قال وقد زوى ما بين عينيه. واختفت الإبتسامة من على وجهها لأول مرة منذ لقائهما، ونكست رأسها إلى الأرض، وأخذت تعبث ببعض الحشائش بيدها وهي تقول بصوت خفيض جداً:

ـ إذاً فقد عرفت...

ـ وهل يمكن أن تُخفى مثل هذه الأشياء؟

وساد صمت قصير، كان ينظر إليها خلاله، وكانت هي لا تزال تعبث بالحشائش منكِّسة الرأس، ثم قالت:

ـ كان لا بد أن أتزوَّج... فأنا الآن في حدود السابعة عشرة، وليس من الممكن إنتظارك حتى تتخرَّج من الجامعة حتى نتزوَّج... وحتى لو أردت ذلك، فإن الوالد لن ينتظرني وقد كثر الخطّاب، ولو علم بعلاقتنا لذبحني.

ثم صمتت قليلاً وأردفت:

ـ والحقيقة أن فهد شاب ممتاز، رقيق ولطيف، ولديه وظيفة

ممتازة، وسيتركني أكمل تعليمي... لم أجد أفضل منه زوجاً.

ثم مستدركة:

- عداك بالطبع، ولكننا لا يمكن أن نتزوَّج.

وأحس كأن سكيناً انغرزت في خاصرته عندما انتهت جملتها الأخيرة، وشيء من الضآلة ينتابه من حيث لا يشعر. لقد كان كلامها سليماً، لقد نضجت نورة فعلاً ولم تعد نورة صاحبة اللبن... فمصيرها فعلاً ليس بيدها، وحتى مصيره هو. فلو أراد الزواج، لما كان حراً تماماً في اختيار مَن يريد، هناك العادات والتقاليد، ومَن يمكن أن يتزوَّج ومَن لا يمكن. ولو تمرَّد على كل ذلك، لكان مصيره العزلة والقطيعة من كل أقاربه، بالإضافة إلى الألم الذي سوف يسبِّبه للجميع، وهو لا يريد أن يسبِّب ألماً لأحد، خاصة والديه. وخطرت على باله حكاية قديمة تذكَّرها فجأة خلال حديثه مع نورة.

كان دون الثانية عشرة بقليل، وكان في رحلة يوم جمعة مع والديه وبعض الأُسَر الأخرى، إلى مزرعة من مزارع النخيل المنتشرة حول الدمّام. كان الرجال يلعبون البلوت، ويتناقشون في الأحداث الساخنة في سوريا والعراق تلك الأيام، والراديو لا يفارقهم، وماذا سيفعل جمال. وكانت النساء في جانب آخر من المزرعة يغنِّين ويرقصن ويضحكن، فيما كان الأطفال يلعبون في المزرعة بين الطرفين. يذكر أنه ترك كل الأطفال، وأخذ يلعب مع ميادة، إبنة صديق والده، «حمود الشحام». كانت في حوالى العاشرة، في غاية الجمال، كدمية من تلك الدمى الثمينة التي كان يراها في المتاجر الفاخرة في شارع الأمير خالد في الخُبَر: كستنائية الشعر طويلته، عسلية العينين، بيضاء البشرة مع حمرة

على الخدين تتوهَّج مع أقل حركة، قرمزية الشفتين، دقيقة الملامح جداً، وغمازتان تبرزان كلما ضحكت أو ابتسمت. في طريق العودة إلى المنزل، جاء الحديث عن الفتاة عرضاً حين سألته أمه إن كان قد «انبسط» في الرحلة. فذكر أنه كان يلعب طوال الوقت مع ميادة. فابتسمت أمه وقالت: «فليحرسها الله، سوف تكون آية في الجمال عندما تكبر، أخذت أحلى ما في والديها... جمال أهل الشام ورشاقة أهل نجد». فقال ببراءة: «سأتزوَّجها عندما أكبر...» وهنا تدخَّل أبوه قائلاً: «لا يا ولدي... ليست من مواخيذنا» لم يفهم، فقال: «لم أفهم... يعني إيش؟»، «يعني فيه ناس تأخذ من بعض، وفيه ناس لا تأخذ... هذولا غير وهذولا غير»، ولم يفهم، وقال: «ولكن أبوها حمود الشحام من أعز أصدقائك، وأمها من أعز معارفك يا أمي»، «ولو...»، قال أبوه، «هذا شيء وذاك شيء آخر. الزواج شيء والصداقة شيء آخر». ولم يفهم أيضاً، فقال: «ولكن قريبنا جار الله العابر تزوَّج أميركية عندما كان في أميركا...»، «أن تتزوَّج أميركية غير... هذا شيء وذاك شيء» ولم يفهم أيضاً. وعندما كبر فهم كل شيء. ولكنه ما زال لا يفهم.

والحقيقة أن نورة من «مواخيذهم» ولكنه لا يستطيع ولا يريد الزواج الآن، ووالدها لا يمكن أن ينتظره حتى يتخرَّج فيما لو خطبها أهله له الآن. لقد كانت على حق تماماً، ولكنه يشعر بالضآلة تحتويه.

- هشام... هشام... أين ذهبت؟

كان ذلك صوت نورة مرجعاً إياه إلى الواقع من جديد. التفت إليها مبتسماً وهو يقول:

- وأين يمكن أن أذهب وأنا معك؟!

وطبع قبلة سريعة على شفتيها، وهو يهم بالنهوض قائلاً:

ـ لقد تأخر الوقت... آن أوان الذهاب.

ثم وهو ينهض:

ـ على فكرة... أنت بدون مكياج أجمل.

وسار نحو الباب الخارجي، فيما بقيت نورة جالسة على الأرض الباردة وهي تنظر إليه باستغراب وذهول وترتعد برداً.

ـ ٣٣ ـ

إتجه إلى الحمام مباشرة بعد دخوله المنزل، وأزال آثار الروج من على وجهه، ثم اتجه إلى غرفته مباشرة حيث استلقى على السرير وأخذ يفكِّر... غريبة هي الدنيا، أهذا هو اللقاء الذي طالما انتظره؟ إنه لا يشعر بأية سعادة بعد اللقاء، بل لا يشعر بأي شيء على الإطلاق. إنه يحس أن كل الحب الذي كان يحرِّكه قد خفت فجأة... لا... ما زال يحبها، ولكنه ليس ذاك الشيء الذي كان يشعر به... هناك شيء قد تغيَّر وهو غير قادر على تفسيره. إنها الآن أجمل وأنضج، وهو يشتهيها بعنف، كما يشتهي سوير ورقية وأكثر، ولكنه لن يفعل معها ما فعل مع سوير ورقية مهما حدث، فهي ليست سوير ولا رقية. أيكون ذلك بسبب خطبتها؟ ربما. ولكن لا ذنب لها في هذه الخطبة، فالحب لا يعني الزواج، كما أن الزواج لا يعني الحب بالضرورة. الحب شعور، والزواج ترتيب، وليس بالضرورة أن يلتقيا. هل أنه ما عاد يحبها؟! بل هو يحبها ولكن بطريقة مختلفة، ولكنه يشتهيها الآن. ربما، لا يدري، ولكن ما

هو الفرق بين الشهوة والحب، وهل يمتزجان؟... لا يدري... بل يدري. الحب إحساس والشهوة رغبة. ولكن ما الفرق بين الإحساس والرغبة؟... ولم يستطع التفكير أكثر، فنهض وانضم إلى والديه في غرفة التلفزيون حيث كانت أم كلثوم تغني: «هل رأى الحب سكارى. سكارى. سكارى مثلنا...».

ـ ٣٤ ـ

مرَّت أيام الإجازة مملَّة بشكل معاكس تماماً لما كان يتوقَّع. والغريب أنه اشتاق للرياض كثيراً، شيء لم يكن يتوقَّعه أبداً وهو هناك. تحوَّلت جلسات الشلة إلى ملل لم يعد يستطيع احتماله، ولم تعد نورة التي تثير شوقه بل أصبح يخاف عليها من شهوته، وأصبح البحر مثيراً للقرف بروائحه المنتنة التي بدا كأنه يشمها لأول مرة، واكتشف أنها لا تطاق. ما الذي حدث؟... هل أننا لا نقدِّر الأشياء إلا عندما نفقدها، وتصبح بلا قيمة عندما تكون ملك يميننا؟ هل يجب أن نفقد الأشياء كي ندرك قيمتها؟... ربما... ربما. لا يدري.

كان يذهب إلى الشلة بعض الأحيان، ولكنه سرعان ما ينصرف ويتسكَّع في شارع الحب وهو يتابع الأرداف المكتنزة المترجرجة، أو شارع الأمير خالد في الخُبَر وهو يتابع أرداف الأميركيات الصغيرة المكوَّرة، المحشورة بالبنطلونات الضيقة، وتثور أنفاسه وهو يرى حمرة أفخاذهن العارية المتمرِّدة على الشورت الساخن، رغم برودة الجو. ثم انقطع عن الشلة تماماً، فقد شجَّعه غياب عدنان عنها على التغيُّب عنها هو أيضاً. ذهب ذات مرة إلى منزل عدنان، ولكنه لم يجده، فأزجى

ممتازة، وسيتركني أكمل تعليمي... لم أجد أفضل منه زوجاً.

ثم مستدركة:

- عداك بالطبع، ولكننا لا يمكن أن نتزوَّج.

وأحس كأن سكيناً انغرزت في خاصرته عندما انتهت جملتها الأخيرة، وشيء من الضآلة ينتابه من حيث لا يشعر. لقد كان كلامها سليماً، لقد نضجت نورة فعلاً ولم تعد نورة صاحبة اللبن... فمصيرها فعلاً ليس بيدها، وحتى مصيره هو. فلو أراد الزواج، لما كان حراً تماماً في اختيار مَن يريد، هناك العادات والتقاليد، ومَن يمكن أن يتزوَّج ومَن لا يمكن. ولو تمرَّد على كل ذلك، لكان مصيره العزلة والقطيعة من كل أقاربه، بالإضافة إلى الألم الذي سوف يسبِّبه للجميع، وهو لا يريد أن يسبِّب ألماً لأحد، خاصة والديه. وخطرت على باله حكاية قديمة تذكَّرها فجأة خلال حديثه مع نورة.

كان دون الثانية عشرة بقليل، وكان في رحلة يوم جمعة مع والديه وبعض الأُسَر الأخرى، إلى مزرعة من مزارع النخيل المنتشرة حول الدمّام. كان الرجال يلعبون البلوت، ويتناقشون في الأحداث الساخنة في سوريا والعراق تلك الأيام، والراديو لا يفارقهم، وماذا سيفعل جمال. وكانت النساء في جانب آخر من المزرعة يغنِّين ويرقصن ويضحكن، فيما كان الأطفال يلعبون في المزرعة بين الطرفين. يذكر أنه ترك كل الأطفال، وأخذ يلعب مع ميادة، إبنة صديق والده، «حمود الشحام». كانت في حوالى العاشرة، في غاية الجمال، كدمية من تلك الدمى الثمينة التي كان يراها في المتاجر الفاخرة في شارع الأمير خالد في الخُبَر: كستنائية الشعر طويلته، عسلية العينين، بيضاء البشرة مع حمرة

على الخدين تتوهَّج مع أقل حركة، قرمزية الشفتين، دقيقة الملامح جداً، وغمازتان تبرزان كلما ضحكت أو ابتسمت. في طريق العودة إلى المنزل، جاء الحديث عن الفتاة عرضاً حين سألته أمه إن كان قد «انبسط» في الرحلة. فذكر أنه كان يلعب طوال الوقت مع ميادة. فابتسمت أمه وقالت: «فليحرسها الله، سوف تكون آية في الجمال عندما تكبر، أخذت أحلى ما في والديها... جمال أهل الشام ورشاقة أهل نجد». فقال ببراءة: «سأتزوَّجها عندما أكبر...» وهنا تدخَّل أبوه قائلاً: «لا يا ولدي... ليست من مواخيذنا» لم يفهم، فقال: «لم أفهم... يعني إيش؟»، «يعني فيه ناس تأخذ من بعض، وفيه ناس لا تأخذ... هذولا غير وهذولا غير»، ولم يفهم، وقال: «ولكن أبوها حمود الشحام من أعز أصدقائك، وأمها من أعز معارفك يا أمي»، «ولو...»، قال أبوه، «هذا شيء وذاك شيء آخر. الزواج شيء والصداقة شيء آخر». ولم يفهم أيضاً، فقال: «ولكن قريبنا جار الله العابر تزوَّج أميركية عندما كان في أميركا...»، «أن تتزوَّج أميركية غير... هذا شيء وذاك شيء» ولم يفهم أيضاً. وعندما كبر فهم كل شيء. ولكنه ما زال لا يفهم.

والحقيقة أن نورة من «مواخيذهم» ولكنه لا يستطيع ولا يريد الزواج الآن، ووالدها لا يمكن أن ينتظره حتى يتخرَّج فيما لو خطبها أهله له الآن. لقد كانت على حق تماماً، ولكنه يشعر بالضآلة تحتويه.

- هشام... هشام... أين ذهبت؟

كان ذلك صوت نورة مرجعاً إياه إلى الواقع من جديد. التفت إليها مبتسماً وهو يقول:

- وأين يمكن أن أذهب وأنا معك؟!

وطبع قبلة سريعة على شفتيها، وهو يهم بالنهوض قائلاً:

ـ لقد تأخر الوقت... آن أوان الذهاب.

ثم وهو ينهض:

ـ على فكرة... أنت بدون مكياج أجمل.

وسار نحو الباب الخارجي، فيما بقيت نورة جالسة على الأرض الباردة وهي تنظر إليه باستغراب وذهول وترتعد برداً.

ـ ٣٣ ـ

إتجه إلى الحمام مباشرة بعد دخوله المنزل، وأزال آثار الروج من على وجهه، ثم اتجه إلى غرفته مباشرة حيث استلقى على السرير وأخذ يفكِّر... غريبة هي الدنيا، أهذا هو اللقاء الذي طالما انتظره؟ إنه لا يشعر بأية سعادة بعد اللقاء، بل لا يشعر بأي شيء على الإطلاق. إنه يحس أن كل الحب الذي كان يحرِّكه قد خفت فجأة... لا... ما زال يحبها، ولكنه ليس ذاك الشيء الذي كان يشعر به... هناك شيء قد تغيَّر وهو غير قادر على تفسيره. إنها الآن أجمل وأنضج، وهو يشتهيها بعنف، كما يشتهي سوير ورقية وأكثر، ولكنه لن يفعل معها ما فعل مع سوير ورقية مهما حدث، فهي ليست سوير ولا رقية. أيكون ذلك بسبب خطبتها؟ ربما. ولكن لا ذنب لها في هذه الخطبة، فالحب لا يعني الزواج، كما أن الزواج لا يعني الحب بالضرورة. الحب شعور، والزواج ترتيب، وليس بالضرورة أن يلتقيا. هل أنه ما عاد يحبها؟! بل هو يحبها ولكن بطريقة مختلفة، ولكنه يشتهيها الآن. ربما، لا يدري، ولكن ما

هو الفرق بين الشهوة والحب، وهل يمتزجان؟... لا يدري... بل يدري. الحب إحساس والشهوة رغبة. ولكن ما الفرق بين الإحساس والرغبة؟... ولم يستطع التفكير أكثر، فنهض وانضم إلى والديه في غرفة التلفزيون حيث كانت أم كلثوم تغني: «هل رأى الحب سكارى. سكارى. سكارى مثلنا...».

ـ ٣٤ ـ

مرَّت أيام الإجازة مملَّة بشكل معاكس تماماً لما كان يتوقَّع. والغريب أنه اشتاق للرياض كثيراً، شيء لم يكن يتوقَّعه أبداً وهو هناك. تحوَّلت جلسات الشلة إلى ملل لم يعد يستطيع احتماله، ولم تعد نورة التي تثير شوقه بل أصبح يخاف عليها من شهوته، وأصبح البحر مثيراً للقرف بروائحه المنتنة التي بدا كأنه يشمها لأول مرة، واكتشف أنها لا تطاق. ما الذي حدث؟... هل أننا لا نقدِّر الأشياء إلا عندما نفقدها، وتصبح بلا قيمة عندما تكون ملك يميننا؟ هل يجب أن نفقد الأشياء كي ندرك قيمتها؟... ربما... ربما. لا يدري.

كان يذهب إلى الشلة بعض الأحيان، ولكنه سرعان ما ينصرف ويتسكَّع في شارع الحب وهو يتابع الأرداف المكتنزة المترجرجة، أو شارع الأمير خالد في الخُبَر وهو يتابع أرداف الأميركيات الصغيرة المكوَّرة، المحشورة بالبنطلونات الضيقة، وتثور أنفاسه وهو يرى حمرة أفخاذهن العارية المتمرِّدة على الشورت الساخن، رغم برودة الجو. ثم انقطع عن الشلة تماماً، فقد شجَّعه غياب عدنان عنها على التغيُّب عنها هو أيضاً. ذهب ذات مرة إلى منزل عدنان، ولكنه لم يجده، فأزجى

بعض الوقت مع ماجد الذي شكا له من التغيُّرات التي طرأت على عدنان مؤخراً، وتمنَّى لو أنه بقي على حاله أيام الرسم. أخبره أن عدنان أحرق كل لوحاته، وهو يقضي في المسجد أوقاتاً طويلة، ولا يشاهد التلفزيون، ووالده لا يدري ماذا يفعل إزاء هذا السلوك الغريب، فقَد حاول معرفة سر هذا السلوك الغريب منه، ولكن عدنان ردَّ بحدَّة غير معهودة: «كنا مع الشيطان فلم يعجبكم، وأصبحنا مع الله ولا يعجبكم... ماذا تريدون. أتنهون عبداً أن يقول ربي الله!!». شرب الشاي مع ماجد، ثم غادر دون أن يأتي عدنان، ولم يعاود زيارته مرة أخرى.

ذات مرة وجد نفسه أمام بنك هولندا العام، فحدَّثته نفسه بالسؤال عن زكي ومرزوق، ولكنه منع نفسه في آخر لحظة، ولعل نفسه الخائفة هي التي منعته. ولم يرَ نورة بعد مقابلتهما الأولى إلا مرة واحدة بإلحاح منها، لقد كان خائفاً عليها من نفسه بعد أن طغت الشهوة. وفي المقابلة الثانية سمحت له أن يجوس في جسدها كما يشاء، وأن يفعل أشياء ما كانت تسمح له في السابق بفعلها، وفي لحظات معيَّنة كانت على إستعداد لمنحه كل شيء... ولكنه كان يمنع نفسه في اللحظات الأخيرة من إستغلال الفرصة وتجاوُز حدود معيَّنة، رغم طغيان الرغبة الحارقة. كان هناك إحساس دفين بأنه مسؤول عنها وعن إخراجها من عالَم البراءة الذي كانته. لم يكن يشعر بمثل ذلك مع رقية، ومع سوير كان يحس بوخزات في الداخل، ولكنه لم يحس بالصراع في داخله إلا مع نورة. ورغم أنه كان يحاول بعض الأحيان إقناع نفسه بإهتبال الفرصة السانحة، وتبرير ذلك أنه لو لم يفعل شيئاً لربما فعله شخص آخر، إلا أنه كان يشعر بالحقارة عندما يفكِّر بذلك... ولكنه غير واثق من نفسه. فربما

فعلها لو قابلها بعد ذلك. لذلك كان قراره الإبتعاد عنها نهائياً، وهو ما فعله بقية أيام الإجازة. كانت ترسل إليه الرسائل من تحت الباب، أو مع أختها بدرية، ولكنه لا يستجيب. وفي آخر أيام الإجازة أرسلت إليه رسالة تستحلفه بإسم الحب الذي بينهما أن يبيِّن لها سبب ابتعاده، ولكنه أهمل الرسالة، وهو يعد الساعات التي تفصله عن السفر، وتريحه من هذه المعاناة وذاك السأم المسيطر.

وفي صبيحة يوم الجمعة، يوم السفر، كان في غاية السعادة، تناول إفطاره على عجل، وقبَّل أمه على عجل، التي أعطته مبلغاً من المال كالعادة. وفي السيارة في الطريق إلى محطة القطار، أعطاه والده مبلغاً كبيراً من المال لسداد دينه لأحمد، ودفع إيجار المنزل، رغم أن والده لم يكن محبِّذاً لفكرة سكنه المنفرد، وحاول إقناعه بالعدول عنها حتى آخر لحظة، ولكنه أصر، فلم يجد والده غير القبول. واستقل القطار عائداً إلى مدينة كان يعتقد أنه لن يستسيغها على الإطلاق، فإذا هي تأسره في خمسة أشهر، وينسى مدينة أخرى عاش فيها كل عمره... فللرياض سحر خاص لا يعرفه إلا مَن عاش فيها، رغم أنها لا تُبدي إلا الجفاف والخشونة للقادم إليها لأول مرة، مثل إعرابية خشنة تقابلك بالصد والجلافة أول أمرها، ولكنها تمنحك كل الجمال والعشق والرقة عندما تحبها وتحبك.

ـ ٣٥ ـ

كان للرياض طعم مختلف هذه المرة. حتى غبارها الأحمر الدقيق كانت له رائحة خاصة هذه المرة... كان لذيذاً بشكل مثير، وكأنه ثلوج موسكو البيضاء التي طالما تغنَّى بها أدباء روسيا. ولكن غبار الرياض

أكثر دفئاً. لم يكن الغبار كثيراً هذه المرة، بل يكاد يكون معدوماً، فالأمطار قد خنقته قبل أن ينتشر. ولكنه سرعان ما يعود مع أول شعاع للشمس، فشمس الرياض حارقة في صيفها وشتائها. ولكنها جميلة في كل حال، بل كل شيء في الرياض أصبح جميلاً ولذيذاً الآن.

كان أول ما فعل ليلة وصوله هو أن دفع دينه لأحمد بشكل عاجل، ثم ذهب إلى عزبة الشباب. اتفق هو وعبدالمحسن على الإنتقال إلى منزلهما الجديد في اليوم التالي، ثم عاد إلى غرفته وأخذ يجمع حاجياته البسيطة، ثم تلصَّص للمرة الأخيرة على منزل سوير وعليان... كانت العتمة تلف المكان، ولم يكن هناك بصيص نور في البيت يوحي بوجود أحد... أين يمكن أن يكونا؟ وقد تحوَّل السطح إلى مستنقع من مياه الأمطار المتجمِّعة. دعته نفسه للذهاب وطرق الباب ليرى إن كان هناك أحد، ولكنه منع نفسه، ثم نسي الموضوع نهائياً في غمرة الحماس بالإنتقال إلى المنزل الجديد.

عصر اليوم التالي، وبعد أن تناول الغداء الأخير مع خاله وأبنائه، خرج هو وعبدالرحمن واستأجرا سيارة «وانيت»، حملا فيها أغراضه الخاصة، ثم عرَّجا على عبدالمحسن وحملا أغراضه، واتَّجه الجميع إلى البيت الجديد. كان هناك جمع من الأطفال في الشارع في استقبالهم عند البيت الجديد، وعيون متلصِّصة لا يرونها خلف الأبواب والنوافذ المغلَقة تراقب حركاتهم وسكناتهم، وإن كانوا يحسُّون بحرارة نظراتها. وفيما هم منشغلون بنقل الحاجيات، أتاهم أحد الجيران، وكان النفور واضحاً على وجهه النحيل الذي أكله الجدري، ناصحاً ومحذِّراً وهو يقول مباشرة وبحدَّة، ودون أن يلقي التحية: «يجب أن تعلموا أن السكان هنا من العائلات... أرجو ألا نرى منكم إلا كل خير، ولا نسمع إلا كل

طيِّب، وقد أعذر مَن أنذر...»، قال جملته الأخيرة وهو يهز سبابته في وجه الجميع. أقبل عليه عبدالمحسن بوجه باسم، وبلهجة ودودة قائلاً: «إن شاء الله ما تشوفون إلا كل خير، فنحن أبناء عائلات، ولنا حرمات نخشى عليها أيضاً...»، وهدأت حدَّة الرجل، ثم عاد إلى منزله وهو يغمغم: «على خير... على خير إن شاء الله»، واختفى وراء الباب الفولاذي الصغير.

لم ينتهوا من إنزال الحاجيات ووضعها في أماكنها إلا قبيل العشاء بقليل، وقد حرصوا على أداء صلاة المغرب في المسجد القريب، وحرصوا على أن يراهم أهل الزقاق وهم يؤدون الصلاة. ثم ذهبوا واشتروا بعض الأواني والحاجيات الضرورية، ثم أعد لهم عبدالمحسن أول إبريق شاي في العزبة الجديدة، إحتساه الجميع بلذة غير عادية.

ـ ٣٦ ـ

تبيَّنت له حكمته في اختيار الغرفة العليا، فقد كان أصحاب ومعارف عبدالمحسن أكثر مما كان يتوقع. يأتون تقريباً في كل يوم وكل وقت، ودون سابق إنذار: في الظهر، وبعد العصر والمغرب والعشاء وآخر الليل، مما جعل عبدالمحسن غير قادر على الإستذكار الجاد فعلاً. واكتشف عبدالمحسن أنه لا يحب دراسة الهندسة في أعماقه، بل هو يفضِّل الإقتصاد أو إدارة الأعمال، فكان وجود الأصدقاء في كل حين تبريراً له لعدم إستذكار مواد يكرهها. وبعد فترة قرَّر ترك كلية الهندسة نهائياً، ولم يفكِّر في أي كلية أخرى، بل قرَّر البحث عن بعثة في أي مجال إلى أميركا. وتحوَّلت أميركا إلى هاجس لدى عبدالمحسن،

يؤججه تلك الأحاديث التي يسمعها من أصحابه ومعارفه القادمين من هناك، حيث الحياة بزخمها، والدنيا بأسرها. وترك عبدالمحسن كل شيء له علاقة بالدراسة، وتفرَّغ لأصحابه، وأخذ يسعى للتعرُّف على أشخاص قادرين على تحقيق حلمه في الذهاب إلى أميركا.

لم يكونا قد أثّثا المجلس بعد، لذلك كان الزوار يقضون وقتهم في غرفة عبدالمحسن، يلعبون البلوت ويثرثرون في السياسة والجنس والدين. وكان هشام ينضم إليهم بعض الأحيان، ولكنه يترك ساعة يشاء، وينزل ساعة يشاء، والبركة في تلك الغرفة المنعزلة التي منحته حرية الإختيار. وكان أكثر الزوار تردُّداً على العزبة الجديدة، محمد ودعيس من العزبة القديمة، اللذان يكادان يكونان من قاطني المنزل لكثرة تردُّدهما وبقائهما. وقد عرضا ذات مرة الإنضمام إلى هشام وعبدالمحسن في عزبة واحدة، خاصة وأن المنزل يتَّسع للجميع، كما أنهما لم يكونا مرتاحين كثيراً مع الشخصين اللذين حلا محل عبدالمحسن ومهنا في العزبة، فهما بالكاد يعرفانهما، ولكن إرتفاع الإيجار ألجأهما إلى مرافقة مَن لا يعرفان إلا أنهما من الجماعة. ولكن هشام رفض تماماً، رغم حبه لمحمد ودعيس، فهويريد أن يدرس مهما كلَّف الأمر، وزيادة أفراد العزبة قد تعيقه عن ذلك، بالإضافة إلى أنهم مراقبون من الجيران وهو لا يريد أية مشاكل. كان عبدالمحسن ميالاً للقبول، ولكن هشام كان حاسماً في هذه المسألة بشكل غير قابل للجدل.

- ٣٧ -

لم تكن غرفته الجديدة برحابة غرفته القديمة، بل كانت ضيقة بالفعل، ولكنها كانت أكثر دفئاً وحميمية، فقد كانت غرفته في بيته وليس

بيت خاله. ويكفي أنه أخذ راحته بالكامل في هذه الغرفة، فانتشرت صوَر ماركس وإنجلز ولينين وغيفارا وهوشي منه ومارلين مونرو وجين مانسفيلد وبريجيت باردو وسعاد حسني وشادية وهند رستم ونادية لطفي على جدران الغرفة، أما أكثر الصوَر إنتشاراً في الغرفة فقد كانت صوَر «أبو علي»، وهو الإسم الذي كان يطلقه على أدولف هتلر، بعد أن قيل له إن الناس كانوا يسمُّونه بهذا الإسم أيام الحرب «العظمى». كان يكن إعجاباً غريباً بهتلر، رغم أنه لا يؤمن بأفكاره، ولكنه كان يحبه بوجه من الوجوه. قرأ «كفاحي» عدة مرات، ورغم أن الأفكار لم تعجبه، إلا أنه لم يتوقَّف عن قراءته بين الحين والحين. هل كان يؤمن بهذه الأفكار فعلاً ولكنه لا يريد الإعتراف بذلك، أو أنه يجد أن يسارياً مثله ليس له أن يؤمن بمثل هذه الأفكار الفاشية؟... ربما. فهو لا يدري، ولعله لا يريد أن يدري. يكفيه أنه يحب أبو علي ويؤمن بكارل ماركس ويعشق أرنستو تشي غيفارا. ويموت رغبة في جين مانسفيلد...

ومرَّت أيام العزبة الجديدة عادية لا جديد فيها، عدا الأعباء الجديدة التي لم يكن هشام متعوِّداً عليها. فقد اتَّبع في العزبة الجديدة نظام العزبة القديمة نفسه: يتولَّى عبدالمحسن البيت يوماً، ويتولاه هشام يوماً آخر. أما المستلزمات والمؤن، فكان الإثنان يشتركان في شرائها لكل الأسبوع بعد عصر الجمعة من المقيبرة حيث الأسعار أرخص. وكانت مسألة العناية بشؤون البيت من الأمور الجديدة على هشام، ولكن لم يكن هناك أي مشاكل، إلا أن الطبخ كان ثقيلاً على نفسه، رغم أنهم لا يطبخون إلا الكبسة للغداء أو البيض المقلي أو التونة للعشاء. ولكنه استطاع أن يصبح طباخاً ماهراً بمساعدة عبدالمحسن. وطوَّر الإثنان تقليداً جديداً في العزبة، وهو الذهاب بعد صلاة العشاء من كل يوم خميس إلى شارع

«الوزير» الفاخر في وسط البلد، حيث يتناولان الطعام في أحد المطاعم الفاخرة هناك، وغالباً ما يكون مكوّناً من شوربة العدس، ولحم مشوي، وطبقي حمص ومتبّل، بالإضافة إلى زجاجتي كولا، ثم يختمان الطعام بفنجاني قهوة تركية. ثم يذرعان الشارع ذهاباً وإياباً، وهما يتفرّجان على المتاجر الفاخرة، ويتابعان أجمل نساء يمكن أن يرين في الرياض: يملآن أنفيهما بالأريج المثير، ويدقّقان النظر في تفاصيل الأجسام الرشيقة الملفوفة بعباءات شفافة تستر شيئاً، ويتأمّلان أملح وجوه يمكن أن تجدها، وقد زادها الحجاب الشفاف ملاحة على ملاحة، ويتعجّبان كيف تجتمع نحافة الخصور وثقل الأرداف وتمرّد الصدور في جسد واحد. وبعد أن يتعبا من التجوال ومتابعة النساء، يتّجهان إلى مكتبة كبيرة في الشارع، ويشتريان ما يجدانه من صحف ومجلات، ثم يستقلان خط البلدة عائدين إلى المنزل، حيث يقضيان بقية الليل في شرب الشاي، وتدخين السجائر، والإستماع إلى الأغاني، ثم يأويان إلى غرفتيهما، وكل منهما يحلم بنساء شارع الوزير، ويحس أنه قد امتلك العالَم بأسره.

كان تقليد الخميس يتغيّر عندما يكون هناك بديل أفضل. فبعض الأحيان، ثم أصبح أكثر الأحيان، كان بعض أصحاب عبدالمحسن يأتون للسهرة، فيلعبون البلوت ويتحدّثون. ولكن ذلك لم يمنعهما تماماً من الذهاب إلى شارع الوزير، فقد كانا يذهبان ولكنهما يعودان باكراً لإستقبال «الشباب». ولم يكن هشام ينضم إليهم إلا حين يكون محمد ودعيس وعبدالرحمن ضمن الحاضرين، فقد بقي متحفّظاً من كثرة المعارف، وكان يتعجّب كيف يستطيع عبدالمحسن أن يتحمّل كل هذه الإجتماعات وكل هؤلاء الأصحاب. أما ما كان يمنعهم فعلاً من الذهاب إلى شارع الوزير تماماً، فهو عندما يفاجأهم حمد بواحدة من زياراته

الجميلة، وهو يحمل كيساً ورقياً بداخله زجاجة من العرق الصافي. كانا يغلقان الباب ولا يسمحان لأحد بالدخول مهما كان، وبعد مدة، سمحا لمحمد ودعيس بالإنضمام للشلة. وقد فوجىء أن محمد ودعيس يشربان أيضاً، وكان تعليقه عندما رآهما يشربان أول مرة: «ياما تحت السواهي دواهي...»، فكان رد فعل محمد أن ألقى بالكأس في فيه دفعة واحدة، وقد كانت ممتلئة إلى النصف، ثم أخذ يضحك بحبور وهو ينظر إلى هشام. لم يكن حمد يجلس معهم كل الأحيان، فقد كانت له شلته الخاصة، ولكنه أصبح يزوّدهم بالعرق بعد أن يجمعوا ثمنه بينهم.

كان هشام مسؤولاً عن الثلج والمازة، التي لم تكن تتجاوز بعض الخيار والطماطم والمكسّرات، فيما كانت مهمة عبدالمحسن إعداد الكبسة التي يعد من خبرائها. ويجلس الجميع في غرفة عبدالمحسن حيث يشربون ويستمعون إلى طلال مداح ومحمد عبده وطارق عبدالحكيم. يستمعون ولا يستمعون، إذ تزداد حدة النقاشات السياسية مع الكؤوس الأولى. وبعد الكأس الرابعة، كانوا يستمعون إلى أم كلثوم أو عبدالوهاب أو عبدالحليم أو فريد، ويتمايلون طرباً مع «الأطلال»، و «كليوباترة»، و «أبو عيون جريئة»، و «الربيع»، وهم يتحدّثون في الوقت ذاته، ولكن كل واحد يتحدّث إلى نفسه في الحقيقة. فكان دعيس يتحدّث عن أبطال الروايات التي قرأ، وكلهم من المظلومين والبؤساء، ومحمد يتحدّث عن مشاريعه في السفر والترحال وتلك الأماكن التي يود مشاهدتها، وعبدالمحسن لم يكن له حديث إلا أميركا، والحياة الحلوة هناك، وعندما يكون حمد موجوداً، فهو يتحدّث عن مشاكله في العمل والمنزل، وأمله في بيت مستقل. أما هشام، فقد كان الشراب يجعله في غاية الشبق، وتتراءى له خيالات رقية وسوير وحتى نورة، وبعض تلك

المناظر المثيرة في تلك الأفلام التي رآها في سينمات بعض الأندية. كان يتمنى لو كانت سوير أو نورة حوله، فيريهن ما لا تحلمان به، أو أن الغرفة قد اكتظَّت بنساء عاريات وهو الوحيد بينهن. وفي الوقت نفسه كان يتحدَّث عن الماركسية والوجودية والصوفية والله وإبليس... الغرفة المغلقة أصبحت مكتظَّة بالدخان ورائحة العرق وآهات أم كلثوم ودمعات عبدالوهاب وتوجُّعات فريد وتوسُّلات عبدالحليم، ولكنها كانت كوناً فسيحاً لا آخر له لمَن فيها. وتنتهي السهرة بتناوُل كبسة عبدالمحسن، ثم «يسري» حمد عندما يكون موجوداً، فيما يبقى دعيس ومحمد، وينامان في مكانهما. وفي الصباح ينهض الجميع، وقد تحوَّلت رؤوسهم إلى بحر متلاطم الأمواج، فيجدون بقايا كبسة البارحة التي لا يعرفون كيف أكلوها، ويتناولون إبريقاً ضخماً من الشاي الثقيل، ثم يغادر دعيس ومحمد. أما هشام، فكان يأخذ حماماً طويلاً، ثم يغادر لحضور صلاة الجمعة مع خاله، ويتناول الغداء في البيت الكبير. وكان عبدالمحسن يرافقه بعض الأحيان، وأحياناً يبقى في البيت يدخِّن ويشرب الشاي ويتناول من الطعام ما اتَّفق، وغالباً ما يكون بيضاً مقلياً، أو بقايا كبسة الأمس، إن بقي شيء.

ذات مساء خميس، كان هشام وعبدالمحسن يستعدان للخروج إلى شارع الوزير، فلم يكن هناك عرق تلك الليلة رغم تأكيدهما على حمد بالشراء، إذ جاء محمد ودعيس مبكِّرين على غير العادة. وكان دعيس يحمل كيساً بلاستيكياً ضخماً، يبدو أنه يحتوي على شيء ثقيل. عاد الجميع إلى غرفة عبدالمحسن، وأخرج دعيس محتويات الكيس التي كانت عبارة عن أربع قوارير ماء «صحة» ممتلئة بسائل أحمر صافٍ. أمسك دعيس بإحدى القوارير، ورفعها في الهواء وهو يقول مبتسماً

بفخر: «إليكم آخر إبتكاراتي... نبيذ عنب وطني ولا نبيذ بوردو»، ثم قال محمد: «لقد كان يعد هذه المفاجأة منذ ثلاثة أسابيع. لقد جعل من غرفته خمّارة سرية من أجلكم»، وضحك الجميع، فيما واصل محمد القول ضاحكاً: «حتى أن زميلينا في العزبة أخذا يتأففان من تلك الرائحة الغريبة المنبعثة من غرفة دعيس، ولكنه كان يقنعهما أن هذه هي رائحة الغرفة في مثل هذا الوقت من السنة»، وترتفع الضحكات من جديد. ثم نهض عبدالمحسن بسرعة إلى المطبخ، وأحضر أربعة كؤوس تلمع من النظافة على غير العادة. صبَّ دعيس في الكؤوس الأربع إلى نصفها تقريباً، ثم رفع كأسه وهو يقول: «في صحَّتكم»، وتجرَّع رشفة كبيرة، ثم تبعه الجميع. لم يكن الطعم طيباً، فقد كانت رائحة الخميرة وطعمها واضحين تماماً، كما أن حموضة الخل كانت غير مستساغة إطلاقاً. ولكن عينا دعيس كانتا تنظران إلى الجميع بقلق، فهو يريد رأيهم في صنع يديه. كان هشام أول المعلِّقين، حيث قال: «نبيذ طيِّب... ألطف من العرق على أية حال»، وكان يجامل ويخشى جرح إحساس دعيس المرهف. فقد كان يفضِّل العرق، فهو أسرع مفعولاً، كما أنه يذكِّره دائماً بأول نزهة له على طريق خريص. ثم قال عبدالمحسن: «على الأقل هو لا يكلِّف كثيراً مثل العرق...»، ثم وهو ينظر إلى دعيس، «أم أنني مخطىء؟...». ابتسم دعيس بفخر وهو يقول: «أبداً... شوية عصير عنب، وعلبة خميرة، والكثير من الماء والسكر... هذا كل ما هنالك. أليست الكيمياء من نعم هذا العصر؟»، ويضحك الجميع وهم يقولون: «وكل العصور»، ثم أفرغوا بقية كؤوسهم في أفواههم، ومدُّوها طلباً للمزيد، مما جعل دعيس في غاية الفخر. وبعد أن فرغوا من الكأس الثانية، نهض عبدالمحسن وهو ينظر إلى هشام قائلاً: «يبدو أنه لا خروج

الليلة... سوف أُغلق الأبواب وأبدأ بإعداد الكبسة»، فيما كان دعيس يقلب الأشرطة، ثم أطلق آهة بصوتٍ عالٍ وهو يتناول أحدها ويضعه في جهاز التسجيل الصغير. وما هي إلا لحظات، وكان ناظم الغزالي يشدو: «يا حادي العيس، إن الذين كانوا هنا قد رحلوا... سمراء من قوْم عيسى، رأيتها تقرع الناقوس، فقلت من علم الخود ضرباً بالنواقيس...»، ورائحة «الكشنة» تملأ أرجاء المكان.

ـ ٣٨ ـ

استمرّت أيام العزبة هادئة عادية، لا يعكّر صفوها إلا تلك النظرات المريبة التي كان رجال الحي ينظرون بها إلى الشابين في دخولهما وخروجهما، وإلى ضيوفهما الكُثُر. وكانا حريصين جداً على أن لا يثيرا هؤلاء الجيران بأي سلوك يمكن أو يؤاخذا عليه. حتى سهراتهما مع الأصحاب، كان من أهم طقوسها إغلاق باب الغرفة التي يجتمعون فيها، وإغلاق الباب الفاصل بين الباب الخارجي وبقية المنزل. وكانا حريصين على أن لا ترتفع الضحكات أكثر من اللازم، أو يرتفع صوت الراديو أو المسجّل أكثر من اللازم أيضاً. لقد كانا يريدان إكتساب ثقة هذا المحيط المعادي بأي وسيلة، والإبتعاد عن المشاكل بأي طريقة. حتى تلك النظرات المتلصّصة لبعض نساء الحي، من وراء الأبواب والنوافذ شبه المغلَقة، تلك النظرات التي كانت تحمل كل إغواء وإغراء والدعوة إلى الدخول في مغامرات لذيذة، كانا يتجاهلانها، رغم أن أتوناً مشتعلاً كان يعتمل في داخل كل منهما، كلما التقت نظراتهما ببريق عين متلصّصة هنا أو هناك. ومع الوقت استطاعا أن ينتزعا احترام الجميع وثقتهم، فقد كانا

يصلّيان بعض الفروض مع الجماعة في المسجد، ويسيران وعيونهم إلى الأرض في الغدوة والرواح، وحتى التحية التي كان يمن بها بعض أهل الزقاق عليهما، كانا يردّانها بأحسن منها وعلى إستحياء، بل كانا يبادران دائماً بالتحية قبل الآخرين. كانا بعض الأحيان يتحدّثان عن تلك النظرات المتلصّصة، ويأخذهما حماس الحديث، وذلك الأتون المشتعل في الداخل، فيقرّران دخول مغامرة مع إحدى صاحبات تلك النظرات، خاصة أوقات الضحى عندما تمتلىء البيوت بالباحثات عن مغامرة تخرجهن من عذاب الروتين والسأم المطبق. ولكنهما سرعان ما يعدلان عن الأمر حفاظاً على السمعة الطيبة المكتَسَبة. بل إن إرادتهما تعرَّضت ذات مرة إلى إمتحان قاسٍ. في أحد الأيام، كانا عائدين من الجامعة أبكر من المعتاد، وكان الزقاق خالياً تماماً. وعندما كانا يعالجان فتح باب البيت، فُتح باب البيت المقابل فجأة، وظهر خلفه وجهان لفتاتين في مقتبل العمر، حاسرتي الرأس عن شعر أسود فاحم طويل ينسدل بحرّية على الكتفين، ويبرق من أثر الدهن، وعيون واسعة سوداء كليل صحراء بلا قمر، وبشرة خمرية مثل رطبة بدأت تتحوّل إلى تمرة. ابتسمت الفتاتان لهما بمودّة وإغراء، فلبثا حيناً لا يعرفان ماذا يفعلان، فقد شلّتهما المفاجأة وسيطر عليهما الذهول. وبعد لحظة تردُّد، فتحا الباب بسرعة وانسلا إلى الداخل، وكأنهما يهربان من وحش يلاحقهما. لبثا بعض الوقت يستردّان الأنفاس المبهورة، ثم اتَّجها إلى نافذة المجلس المهجور وأخذا ينظران من النافذة المطلّة على الزقاق... لا زالت الفتاتان تقبعان خلف الباب، وتلاقت الأعيُن للحظة، ثم أغلقا النافذة بسرعة. وتكرَّر هذا الموقف كثيراً بعد ذلك، وفي كل مرة كانت النفس تحدِّثهما بالدخول في مغامرة وليكن ما يكون، ولكنهما يمتنعان في آخر

لحظة، حفاظاً على السمعة المكتسَبة، وإذا كان لا بد من المغامرة، فشوارع وأزقَّة الرياض كثيرة، ولتكن المغامرة بعيداً عن حيهما.

وأصبحت سمعتهما كالذهب الابريز، حتى أن نساء الحي توقَّفن عن التلصُّص عليهما. أصبحا أكثر حرية بعد إكتساب ثقة أهل الحي، حتى أن هشام وعبدالرحمن جاءا مرة برُقية إلى المنزل، ثم جاءت مرة أخرى برفقة واحدة من معارفها، ثم تكرَّرت الزيارات دون أن يثير شكوك أحد. ففي أول مرة جاءت فيه رُقية مع عبدالرحمن، وكان الوقت عصراً، طرق الباب جارهم المقابل، وسأل بلطف عن الضيوف الذين في الداخل، فقال له هشام أنهما أخته وزوج أخته، وقد جاءا للزيارة وتنظيف المنزل، فصدَّق الرجل وعاد إلى منزله وهو يردِّد: «بارك الله فيكم... بارك الله فيكم»، ثم لم يعد يسأل بعد ذلك عن الداخلين أو الخارجين. يا له من قناع جميل هذه السمعة الطيبة التي انتزعاها إنتزاعاً، فقد كانت تمنع عنهما كل الشكوك، بل وحتى تُخفي الحقائق الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار كما يقولون... ولا ريب أنهم كانوا يقصدون شمس الشرق لا شمس الغرب.

ولكن القلق والإحساس بالضآلة لا يريدان أن يفارقا هشام. فرغم لذَّة المغامرة مع رُقية وزميلاتها الجُدُد، ورغم الصداقات الجديدة التي أخذ يكوِّنها، ورغم حرارة الإحساس بالمغامرة، فإن النصل الذي يخترقه بين الحين والآخر في داخله لا يريد له الراحة. فبعد كل مغامرة مثيرة، وفي اليوم التالي لكل سهرة وردية، كان خيال أمه يطوف في مخيِّلته، ويبدأ ذلك النصل في ممارسة هوايته السادية، فيقرِّر ألا يشرب أو يعاشر النساء، بل ويقرِّر العزلة الكاملة وعدم الإختلاط بأحد. ولكنه سرعان ما

ينسى كل ذلك عندما يتوفَّر شيء من العرق أو النبيذ، أو واحداً من تلك الأجساد الملساء. وبدأت علاماته في الكلية تنحدر باستمرار، وسط إستغراب أساتذته، مما كان يجعله يشعر بالألم أكثر وأكثر، فيعود مسرعاً إلى كتبه بحماس، ولكن سرعان ما يسيطر على تفكيره لدونة ذاك الجسد، أو النشوة التي أحسَّ بها آخر ليلة اجتمعت الشلة، فتتراقص الحروف أمامه ولا يعود يقرأ رغم أنه يقرأ.

لم يعد يشعر بشيء من الرضى عن نفسه، إلا حين يخرج وعبدالمحسن في عصاري بعض الأيام إلى مزرعة قريبة من حيِّهم. يجلسان على الأرض الرطبة، ويراقبان نسيم الربيع المبكِّر وهو يداعب أشجار النخل المحيطة، وقرص الشمس وهو يكبر ويتحوَّل إلى الأرجوانية في طريقه إلى بحر النهاية المحتومة عند جبلِ قاف. يتحدَّثان في كل شيء يمكن أن يأتي على خاطرهما. أحاديث حول الله والوجود والمصير والقدر والعبث، عن الجنة والنار، آدم وإبليس، الوجودية والماركسية، الإسلام والمسيحية، محمد والمسيح، عن الرياض والقصيم والدمّام، يتحدَّثان في كل شيء إلا حياتهما الخاصة. يستمرّان في الحديث والتدخين حتى يُسبل الظلام رداءه الكالح، وتبدأ الصراصير في الغناء، ويرتفع نقيق الضفادع في دعوة شبق محمومة، فتبدأ الوحشة تخترقهما من الداخل مع ضوء النجوم الخافت، فيغادران وقد أحسّا أنهما لا شيء في هذا الكون، وليس لهما من أمره شيء، فيشعران براحة مشوبة بقلق خفي، ويموت السؤال، وتختفي صورة أمه من خياله، فينام بعمق تلك الليلة وقد عزم على ترك كل الأخطاء جانباً، والإهتمام بدروسه فقط... ولكن آفة الإنسان النسيان.

- ٣٩ -

شهران مرّا منذ أن عاد من الإجازة، ولم تخطر له سوير على بال إلا لِماماً، في لحظات النشوة تحديداً. وذات جمعة بعد الظهر، كان يجلس وحيداً يشرب الشاي في مجلس بيت خاله، بعد أن تناول طعام الغداء، وذهب الجميع إلى قيلولتهم الأثيرة، حين دخلت موضي وأخذت تتجاذب وإياه أطراف الحديث. كانت موضي تتحدَّث كثيراً في كل شيء، ولم يكن يسمع منها شيئاً، رغم أنه كان يهز رأسه مبتسماً. ولكنه لم يستطع إلا أن يسمع، حين قالت موضي: «غريب أمر جارتنا سارة... إنها دائمة السؤال عنك، حتى لقد شككت أن هناك شيئاً بينكما». قالت ذلك وهي تضحك بهمس وحدَّة شبيهة بصوت الفأر. كان يمسك البيالة وهو يبتسم، ولكن سرعان ما اختفت الإبتسامة، وأخذت يده ترتعش دون أن يتمكَّن من السيطرة عليها، وأحسَّ أن رأسه أخذ يغلي من الداخل. وضع البيالة في الصينية، ووضع يديه في حجره محاولاً إخفاء إرتعاشهما، وحاول أن يُمسك زمام نفسه وهو يقول بهدوء استجمع كل قوى نفسه لتحقيقه: «شيء بيني وبين سارة؟... ما هذا الهراء؟» كان واثقاً أن كل شيء قد انكشف، وما هي إلا لحظات وينهار تماماً، وليس له إلا أن يطلب «الستر» من موضي، وإبقاء الأمر سراً بينهما. كان قد أعدَّ نفسه لإعتراف كامل، حين قالت موضي بنبرة هادئة: «ولماذا أنت مضطرب هكذا؟... أكيد تضايقت من مزاحي معك، هل يعقل أن يكون هناك شيء بين هشام العاقل، وبين واحدة مثل سارة؟» ثم وضعتْ يدها على يده، وسحبتها بسرعة وهي تقول: «لا ريب أنك متضايق... يدك باردة ورطبة جداً. أنا آسفة جداً، يبدو أني

تجاوزت حدودي... أنا... أنا...»، ثم لم تستطع أن تُكمل، فقد اختنق صوتها وصمتت وهي تنظر إلى الأرض. وهدأت نفسه قليلاً، وعادت إليه الروح، وحمد الله على تلك الأقنعة الجميلة التي نحملها، وتُخفي حقيقتنا عن الآخرين، ولكن احتقاراً شنيعاً لنفسه أخذ ينتشر في أرجاء نفسه من نفسه. إنه يعلم أن هناك علاقة بينه وبين سوير، وأن موضي كانت صادقة في شكّها الذي لم تصدِّقه، أو لم ترد أن تصدِّقه، ففعلاً لماذا تسأل عنه سوير إن لم يكن هناك شيء بينهما. ولكن موضي لا ترى إلا قناع الملاك الذي يرتديه هشام، ولكنها لا ترى ما وراء ذلك القناع، أو لا تريد أن ترى، فنحن نرى ما نريد أن نرى، وليس ما يمكن أن يُرى. وما يشعره بالحقارة أكثر، هو أن موضي تألَّمت عندما ذكرت الحقيقة مازحة، وشعر هو بالإرتياح عندما انزاحت هذه الحقيقة. عجيب أمر هذه الدنيا، فالبعض يمارس الخطيئة دون ألم، والبعض يتألَّم من مجرَّد طيفها. كان يشعر أن الحقارة في داخله أكثر مما يستطيع أن يحتمل، فكاد أن يصرخ في وجه موضي البريئة المتألِّمة: «أنت على حق فيما قلت... أنا شيطان يرتدي قناع ملاك. بل أكثر من شيطان، فالشيطان مفصح عن نفسه، أما أنا... أما أنا فنفس شيطان ومظهر ملاك»، ولكنه نظر إليها بهدوء، وقد عادت البسمة إلى ثغره، ومظهر الحكماء إلى وجهه، وبراءة الأطفال في عينيه، وهو يقول: «لا عليك... لا داعي للأسف. لم تكوني تقصدين الإساءة»، قال ذلك وقد عصره ألم المعدة، ولكن البراءة لم تفارق محياه. ارتبكت موضي قليلاً، وحاولت أن تقول شيئاً، ولكن فاها لم يطاوعها، فخرجت بعض الكلمات المبهمة، ثم نهضت بسرعة وخرجت وهي تمسح أنفها بطرف غدفتها، وتركته لوحده في المجلس مع الحقارة المتعاظمة.

ـ ٤٠ ـ

عندما خرج من منزل خاله عصر ذلك اليوم، كان في حالة إنعدام وزن بحيث لم يشعر بالأرض تحت قدميه، ولا بالعالَم من حوله، ولا بالسيجارة التي لسعت إصبعه بعد أن وصلت إلى نهايتها. لقد سبَّب الألم لموضي، ونسي سوير، وأصبحت نورة طيفاً من الماضي، وحطَّم ما بقي من أمه في داخله. رباه... كيف يمكن للإنسان أن يسبِّب كل هذا الألم لمَن يحب؟! بل كيف يكون الألم أشد حين تكون المحبة أكبر؟...

ولأول مرة منذ أمَد يستوقفه منزل سوير. كان يبدو مهجوراً لا حياة فيه. صمَّم على رؤيتها، فاتَّجه إلى الشارع، وتأكَّد من وجود عليان في دكانه، وهو يقاوم النعاس، ويهش الذباب العائد من عطلة الشتاء، ثم عاد وطرق الباب ثلاث طرقات خفيفات، بعد أن تأكَّد من خلو الزقاق من المارة، وبعد أن ألقى نظرة إلى نافذة غرفته السابقة دون شعور. ولم يلبث أن جاءه صوت من وراء الباب قائلاً: «مين...»، فلم يزد على القول «أنا»، بصوت خافت وهو يتلفَّت يُمنة ويُسرة. وفُتح الباب عن وجه يعرفه جيداً... لم يتغيَّر فيه شيء، كان مليحاً كعادته، ولكن شحوباً كشحوب السل يعتريه. دخل بسرعة، وأغلقت الباب بهدوء، ثم اتَّجها إلى تلك الغرفة. كانت سوير تبتسم طوال الوقت بسمة ذكَّرته ببسمة الموناليزا الغامضة، خالية من أي نوع من الإثارة، رغم أنها كل الإثارة. وقبل أن يجلسا، ضمَّته إلى صدرها بهدوء، وأخذت تتنشَّق كل جزء من جسمه يصل إليه أنفها، ثم لثمت شفتيه بهدوء ولطف، بشفتين باردتين برودة الأموات. كان عازماً على قطع علاقته معها بشكل نهائي بعد شكوك موضي، ولم يعد بحاجة إلى جسدها. وعندما فتحت الباب،

اجتاحته الشهوة بعنف وقوة، وكان يتوقَّع أن تلقي بنفسها في أحضانه ما أن تقع نظراتها عليه، وينسلاَّ إلى الفراش مباشرة. ولكن تصرُّفاتها الغريبة أطفأت نار الشهوة، وحلَّ محلها نار الفضول. لم تكن تضع أي نوع من المكياج، ولا أي نوع من العطور، وقد يكون ذلك طبيعياً، فهي لم تتوقَّع مجيئه. ولكنها بقيت كما هي بعد مجيئه... ذات الهدوء، وتلك البسمة الغامضة التي تُقلقه. كانت ترتدي قميص نوم قديم باهت اللون، عاري الأكتاف، فمدَّ يده وأخذ يتحسَّس كتفها العارية، ولكنها بقيت هادئة مبتسمة، فانطفأت آخر شرارة شهوة كانت في داخله، وأخذ القلق يساوره بعنف... هذه ليست سوير التي يعرف. هل توقَّفت عن حبه؟ لا يظن ذلك، وإلا ما سمحت له بالدخول... ماذا جرى إذاً؟ هل هي مريضة؟... ربما. ونهضت سوير فجأة، ثم عادت بعد قليل وهي تحمل صينية الشاي، وقد وضعت بعضاً من العطر الذي أهداه إياها منذ زمن، ووضعت بعض أحمر الشفاه، ولبست قميص النوم الأزرق الذي يحبه. إذاً ما زالت تحبه، ولكن لماذا؟... وتوقَّف عن حديثه لنفسه حين قدَّمت له بيالة الشاي، وهي لا تزال تبتسم وتنظر إليه دون كلام. واستمرَّ الصمت القاتل لا يعكِّره سوى صوت إرتشاف الشاي، وأصوات بعض الصبية يلعبون في الخارج. لم يعد يستطيع تحمُّل بسمتها الغامضة، ونظراتها شبه الناعسة إليه، فحاول إغتيال الصمت بأية طريقة، فقال:

ـ ألا تخشين أن يأتي عليان الآن؟

كان يريد أن يقول أي شيء، فهو يعلم أن زوجها لن يأتي الآن، وهي تعلم أنه يعلم ذلك، فبقيت صامتة ترتشف الشاي بهدوء وتبتسم. وساد الصمت من جديد، حتى صراخ الصبية في الخارج قد توقَّف،

وكأنها مؤامرة تُحاك ضده. لقد تحوَّلت نظراتها وإبتساماتها إلى نار محرقة ليس له قدرة على مقاومتها. أنهى بيالته، ثم هزَّها وهو يضعها في الصينية، وقد عزم على المغادرة. وكأنها أحسَّت بعزمه، فقالت بصوت كأنه قادم من دنيا الأموات، أو من زمن سحيق في بعده:

ـ هل هنت عليك لهذه الدرجة؟... شهران لا أراك ولا أسمع عنك شيئاً؟

أحسَّ بشيء من الراحة، فقد نطقت أخيراً، وقتلت ذلك الصمت القاتل، ولكن ليتها لم تفعل، فقاتل القاتل أشد قسوة منه. لقد وصلت المؤامرة إلى نهايتها... ألا ليت الصمت استمر، واستطاع النفاذ من هذه المؤامرة التي ساق نفسه إليها بإرادة هي القدر ذاته، ولكنه لم يكن يعلم، ولو علم ما كان قدراً. لم يحر جواباً، فشبك كفَّيه على حجره، ورسم إبتسامة بلهاء على شفتيه، وطأطأ برأسه إلى الأرض، وكأنه متَّهم ينتظر الحكم عليه. كانت لا تزال تبتسم تلك الإبتسامة القاتلة، بل تلك الإبتسامة التي تحوَّلت إلى علامة إستفهام حادة تجوس أنحاء جسده. وخمدت نيران الشهوة، وانطفأت نيران الرغبة، ونسي موضوع قطع العلاقة، وبقيت النيران مشتعلة رغم ذلك. كان صمتاً رهيباً الذي تلى، فقطعه قائلاً: تعلمين... مشاكل الدراسة والسكن الجديد، كما أني قضيت الإجازة عند أهلي.

ثم فجأة وكأنه تذكَّر شيئاً:

ـ لقد حاولت الإتصال بك بعد العودة من الإجازة، ولكن البيت كان مهجوراً، فظننت أنكم قد سافرتم... أين كنتم؟

ولأول مرة تضحك منذ أن اجتمعا، وهي تقول:

ـ يا لك من ماكر... أين كنا؟ أين من الممكن أن نكون يا حسرة. نحن هنا دائماً، ويبدو أننا سنموت هنا.

ثم وهي ترتشف آخر قطرة من الشاي، وتنظر إليه بعينين عاد بريقهما:

ـ ولكن لا يجدنا إلا مَن يحبُّنا...

ثم وهي تصب الشاي في بيالتيهما:

ـ كان بإمكانك طَرق الباب والتأكُّد... كما فعلت هذه المرة.

واتَّسعت إبتسامتها وهي تقول ذلك، وتنظر إليه بنظرات شَعَر أنها عرَّته تماماً. ولم يكن أمامه إلا الإبتسام الأبله، فاستسلم تماماً، وعاد إلى طأطأة رأسه. أحسَّت سوير أنها حقَّقت غرضها تماماً، فعادت سوير التي كان يعرف. ألقت بنفسها عليه، ولثمته بسرعة، بشفتين عادت الحرارة تغزوهما، ثم قالت:

ـ لقد كدت أُجن... ولولا أني كنت أتسقَّط أخبارك من موضي، لجننت فعلاً. وضحكت بحبور، ثم قالت وعيناها تُطلقان بريقاً غريباً:

ـ كدت أفضح نفسي أمامها من كثرة السؤال عنك. حتى أني لاحظت نظرات الشك في عينيها حين كنت أحاول الإستفسار عن مكان سكنك بطريقة حاولت أن تكون بريئة... لقد كنت على استعداد للذهاب إلى مسكنك الجديد. لم يكن ذلك مهماً، فلم يعد يهمُّني شيء بعد إنقطاعك، ولو كان الأمر بيدي تماماً، لأعلنت حبك على أهل الرياض جميعاً.

ولثمته بسرعة من جديد بشفتين توهَّجتا هذه المرة، ثم قالت:

ـ كنت أريد سماع إسمك يتردَّد في كل مرة أسأل عنك. وحتى عندما كنت أنفرد بنفسي وأشعر بالوحدة تلفُّني، كنت أردِّد إسمك في داخلي، فتنقشع الوحشة والوحدة.

وأخذت تبكي فجأة بحرقة ودموع غزيرة، فلم يعلم ماذا يفعل... مدَّ يده وأخذ يتحسَّس كتفها العارية بلطف وحنان، فالتقطت كفَّه ووضعتها على خدِّها المبلول وهي تردِّد بصوت واهن:

ـ أحبُّك... أحبُّك يا هشام. أما آن لك أن تعرف مقدار حبي؟

إنه يعلم أنها تحبُّه، وهو يحبُّها فعلاً... ولكنه يحب نورة ورقية وموضي وأمه أيضاً، ولكنها تريد حباً ليس في مقدوره منحه إياها حتى لو أراد...

ـ وأنا أحبك أيضاً يا سوير.

انتفضت فجأة، ونزعت كفَّه من على خدِّها، وقالت بحدَّة وصوت محشرج:

ـ كذَّاب... نعم كذَّاب. أنت لا تحبني يا هشام، أنت تريد جسدي فقط، ولا شك أنك وجدت جسداً غيري ولذلك تركتني.

ثم عادت إلى البكاء من جديد، وأخذ يتحسَّسها من جديد فيما هي تقول من بين دموعها:

ـ أنت لا تعرف معنى الحب، وإلا لما جعلتني أتعذَّب كل هذا العذاب... أنا أحبك، سواء أحببتني أم كرهتني.

ثم هدأت قليلاً، وأخذت تمسح دموعها بكفِّها، وأخذت تضحك بهدوء أثناء ذلك:

ـ ليكن... لا تحبني... أحبب جسدي، لا مانع لدي... ولكن لا تتركني... أنا أعبدك يا هشام، والعبد لا يشرك مع معبوده شيئاً.

وبدون هدف أو غاية أو قصد قال بشيء من المزاح، وقد أحسَّ بالزهو يسيطر عليه من الداخل:

ـ ولكن الشرك لا يكون إلا بالله. هو المعبود الوحيد.

وكنمرة متوحِّشة، نظرت إليه بعينيها المبلَّلتين، وقد زادتا اتِّساعاً على إتِّساعهما، وهي تقول:

ـ إذاً أنت ربِّي... ترحمني وتعذِّبني. وكل شيء منك مقبول ومحمود.

ولم يستطع الإحتمال فعلاً، فقال بتلقائية:

ـ أستغفر الله العظيم... أستغفر الله العظيم.

ردَّد ذلك وشعور من الزهو وشيء لا يعرفه، أشبه ما يكون بالذنب، يمتزجان في داخله. كانت يدها قابضة على يده، فمدَّ يده الأخرى وأخذ يربت على خدِّها ويتحسَّسه بلذَّة، فيما ارتمت هي في أحضانه بعنف، وأخذت تشمه بصوت مسموع، وهي تردِّد:

ـ أحبُك... أحبُك يا هشام... أعشقك... أعبدك.

وحضنها هو الآخر بعنف أيضاً، وأخذ يشم رأسها ويقبِّل نحرها المكشوف، وأخذت نيران الشهوة تتَّقد من جديد. أحسَّ أن الأمور قد بدأت تعود إلى طبيعتها، فرفع رأسها من على صدره وهو يعتزم تقبيلها، والإنسلال للفراش. وفيما هو يهم بذلك، قالت وقد أغمضت عينيها، بدلال وصوت كالفحيح:

ـ سامحك الله يا هشام... ألا تعلم أني أعبد كل ذرَّة فيك. ألا تعلم أني أحملك في أحشائي؟

وانتفض كمَن لسعته شرارة نار عابرة، عندما قالت جملتها الأخيرة، وأبعد رأسها عنه، وانطفأت كل النيران فيه، واشتعلت نار جديدة أشد ضراوة من كل النيران، فقال بصوت مرتجف تماماً:

ـ ماذا قلت؟

ـ أنا حامل يا هشام...

وأحسَّ أن الأرض تميد به، وأن رأسه قد تحوَّل إلى جمرة من نار، فيما بقيت هي هادئة تنظر إليه بشغف وبلاهة، وقد عادت تلك الإبتسامة إلى ثغرها. تماسك نفسه وحاول أن يكون هادئاً ما أمكن وهو يقول:

ـ بالبركة... بالبركة إن شاء الله... لا ريب أن عليان سعيد جداً.

ـ نعم... إنه سعيد جداً، ولكن ما دخْل عليان بالموضوع؟

ـ إنه زوجك... ألا يحق له أن يفرح بعد كل هذا الإنتظار؟

قال بصوت مرتبك، فيما نظرت إليه بمكر وهي تقول:

ـ ولكنه إبننا يا هشام... ثمرة حبنا.

وأحسَّ بأنه يكاد يُغمى عليه، فتماسك وهو يقول:

ـ وما أدراك بذلك؟

ابتسمت وهي تقول:

ـ إحساس... وإحساس المرأة لا يُخطىء.

وقبل أن يرد، قالت:

ـ أنا أعلم أنه إبننا... وأنت تعلم. لا تخف، لن أسبِّب لك أي مشاكل... ما يهمني هو أني حصلت عليك إلى الأبد... أحشائي تحملك، وسوف تكون جزءاً مني إلى الأبد. لن تستطيع تركي بعد اليوم، لأنك ترقد في داخلي، وسوف تكون معي إلى الأبد.

ودون أن يحير جواباً، طبعت على فمه قبلة طويلة، فيما كان يحس بطعم الملح في فيه، ومرارة الحنظل في داخله، وكل حقارة العالَم في ذاته.

ـ ٤١ ـ

طوال الطريق إلى المنزل، كان يسير شارد الذهن، غير شاعر بضجيج الحياة من حوله، وكأنه يسير في مقبرة مهجورة، وقد تحوَّل ما في داخله إلى خواء كامل يكاد يسمع فيه أزيز ريح صرصر عاتية. وصل إلى المنزل دون أن يدري كيف، فصعد إلى غرفته مباشرة، دون أن يعرِّج على غرفة عبدالمحسن كالعادة. وألقى بنفسه على السرير، وبدأت النار التي في داخله تطل برأسها. لم يكن بحالة تسمح له بالحديث أو الجلوس مع أحد أو حتى مع نفسه، ولكن لا مهرب له من نفسه، وحتى أنه صرف عبدالمحسن بخشونة عندما جاء يستفسر عمّا به، ولكنه سرعان ما اعتذر من صاحبه وطلب منه تركه لوحده، فهو يشعر بوعكة عارضة. وعاد إلى السرير وعادت إليه نفسه... هناك حياة في أحشاء سوير على أهبة القدوم. لم يكن يعلم أن الحياة تتكوَّن بهذه السهولة. لا... إنه يعلم، ولكنه لم يكن يتوقَّع أن يكون هو بالذات مصدر حياة، وبهذه السرعة والمفاجأة. حقاً أن تعلم بالشيء أو تسمعه ليس هو ذاته عندما

تعانيه وتمارسه، رغم أن الشيء هو ذاته لم يتغيَّر...». ولكن ما أدراني أن الطفل مني؟... لِمَ لا يكون من عليان... أو غيره. ألم يكن شاهداً على غزواته معها أيام التلصُّص؟... لا... إنه مني. إنها متزوِّجة منذ سنوات، ولم تحمل إلا بعد أن عرفتني. وهي تحبني فعلاً، ولا يمكن أن تفعلها مع غيري. ولكن الله قادر على كل شيء... يا للعجب. الله... هذا الذي لا ندركه إلا عندما لا نستطيع الإدراك. ولكنها واثقة من أن الحمل مني، وهي أدرى... كيف تدري... هل أن إحساس المرأة لا يكذب كما تقول؟... كلام فارغ. ليس لها أن تدري. ولكن لماذا تكذب؟... إنها لا تريد شيئاً مني، لا بد أنها صادقة. قد يكون ذلك ولكنها لا تدري من أين الحمل... هو مني لا شك في ذلك. ليس بالضرورة...» ونهض من على سريره، أشعل سيجارة أخذ يمتصها دون إحساس، وكانت صورة أمه تحتل كل زوايا رأسه من الداخل... «كيف أصبحت هكذا؟. أعاشر امرأة متزوِّجة، وتحمل مني... ولكنها هي المسؤولة، لم أكن أريد إلا مراقبتها وهي تمارس الجنس مع زوجها. هي التي دعتني، فلتتحمَّل نتيجة عملها»، وارتاح قليلاً عندما وصل إلى هذه النتيجة، ولكنه لم يكن مقتنعاً بها في أعماقه، واستمرَّت دبابيس لا حصر لها في وخزه في كل أرجاء جسده.

كل شيء فيه يفيض بالظلام، وكل جزء من نفسه يكاد ينقبض عليه ويعصره تماماً، وصورة أمه لا تريد أن تفارق... إنه يراها في كل الوجوه المحيطة به. لقد تحوَّل هتلر إلى أمه، وكذلك غيفارا وماركس، وتحوَّلت وجوه شادية ونادية لطفي وسعاد حسني ومارلين وجين وبريجيت إلى وجه واحد... سوير. وتناول سيجارة أخرى أشعلها من الأولى وهو يبتسم دون فرح، فقد طافت بذهنه قصة يوسف وزليخا،

امرأة العزيز. لقد همَّ بها وهمَّت به لولا أن رأى برهان ربه... رأى أباه يعقوب يعض له بإصبعه، وجاءه جبريل محذِّراً إياه من الوقوع في الخطيئة، وإلا فإنه سيُمسح من ديوان الأنبياء... ولكن يوسف نبي، ومع ذلك كاد أن يقع في الخطيئة، لولا تدخُّل الله مباشرة. ولكننا من البشر العاديين، فمن أي ديوان سنُمسح؟ وهل ننتمي إلى أي ديوان أصلاً؟... كيف لنا ألا نقع في الخطيئة وهي تحيط بنا من كل جانب، دون أن يكون هناك جبريل أو يعقوب ليمنعنا؟ لعلها مأساة إبليس تتكرَّر من جديد. بل هي تتكرَّر كل يوم... كُتب علينا أن نخطىء، وطُلب منا ألا نفعل. فماذا نفعل؟... ماذا نفعل... ماذا نفعل...

وجد نفسه فجأة على حافة بركان يُطلق الحمم واللهب، وقد سالت الحجارة المصهورة على جانبيه. وعلى البعد، كانت أمه وجمع من نساء عاريات، لم يتبيَّن معالم وجوههن، يغرقن في الحمم ويصرخن، إلا أمه التي كانت ترتدي وشاحاً أبيض غطَّى كل شيء فيها إلا وجهها... كانت واقفة بثبات وهي تنظر إليه من بعيد، ورغم ذلك كان وجهها واضحاً كل الوضوح، والغريب أنه كان أكثر بياضاً مما هو على الحقيقة، وعيناها لا تحملان أي حياة. وحول فوهة البركان، كانت مخلوقات غريبة لا شكل لها تدور وتدور، وهي تحمل عصياً من صوان أسود تضرب به أشياء لا يراها، ولكن الصراخ القادم من أعماق البركان كان يرعبه. وفجأة وجد نفسه طافياً على فوهة البركان دون أن يكون طائراً، أشبه ما يكون برائد فضاء يعوم حول مدار الأرض. ثم ساد الهدوء واختفى كل شيء، وكان الظلام يحيط بكل شيء. أحسَّ بخوف شديد، ثم فجأة غمر ضياء فضي كل شيء، له برودة أشبه ما تكون بقطعة ثلج وحيدة في صحراء قاحلة في ظهيرة يوم صيف. ثم تحوَّل الضياء إلى نور باهر أضاء كل شيء،

فتلفَّت حوله ولم يجد أثراً لأمه والنساء العاريات أو أي شيء آخر. نظر إلى الأعلى، فلم تستطع عيناه إستيعاب مصدر النور، فطأطأ برأسه نحو البركان الذي تحوَّل إلى نفق مظلم ليس له آخر. أدرك أنه قد انتقل إلى البعد الآخر، فأحسَّ بسعادة ضافية صافية. انتهى عهد الحيرة والضياع، وحان وقت معرفة كل شيء... أخيراً سيجد الأشياء كما هي، لا كما تظهر نفسها. لقد حان وقت الأجوبة الكاملة. وبدون أن يتكلَّم، وجد نفسه تتكلَّم:

ـ لماذا خُلقنا؟

وجاءه صوت لا يسمعه، ولكنه يسمعه ولا يدري كيف يكون ذلك. صوت بلا كلمات، ولكن كل المعاني فيه. صوت بلا لغة، ولكنه لغة:

ـ لأنكم يجب أن تُخلَقوا... الشمس لا بد أن تُضيء، والقمر لا بد أن يُنير.

ـ ولكن لماذا؟

ـ أنتم مَن يقرِّر لماذا...

ـ ولكننا نكره بعضنا بعضاً، ونقتل بعضنا بعضاً.

ـ حدتم عن الطريق فأخطأتم. عودوا إلى الطريق.

ـ وأين الطريق؟...

ـ أنتم مَن يقرِّر... أنتم مَن طلب الحرية.

ـ ولكنها حرية مدمِّرة...

ـ أنتم مَن يقرِّر... دمار أم عمار، ذاك قراركم، فلا تظلموا الحرية.

ـ إننا نمزِّق بعضنا بعضاً من أجل رغيف خبز.

ـ تقاسموا الرغيف وستجدون أنه يكفي الجميع.

ـ الأخ يقتل أخاه من أجل دراهم معدودة...

ـ وهل تغيَّر شيء؟... قابيل قتل أخاه. أنتم مَن صنع الدرهم وجعلتموه يصنعكم.

ـ نذبح بعضنا بعضاً من أجل كلمات.

ـ في البدء كان الكلمة. ولكن كلماتكم وهم وضلال.

ـ بإسم الدين نقيم الحروب، وبإسم القومية ننهب، وبإسم الإنسانية نمارس الحيوانية.

ـ مِن الحيوان تعلَّموا... فهو يعرف الطريق.

ـ نريد أن نرتاح...

ـ ذاك بيدكم.

ـ العدم هو الحل...

ـ ووجودكم... وحريَّتكم.

ـ لا نريدها.

ـ أنتم مَن يختار.

ـ لقد اخترنا...

وفجأة ثارت زوبعة في البركان، وأخذ النور يبتعد، وصوَر كثيرة أخذت تمر من أمامه وكأنها شريط سينمائي سريع. رأى نفسه طفلاً، ويافعاً، ورأى أصحابه وأمه وأباه... كل شيء أخذ يمر أمامه بسرعة،

فيما كانت زوبعة البركان تزداد ضراوة. ثم ساد ظلام دامس، وأخذت زوبعة البركان في ابتلاعه، وبدأ يحس بالخواء يحيط به من كل جانب، ثم ابتدأ يحس بالإختفاء والذوبان في شيء لا يراه. أحسَّ برعب شديد، فوجد نفسه يصرخ دون إرادة منه:

ـ أريد أن أحيا... أريد أن أحيا.

فجاءه الصوت من داخله هذه المرة:

ـ ألم تختار العدم؟

ـ أريد أن أحيا.

ـ ولكنك قرَّرت... بكامل حريتك.

ـ لقد رجعت عن قراري. أريد أن أحيا...

ـ أنت مَن قرَّر واختار. أنت مَن قرَّر واختار...

ـ أريد أن أحيا. أريد أن أحيا.

وأخذت جبال لا يراها تردِّد صدى كلماته: أريد أن أحيا... أريد أن أحيا... وأفاق من منامه وهو يصرخ، فإذا الظلام يلف المكان، وهو يسبح في عرق غزير، وجفاف حارق يؤلم حنجرته. تلمَّس نفسه دون شعور، ثم أشعل النور، فإذا بصورة هتلر الضخمة تطل عليه بشكل مرعب... إتَّجه نحوها، نزعها، مزَّقها، ثم اتَّجه إلى الحمّام. أخذ حمّاماً بارداً، وعبَّ الكثير من الماء، ثم هبط درجات السلم، ولم يكن عبدالمحسن هناك. مدَّ يده تحت السرير، ثم أخرجها وقد حملت قارورة عرق مملوءة إلى ثلثها من بقايا سهرة البارحة، ثم أخذ يبحث بين الأشرطة الملقاة بلا نظام على الأرض، واختار واحداً، ثم عرَّج على

المطبخ، وأحضر ثلجاً وماء، وصعد إلى غرفته. شرب الكأس الأولى بسرعة، ثم صبَّ كأساً ثانية أخذ يرتشفها بهدوء ويدخِّن، فيما كان صوت فريد الأطرش يملأ المكان: «عذت يا يوم مولدي. عذت يا أيُّها الشقي... الصبا ضاع مني. وغزا الشيب مفرقي... ليت يا يوم مولدي، كنت يوماً بلا غدِ».

ـ ٤٢ ـ

أهمل دراسته بشكل شبه كامل، ولولا الخوف من الرسوب، لما ذهب للكلية إطلاقاً. كان أساتذته في غاية الإستغراب لهذا الإنحدار المريع في مستواه، وإن استمرُّوا في منحه درجات عالية نتيجة سمعته التي كوَّنها. وأخذ يزور سوير كل يوم تقريباً، لا يفعلان شيئاً سوى الحديث والإسترخاء في أحضان بعضهما بعضاً، دون أن ينسلاّ إلى الفراش. كانت سوير تغريه بعض الأحيان بذلك، ولكنه فقد كل شهوة وكل رغبة، حتى أنه حاول ذات مرة ولكنه لم يستطع، فأضاف ذلك إلى قلقه قلقاً آخر. وابتعد عن رقية، ولم يعد مثلَّثها المتوحِّش يثير فيه أي شيء. وبقدر ما كانت المشاعر المتضاربة تنهشه من الداخل، كانت سوير تبدو في غاية الهدوء والسكينة، تشع السعادة من عينيها. لقد كانت تبدو أكثر سعادة من أي أيام أخرى مرَّت في حياتها، فالإبتسامة الصافية تعلو شفتيها كلما فتحت له الباب، وكلَّما كانت تتحسَّس بطنها بلذَّة، وهي تنظر إليه وتبتسم بسعادة طفل موعود بهدية. يجلسان ويتحدَّثان طويلاً في كل شيء يخطر على البال. والحقيقة أنه كان المتحدِّث الوحيد معظم الوقت. أما هي، فكانت تُسند رأسها إلى كتفه، وتُمسك راحته بين

يديها، وقد مدّت رجليها أمامها، وتمرّر يده بعض الأحيان على بطنها، أو تقبّله بسرعة وهي تتنشّق رائحة عنقه.

كانت هذه هي اللحظات الوحيدة التي يعرف فيها طعم الراحة، منذ أن عرف أن هناك حياة تنخلق في أحشاء سوير. وبمجرَّد أن تُغلق الباب وراءه حين يغادر على مضض منهما، كان يعود إلى الجحيم الذي يعتمل في داخله. حتى جلساته وسهراته مع عبدالمحسن ومحمد ودعيس أصبحت عديمة النكهة. كان يحس بالوحدة في كل مكان يذهب إليه، ومهما كان ضجيج الحياة من حوله، ولم يعد يستهويه شيء، ويحس في داخله أنه قد تجاوز المائة من عمر طال أكثر من اللازم. أصبح كل مثير في حياته هو إنتظار أذان العصر، للذهاب بعده إلى منزل سوير. وأصبح العرق رفيقاً له أكثر الليالي، يحتسيه حتى يفقد الوعي وينام لا يدري كيف ولا أين. حتى أن عبدالمحسن حذَّره من مغبَّة الإفراط مالياً وصحياً، ولكنه كان يرفع الكأس في وجهه ويضحك بعصبية ويقول: «في صحَّتك... تشيرز. ألا فوتغ. لا شيء يهم، على رأي إحسان عبد القدُّوس». حتى حمد، الذي كان يزوِّده بالشراب، حذَّره من مغبَّة الإفراط أيضاً، ولكنه لا يستمع لأي منهما، ولا يريد أن يستمع. لقد كان الشراب يمنحه شيئاً من الراحة، ولكن ذلك ينقلب إلى غم شديد عندما يفيق، فيلجأ إليه مرة أخرى. لم يعد الشبق يغزوه عندما تبدأ النشوة في الدبيب في عروقه، ولم تعد تلك الأفكار اللذيذة تحتل رأسه مع دبيب النشوة، ولكن حزناً لذيذاً يسعده، كان يسيطر على كل ذرات ذاته. في بعض الأحيان كانت الشهوة تعتريه بعد أول كأس، ولكن صورة غريبة تطوف في خياله بعد الكأس الثانية وما بعدها، تجعله ينسى كل شيء. عينا أمه، وبطن سوير، وشفتا نورة، وعجيزة رقية، ويد

موضي تختلط مع بعضها لتصنع خيالاً غريباً كان يرعبه فعلاً. إذ ينفجر بطن سوير فجأة، ويتناثر الدم على عجيزة رقية ويد موضي، ثم تبدأ سوير بلعق الدم من على عجيزة رقية، وتنظر موضي إلى يدها وتصرخ، ثم تبدأ بلعق يدها وهي تضحك، وتبدأ دموع حمراء بالخروج من عيني أمه، وقد تحوَّل وجهها إلى تمثال شمعي شديد البياض لا حياة فيه، وتتضخَّم شفتا نورة حتى يصبح وجهها كله شفتين، وهي تضحك بهستيرية وتقترب منه تريد تقبيله، ولكنه يفر، فتلاحقه وهي لا تزال تضحك.

ويزداد الحزن، وتزداد السعادة المرافقة، مع إزدياد عدد الكؤوس المشروبة. حتى إذا وصل إلى مرحلة الثمالة الكاملة، كان يرفع كأسه في الهواء ويصرخ: «ألا فوتغ فرانسوا ساغان... مرحباً أيها الحزن». وكان عبدالمحسن يأتيه في غرفته بعض الأحيان، ويشاركه في كأس أو اثنتين، ولكنه سرعان ما ينسحب وهو يهز رأسه، حين يجد صاحبه يعيش في بُعد آخر. حاول عبدالمحسن عدة مرات أن يعرف ما حلَّ بصاحبه، ولكن هشام لا يتكلَّم، ويبقى صامتاً يشرب ويدخِّن. حتى الدموع كانت تأبى الخروج من عينيه، رغم حاجته الشديدة لها.

ـ ٤٣ ـ

ذات ليلة، وكان عائداً لتوه من عند سوير، كان يجلس على السطح وحيداً يستجلب بعض نسمات أيار اللذيذة، وهو يُجبر نفسه على استذكار مادة سيمتحن فيها في اليوم التالي، ونفسه تنازعه شرب بعض العرق وهو يمنعها بصعوبة. سمع طرقاً على الباب، فلم يحرِّك ساكناً

لعلمه أن عبدالمحسن سوف يفتح الباب. سمع عبدالمحسن وهو يرحِّب بالقادم، ثم سمع وقع خطوات تصعد الدرج، فتأفَّف وهو ينهض لاعناً عبدالمحسن وضيوفه الذين لا ينتهون. ألقى بالسيجارة بعيداً كيفما اتَّفق، واتَّجه نحو باب الدرج وهو عازم على التخلُّص من هؤلاء الثقلاء بأيَّة طريقة. وقبل أن يصل إلى الباب، إذ به يفاجأ بوجه والده مطلاً عليه وهو يبتسم دون أن يبتسم، ومن ورائه كان عبدالرحمن وعبدالمحسن. كانت مفاجأة بالفعل، فاندفع إلى والده، وقبَّل جبينه، وحمد الله أنه أطفأ السيجارة قبل أن يراه، ثم دعا الجميع إلى غرفته، إلا أن والده فضَّل السطح ونسمات أيار التي لا يجود الزمان بمثلها. جلس الجميع على البساط المتهالك، وأخذ والده يقلِّب نظره في المكان وهو يقول: «بيت جميل... من حسن حظِّكما أنَّكما استأجرتماه»، فردَّ عبدالمحسن قائلاً: «أجرته مرتفعة، ولكن الغالي ثمنه فيه طال عمرك»، فهزَّ الوالد رأسه موافقاً. أخذ هشام في سؤال والده عن الأحوال، وعن أخبار والدته، والوالد يجيب بهزَّة من رأسه وهو يردِّد: «كل شيء على ما يرام... كل شيء على ما يرام»، ثم نهض عبدالمحسن قائلاً: «سأعد الشاي، لا بد أن أبا هشام يحبه ثقيلاً، وليس مثل مطاريس أهل الرياض التي يسمُّونها شاياً»، فهزَّ الوالد رأسه موافقاً وهو يبتسم. ونهض عبدالرحمن في الوقت نفسه وهو يقول: «لا تحسب حسابي يا عبدالمحسن...»، ثم موجِّهاً الحديث إلى الوالد: «أرجو المعذرة، فلدي بعض الأعمال، ويجب أن أغادر»، فأشار له الوالد وهو يهز رأسه: «شكراً على إرشادي لمنزل هشام»، وردَّ عبدالرحمن وهو يتَّجه إلى الدرج: «لا شُكر على واجب...»، ثم توقَّف وكأنه نسي شيئاً، وقال موجِّهاً حديثه للوالد: «لا تنسى يا أبا هشام. موعدنا على الغداء

غداً... وسننتظرك الليلة، سوف تنام عندنا، فراشك مفروش»، ولكن الوالد رفض قائلاً: «كلا، سوف أقضي الليلة هنا، سلامي للوالد... والله يعيننا على مطاريس العزوبية»، «في أمان الله إذاً»، «في أمان الكريم».

وأتى عبدالمحسن بالشاي وهو يقول مداعباً: «أرجو أن يحوز شاي العزّاب على رضاك»، وابتسم الوالد دون تعليق وهو ينظر إلى عبدالمحسن نظرة بدا منها أنه قد أُعجب به، فيما كان عبدالمحسن يصب الشاي وهو يردِّد كلمات الترحيب. أخذ الجميع في احتساء الشاي، وعبدالمحسن يتحدَّث مع الوالد أحاديث «الأولين» ورحلاتهم من أجل لقمة العيش، وشظف العيش الذي كانوا يقاسونه، فيما كان هشام يعيش في دوّامة لا تهدأ من الأسئلة... ما الذي أتى بوالدي إلى الرياض في هذا الوقت؟ ليست عادته أن يترك عمله ويأتي إلى الرياض دون أن يكون هناك سبب هام. هل والدتي بخير؟... هل... هل... وأخذت نفسه توسوس له بكل شَر ممكن. وأخذ ينظر إلى عبدالمحسن نظرات فهم منها الآخر ضرورة المغادرة. وفعلاً، نهض عبدالمحسن وهو يقول: «عن إذنك يا عم... ثلاجتنا فارغة. ثلاجة عزّاب كما تعلم. سأذهب وأشتري لنا لقمة نتعشّاها»، ثم وهو يتَّجه إلى الدرج: «وأرجو أن تسامحنا على القصور... البيت بيتك، وحنا عيالك...»، «بارك الله فيكم، ما منك قصور، والجود من الماجود...».

وحانت ساعة خنق القلق، فما أن سمع صوت الباب الخارجي وهو يُغلق، حتى التفت بكليته إلى والده وكله علامة إستفهام وتعجُّب، وقال بصوت كان واضح القلق:

ـ خيراً يا أبي؟... هل كل شيء على ما يرام؟

نظر إليه الوالد بهدوء وقال:

ـ لا تقلق... كل شيء على ما يرام.

ـ هل والدتي بخير؟

ـ قلت لك لا تقلق... كل شيء بخير.

إذا كان كل شيء بخير، فما الذي جاء به إلى الرياض؟... لم يستطع صبراً، وقد أقلقه هدوء والده، رغم علمه أن هذه هي طبيعته، فقال:

ـ هل هناك مهمة عمل في الرياض إذاً؟

وضحك الوالد باقتضاب وهو يرى قلق ولده، وقال:

ـ لقد اشتقت إليك... ألا يكفي ذلك مبرّراً كي آتي للرياض؟

كلا... الشوق وحده ليس السبب... إنه يعرف والده جيداً. وساد صمت كان يعلم أنه هدوء ما قبل العاصفة. والده في الرياض لأمر خطير، ولكن ما هو؟ أخذ يرتشف الشاي دون إحساس، وهو يتوقّع إنفجار القنبلة في أي وقت، وليتها تنفجر، فالترقُّب وقلقه أشد وطأة مما هو مترقب. وأخيراً التفت إليه الوالد، وقد تقلّص وجهه كليمونة معصورة لتوها، وكان واضحاً أن لديه من القلق أضعاف ما لدى إبنه، وقال:

ـ هشام... أصدقني القول. ماذا فعلت؟

أحسَّ أن معدته انقلبت رأساً على عقب، وسيطر الدوار على رأسه، والدم الحار يجري بجنون في عروقه، والعرق اللزج يسد مسام جسده،

وأفكار سوداء تحتل ذهنه... هل علم بعلاقته مع سوير والحياة التي تتخلّق في أحشائها؟... إنها مصيبة إذا كان يعلم، وكارثة إذا علمت والدته. ولكن كيف له أن يعلم؟... مَن أخبره؟... هل هناك مَن يعلم بهذه العلاقة دون أن يدري؟ مَن يكون ذلك؟... عليان... عبدالرحمن... موضي... مستحيل، إلا إذا... إلا إذا كانت سوير قد أخبرت أحداً بهذه العلاقة... موضي مثلاً أو زوجها... ولكنها مجنونة لو فعلت. وما أدراك أنها ليست مجنونة. لا يمكن أن يبلغ بها الجنون هذا الحَد. لِمَ لا؟... ولكن كيف يدري أبوه في الدمّام قبل أن يدري هو هنا أن العلاقة قد كُشفت؟... لقد رآها اليوم، وليس هناك ما يدل على أي شيء. لعلّه يقصد الشراب. مَن أخبره؟... ربما يكون حمد... هذا القذر... مَن جعله وصياً عليّ؟ أكيد أن والده علم بأمر الشراب. استجمع جماع نفسه وقال بصوت متهدِّج:

ـ ماذا تعني يا أبي؟

ونظر إليه والده مباشرة في العين، وهو يقول بصرامة:

ـ لا تتغابى... أنت تعلم ما أعني.

لقد انكشف كل شيء إذاً. الشراب وعلاقته مع سوير... لا يدري كيف، ولكن المستور انكشف.

ـ لقد انتهى كل شيء، وما حدث قد حدث... أصدقني القول يا بني، لعلي أستطيع المساعدة.

وانهارت مقاومته أمام صرامة وحنان أبيه، وأخذ يعد العدَّة للإعتراف بكل شيء... علاقته مع سوير، ومغامراته مع رقية والأخريات، وعلاقته في الدمّام مع نورة، وشربه للعرق، وجلسات الشلة... كل شيء.

وفتح فاه يريد الحديث، ولكن والده كان أسرع منه وهو يقول:

ـ البارحة، جاءني مدير المدرسة الثانوية، وهو من «الجماعة» كما تعلم، وأخبرني أن أشخاصاً جاؤوا يسألون عن مجموعة من الأشخاص... من ضمنهم أنت وعدنان... فأصدقني القول يا بني... هل فعلت شيئاً ضد الحكومة؟

هذه هي القضية إذاً... وأحسَّ بالراحة بعض الشيء، وعلت فاه إبتسامة رضى باهتة، غير أن توتُّراً وقلقاً من نوع آخر أخذ يجتاحه من جديد. لقد نسي التنظيم والرفاق والسجن وقلق الإعتقالات، ولكن ها هو الماضي يعود بكل قوة من عالَم النسيان، أو ما اعتقده عالَم النسيان. وإذا كان هو قد نسيَ الماضي، فيبدو أن الماضي لا يريد أن ينساه. لم يحاول أن يخفي أي شيء عن والده، بل على العكس من ذلك، كان يحس براحة كبيرة... الحكومة تدري الآن عن كل شيء، فلِمَ لا يدري والده!... أثقل شيء على النفس هو السر. إنه يخنق صاحبه، ولكنه يزيحه عن صدره الآن.

بقي الوالد صامتاً وهو يستمع لإعترافات ولده، وكان واضحاً أن الصدمة قد أذهلته، هو الذي عانى وقاسى في حياته الكثير، ولكن اللعب مع الحكومة هو الخطر بعينه، فكيف إذا كان ولده هو اللاعب. لم يكن يخطر بباله أن ولده الهادىء المنطوي على نفسه يمكن أن يقدم على مغامرة خطيرة كهذه، لقد كانت صدمة لم يكن يتوقَّعها ولا في الخيال، ومع ذلك ها هي ماثلة أمامه. واضطرمت في نفس الوالد مشاعر متضاربة متناقضة من الخوف والقلق والفخر والإعتزاز. إنه يشعر بالخوف والقلق على مصير إبنه الوحيد، ويشعر بالإحباط في الوقت نفسه. فقد كان

يعتقد أنه يعرف كل شيء عن حياة إبنه، وقد ربّاه على المصارحة وعدم إخفاء أي شيء عنه، فإذا هو يكتشف فجأة، ودون سابق إنذار، أن ما لا يعرف أكثر مما يعرف، ومَن يدري، فقد يكون ما اكتشفه اليوم مجرَّد شيء من أشياء، وأخذ الشك يجتاحه. ومع ذلك، كان هناك شعور خفي بالزهو والفخر يمتزج مع هذه المشاعر. فإبنه الذي لم يعرف عنه إلا الخجل الشديد وحُب العزلة والقراءة الدائمة، تكشَّف عن شجاعة نادرة، فقد ناهض الحكومة، ومناهضة الحكومة قمَّة التهوُّر، وليس بين الشجاعة والتهوُّر إلا خيط رفيع. لم يكن الوالد يدري أن دخول هشام في التنظيم السري كان قدراً غير مخطَّط له، جاء هكذا دون إرادة أو تخطيط، ولا علاقة له بشجاعة أو تهوُّر، ولكن الظاهر يقول إنها شجاعة نادرة. والحقيقة أن الوالد يعتبر أي «لعب» مع الحكومة نوعاً من التهوُّر وإلقاء النفس في التهلكة، ولكن حتى هذا التهوُّر قد أقدم عليه آخر شخص يتوقَّع أن يُقدم عليه، وهو ولده هشام. كل ذلك أشعره بالخوف والزهو في الوقت ذاته. كانت كل هذه المشاعر تتزاحم في رأس الوالد، وتتصارع في داخله، وهو ينظر بصمت إلى هشام وهو يحدِّثه عن أشياء أقرب إلى الخيال، في وقت كان يعيش معه وتحت أنظاره، دون أن يخطر له ببال أن قارىء «سوبرمان» يمكن أن يكون له وجه آخر مختلف وخطير.

ـ لم أكن أعرف أنك ثوري كبير...

قال الوالد وهو يبتسم، وقد علا الوجوم وجهه، ثم علَّق بلهجة حاول أن تكون مرحة:

ـ ولكن ما لقيت إلا البعثيين كي تصبح منهم... أطقع ناس...

ولا أضرط منهم إلا الشيوعيين والإخوان... ممَّ يشكو أبو خالد؟...

ثم بعد صمت قصير:

ـ أهذه نتيجة ثقتنا بك؟... ماذا تتصوَّر حال أمك عندما تعلم؟

وأحسَّ بذاك النصل الحاد ينغرس في صدره بقوة، فيما واصل الوالد قائلاً:

ـ أنا أعلم أنك لم ترتكب جريمة تُخل بالشرف، ولكنك ارتكبت حماقة ليس بعدها حماقة... عمل أهوج. تهوُّر. أنت إبننا الوحيد، هل فكَّرت كيف يكون حالنا لو حدث لك شيء؟... تعمل ضد الحكومة! مالك أنت والحكومة. هل ينقصك شيء؟... لقد كافحت وأمك كي نصل إلى ما وصلنا إليه من أجلك، وآخرتها تضعنا في هذا الموقف... هل تعتقد أن العمل ضد الحكومة قصة لأرسين لوبين تقرأها، أو لعبة لا تلبث أن تنتهي؟ الحكومة موت أحمر... هل فهمت.

كان الوالد يتكلَّم وهو في غاية التأثُّر، وكان واضحاً أنه يغالب دموعه، ولكنه كالعادة قيَّد مشاعره بقيد من حديد. وفي أثناء ذلك كان هشام يستمع صامتاً، ورغم شعوره بالإهانة عندما شبَّه والده ما قام به بقصَّة لأرسين لوبين، إلا أنه كان في غاية الألم وهو يرى والده في غاية الألم، ويتصوَّر مدى الألم الذي سيسبِّبه لوالدته عندما تعرف، ولا بد أن تعرف. ماذا يقول ليبرِّر ما فعل؟ هل يقول إن كل شيء حدث فجأة وبسرعة دون تخطيط وتفكير؟ إنه عذر أقبح من ذنب، فهو يضحِّي بمصيره ومصير والديه دون تفكير أو إحساس بالمسؤولية. لم يجد رداً مناسباً، ففتح فمه بصعوبة وهو يقول:

ـ معك كل الحق يا أبي... ولو أن الأسف والندم ينفعان، لتأسَّفت

لكما أبد الدهر، ولندمت بقية حياتي، ولكن ما حدث قد حدث... ولا راد لقضاء الله.

وابتسم والده بسخرية وهو يقول:

ـ حدث ما حدث!... لا راد لقضاء الله! أهذا كل ما لديك يا شيخ هشام؟ تفعلون الشيء وتقولون قضاء الله وقدره... دع الله وشأنه. إنه ليس لعبة تلعب بها متى شئت، وتتركها متى شئت.

وقبل أن يكمل الوالد كلامه، سمعا الباب الخارجي وهو يُفتح، فأحسَّ بشيء من الخوف يعتريه، رغم أنه يعلم أن عبدالمحسن هو القادم. نظر إلى والده بسرعة، وقال بتلعثُم واضطراب:

ـ المهم... ما العمل يا أبي؟

ـ ما العمل؟... ألم تفكِّر بذلك قبل أن تُقدم على ما أقدمت عليه؟

قال والده بحدَّة وعصبيَّة، ولكنه سرعان ما هدأ وهو يقول:

ـ لا أدري... سوف نفكِّر بالأمر على رويَّة. على أية حال، لا تذهب إلى الجامعة غداً، فقد يكونوا بانتظارك هناك.

وخطر عدنان على ذهنه فجأة، فقال:

ـ وماذا بشأن عدنان؟ يجب أن يعرف أنهم يبحثون عنا... يجب أن أذهب إلى الجامعة. هل أخبر المدير والده بما أخبرك به؟

ـ لا أدري... لا يهمُّني عدنان أو غيره. المهم لا تذهب للجامعة وافعل ما شئت. إسمع كلامي هذه المرة.

قال والده ذلك وهو ينظر إليه بقسوة لم يعهدها فيه، ثم حوَّل نظره عنه وقال بسخرية واضحة:

ـ لقد كنت تصنع ما تشاء، وكنا نعتقد أنك تصنع ما نشاء... فاصنع ما نشاء هذه المرة.

وعاد النصل المجنون ينغرس من جديد في أعماقه، فقال موافقاً:

ـ حسناً... سوف أذهب إليه في البيت قبل أن يذهب إلى الجامعة، لا بد أن يعرف.

في هذه الأثناء، كان عبدالمحسن قد برز من باب الدرج، وهو يحمل صينية كبيرة وضعها أمام الوالد وهو يقول: «هذي الساعة المباركة... هذا ليس قدرك طال عمرك، ولكن الجود من الموجود... سمو...»، «سم الله عدوك»، قال الوالد وهو يبسمل ويقطع رغيف «التميز» الحار، ويغمسه في صحن الفول الغارق في السمن. لقد كان عبدالمحسن «سِت بيت» ممتازة فعلاً، فقد أعدَّ فولاً بالسمن، وبيضاً مقلياً، وصحناً من التونة زيَّنه بشرائح الطماطم. أخذ الجميع في مضغ الطعام بصمت، ثم لم يلبث الوالد أن انتهى بسرعة وهو يقول: «كثر الله خيرك يا عبدالمحسن... سُفرة عامرة إن شاء الله»، «ما هذا؟... لم تأكل شيئاً يا عم!»، «الحمد لله... ما أحد يستحي في بيته...»، وحمل عبدالمحسن الصينية عائداً بها إلى المطبخ وهو يقول: «سأعد الشاي إذاً... المعذرة، فلا قهوة لدينا»، ونهض هشام قائلاً: «سوف أساعدك... بعد إذنك يا أبي» وضعا أطباق الطعام الذي لم يُمَس تقريباً في الثلاجة، ثم وضع عبدالمحسن إبريق الماء على «القز» وهو يقول بفضول:

ـ خير إن شاء الله؟... ما الذي جاء بوالدك إلى الرياض؟

ـ أبداً، لا شيء... الجهاز يبحث عني.

قال هشام بلا إكتراث وهو يغسل يديه في حوض المطبخ، فيما كان عبدالمحسن قد فغر فاه، وجحظت عيناه، وبدا كأن صاعقة قد ضربته، وقال باندهاش وبلاهة:

ـ ماذا؟... الجهاز؟... ماذا تعني؟

ـ أعني أن الجهاز يبحث عني لاعتقالي... لقد كنت عضواً في تنظيم سري، وقد انكشف كل شيء الآن.

ثم وهو يجفِّف يديه بفوطة المطبخ:

ـ الكل يعلم بالأمر الآن... الجهاز وأبي... فلِمَ لا تعلم أنت أيضاً! لِمَ لا يعلم الجميع إذاً... لا شيء يهم بعد اليوم.

بقي عبدالمحسن صامتاً لا يحير جواباً، وهو ينظر ببلاهة إلى هشام، حتى صفَّر إبريق الماء قاطعاً الصمت، فالتقطه عبدالمحسن بيد مرتجفة وهو يقول:

ـ عُد إلى والدك... سوف أُعد الشاي وألحق بك فوراً.

كان الوالد يصلِّي بعمق عندما عاد هشام إلى السطح، فانتظره حتى انتهى. وبعد أن انتهى من التسبيح والدُّعاء، نظر إليه، وقد عادت السكينة إلى وجهه، وقال:

ـ لقد استخرت الله، وألهمني القرار السليم بحوله وقوَّته...

ثم وهو يعتدل في جلسته:

ـ سوف تسافر إلى بيروت، وتبقى هناك حتى يفعل الله أمراً كان مفعولاً... ستدرس هناك، وبذلك لن يضيع عليك أي شيء.

بقي هشام صامتاً أثناء ذلك، مثل متَّهَم يتلقَّى الحكم عليه دون أن

يكون له دور أو رأي في كل ما يجري، فهو يتلقَّاه وينفِّذه وحسب، فيما واصل الوالد قائلاً:

ـ غداً صباحاً سوف أذهب إلى الجامعة وأسحب ملفك، ثم نذهب إلى بيت خالك، وبعد العصر سوف نغادر إلى الدمّام وندبِّر أمر سفرَك من هناك... ثم مستدركاً، وهو ينظر إلى إبنه نظرات ذات مغزى:

ـ وحتى تراك أمك... إن لها حق فيك كما تعلم.

وجاء عبدالمحسن بالشاي، وأخذ يصبه وهو يقول دون مقدِّمات:

ـ لقد أخبرني هشام بحكاية الجهاز... ولديّ رأي.

ثم قدَّم الشاي لأبي هشام، وواصل الحديث، غير عابىء بالنظرات الحادة التي كان الوالد ينظر بها إلى هشام:

ـ لا تغضب يا عم. هشام معه حق. إذا كان الجهاز يعرف كل شيء الآن، فلماذا لا يعرف كل أحد، فلم يعد هناك أسرار، وأنا لست أي أحد على أية حال... والا أنا غلطان؟

ثم قدَّم بيالة إلى هشام وهو يقول بحماس، دون أن ينتظر رداً:

ـ عندي فكرة... لِمَ لا يذهب هشام إلى القصيم ويختبىء هناك... أستطيع تدبير الأمر. وهناك لن يستطيع أحد الوصول إليه... ها... وش قلتم؟

كان كل جزء في جسم عبدالمحسن يتحدَّث من فَرط الحماس، وحرارة الإحساس بمغامرة مثيرة في الأُفق. ابتسم الوالد وهو ينظر إلى عبدالمحسن بإعجاب، ثم قال:

ـ بارك الله فيك يا بني... عز الله إنك أصيل. ولكني أعددت شيئاً

مختلفاً. والله يسوِّي فيه الخير...

وبعد أن نظر إلى أبيه، قال هشام بصوت خافت مستسلم:

ـ غداً سوف نغادر إلى الدمّام، ومنها يخلق الله ما لا تعلمون.

وفوجىء عبدالمحسن بهذا القرار السريع، فقال بعجل:

ـ بهذه السرعة؟... لم أكن أعلم أن النهاية تأتي هكذا. سريعاً ودون مقدِّمات. ثم بصوت متهدِّج قليلاً:

ـ ولكنك ستعود... أليس كذلك؟

ابتسم هشام وهو يقول بأسى واضح، وهو يغالب دمعة كانت تصارع للخروج من عينه، وينظر إلى الأعلى متجنِّباً نظرات عبدالمحسن:

ـ الله أعلم... الله أعلم.

وران صمت ثقيل، أحسَّ معه هشام وكأنَّ السماء قد انطبقت على الأرض، وهو بينهما غير قادر على النفاذ. وجاء صوت والده وكأنه قادم من بُعد آخر، أو من أزمان سحيقة اخترقت حواجز الزمن، وهو يقول:

ـ أعتقد أني سوف أنام على السطح... فغرفة هشام تزدحم بقاطنيها. لا حاجة للفراش، أحضر لي بطانية ووسادة يا هشام.

فقفز عبدالمحسن بخفَّة وهو يقول:

ـ حالاً... كل شيء سيكون جاهزاً.

وغادر والوالد يراقبه وهو يقول: «عز الله أنه وليدة»، ثم عاد وهو يحمل بطانيتين ووسادة، فرش بطانية على البساط، ووضع الأخرى مطويَّة على الطرف، ثم وضع الوسادة عند الطرف الآخر وهو يقول:

ـ لا بُد أنك متعَب يا عم... فالمسافة من الدمّام ليست بسيطة.

ـ معك حق... كما أن أمامنا يوماً شاقاً غداً.

قال الوالد وهو يتثاءب، ويخلع غترته وعقاله، ويلقي بنفسه على الفراش، فيما قال هشام:

ـ سوف أتحدَّث مع عبدالمحسن قليلاً... مَن يدري متى أراه. هذا إن رأيته. ونهض يتبعه عبدالمحسن، فيما كان صوت الوالد يتبعهما:

ـ لا تتأخَّر كثيراً، فسنصحو مع النجمة.

وبقي ساهراً إلى ما قبيل الفجر مع عبدالمحسن يدخِّنان ويشربان الشاي. كانت نفسه تنازعه شرب بعض العرق، ولكن عبدالمحسن كان له بالمرصاد.

ـ ٤٤ ـ

كانت الساعة تقترب من السادسة صباحاً حين أيقظه والده. غسل وجهه بسرعة، وارتدى ثوبه، وألقى ببقية ملابسه في الحقيبة، ورواية «ذكريات من بيت الموتى»، ووضع الغترة على رأسه، ثم حمل حقيبة الثياب، وحقيبة يد صغيرة، وألقى نظرة سريعة أخيرة على غرفته، وأطلق زفرة عميقة، ثم انطلق.

كان الوالد قد أعدَّ الشاي، وجلس يحتسيه في الصالة، عندما هبط هشام، وقد كان في غاية الضيق لعدم وجود قهوة مرَّة، ولكنه منَّى النفس بدلَّة كاملة في بيت الخال. أما هشام، فقد كانت شفتاه تحرقانه شوقاً إلى سيجارة، ولكن ذلك مُحال بوجود الوالد. إنه يعلم أن والده يعلم أنه

يدخِّن، فمثل هذه الأمور لا تُخفى على رجل مجرَّب مثل والده، ولكن من المُحال أن يدخِّن أمامه حتى وهو يعلم. أنهى والده شرب الشاي بسرعة، ثم نهض وهو يقول: «هيا... لقد آن أوان الذهاب»، وانطلق إلى الخارج يتبعه هشام. وقبل أن يُغلق الباب، تذكَّر هشام شيئاً، فوضع الحقيبتين في السيارة وقال: «بعد إذنك يا أبي... سوف أكتب شيئاً لعبد المحسن»، وانطلق إلى الداخل وصوت والده يلاحقه: «لا تتأخَّر. خير النهار أوله». صعد إلى غرفته، وتناول ورقة وقلماً وكتب:

عزيزي عبدالمحسن... لا أدري متى أراك مرة أخرى، ولكن تأكَّد أن صداقتنا باقية ما بقينا، وإن فرَّق الزمان والمكان بيننا. أترك لك الغرفة بما فيها، ولكن أرجو المحافظة على الكتب حتى نلتقي، والرأفة بحال الأرامل. أرجو أن تحصل على بعثة لأميركا، ولعلَّنا نلتقي هناك... مَن يدري... سلامي الحار لمحمد ودعيس. سأفتقدكم جميعاً.

المحب: هشام

طوى الورقة بعناية، ثم هبط إلى غرفة عبدالمحسن الذي كان يغط في نوم عميق، ووضعها على الطاولة الصغيرة بجانب سريره بالإضافة إلى مفاتيح المنزل، ثم ألقى نظرة أخيرة على وجه صاحبه، وانطلق إلى الخارج.

هبط عند تقاطُع الخزّان مع العصارات، ووصف لأبيه كيفية الوصول إلى الكلية، واتَّفقا على الإلتقاء في منزل الخال، ثم ركب «خَط البلدة» إلى البطحاء. وطِوال الطريق إلى «الحلة» كان يدعو الله ألا يكون عدنان قد غادر المنزل، وكان مطمئناً بعض الشيء حيث أن الساعة لم تكن قد

تجاوزت السابعة إلا بعدَّة دقائق. كان الزقاق ممتلئاً بالحياة، فالناس هنا يبدأون حياتهم بعد صلاة الفجر مباشرة. طرق الباب طرقات خفيفة، وعندما لم يأته جواباً، أعاد الطرق بقوة وهو قلِق. ثم فُتح الباب عن وجه أحد زملاء عدنان بلحيته الكثَّة، ورأسه الحليقة تماماً، وهو يرتدي سروالاً طويلاً بتكَّة كان يحاول شدَّها وهو يفتح الباب ويتثاءب. ألقى السلام، وسأل عن عدنان، فأدخله إلى المجلس. وما هي إلا دقائق، وكان وجه عدنان الدقيق يطل من الباب، وقد علته علامات القلق والرهبة، وهو يقول بلهفة واضطراب، دون إلقاء السلام:

ـ خير... خيراً يا هشام. لا أظنُّك جئت زائراً في مثل هذه الساعة!

وبدون مقدِّمات، قال هشام:

ـ إنهم يبحثون عنا. لقد وصلنا الدور يا... رفيق.

وجلس عدنان صامتاً، وقد أخذت يداه ترتجفان بعنف، وعلت الصفرة وجهه بشكل واضح، وأخذ العرق يغطِّي جبهته وزوايا أنفه، رغم برودة الطقس في هذا الوقت من الصباح، ثم قال بتلعثُم واضح:

ـ أبَعْد كل هذه المدة!... مَن أخبرك بذلك؟ لا بد أنه خبر كاذب. أو أنها...

وقبل أن يُكمِل جملته، قاطعه هشام قائلاً:

ـ لقد أخبرني والدي... جاء إلى الرياض ليلة البارحة، بعد أن أخبره مدير المدرسة أنهم يبحثون عنا هناك. الخبر مؤكَّد، وقد وجدْت من واجبي إخبارك.

نظر إليه عدنان بعينين انطفأ كل بريق للحياة فيهما وهو يردِّد:

«جزاك الله خير... بارك الله فيك... طول عمرك نشمي»، وكانت كل ذرة في جسده ترتعش بعنف، والعرق يصب صباً، فيما سأله هشام:

ـ ماذا أنت فاعل؟... علام عزمت؟

ـ لا أدري.

أجاب عدنان بتلقائية، ثم قال:

ـ لا بد أن يعلم والدي بالأمر... لا بد أن لديه حلاً.

ثم نظر إلى هشام وقال:

ـ وأنت... على ما عزمت؟

ـ والدي ينتظر في منزل خالي... سنعود إلى الدمّام، ومن هناك سأغادر إلى بيروت... لِمَ لا تأتي معي؟

ـ كلا... لا أستطيع... لا بد أن يعلم والدي بالأمر أولاً. أرجو أن تُبلغوه بالأمر عندما تصلوا الدمّام.

ـ لا عليك، سوف نفعل.

ـ قُل إن شاء الله...

ـ إن شاء الله...

ونهض هشام متَّجهاً إلى الباب الخارجي، وتبعه عدنان وهو يجر رجليه جراً. وعند الباب، نظر هشام إلى صديق طفولته، وحاول أن يرسم إبتسامة لا مبالية وهو يقول:

ـ لا تقلق... كل شيء سوف يكون على ما يرام. إن شاء الله.

ولم يكن صادقاً في تفاؤله، فقد كان الرعب يهز كيانه هو الآخر،

وغير واثق فعلاً من أن كل شيء سيكون على ما يرام. وبعد أن سار عدة خطوات، عاد أدراجه وكأنه نسي شيئاً، وقال:

ـ على أية حال، من الأفضل ألا تذهب إلى الكلية من الآن وصاعداً، حتى تهدأ الأمور.

وهزَّ عدنان رأسه موافقاً وهو يقول:

ـ معك حق... وعلى أية حال قُل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا ونِعم النصير.

وسار هشام في طريقه، وقبل أن يختفي في أحد المنعطفات، نظر إلى الوراء نظرة أخيرة، فرأى عدنان لا زال واقفاً بالباب. أشار له من بعيد، فردَّ الآخر الإشارة، ولم يكن يعلم أن تلك الإشارة كانت آخر العهد بعدنان.

ـ ٤٥ ـ

لم يكن في المجلس غير والده عندما وصل بيت خاله. كان يجلس وبين يديه صينية فضية، يتوسَّطها دلَّة كبيرة من القهوة، وطبق فيه بعض «السكري». كان النوى المتناثر في الصينية يدل على العدد الكبير من حبات التمر التي أكلها، كما أن الدلة كانت شبه فارغة. لم يكن هناك ما يمكن أن يتحدَّثا به، فأخذ يأكل من التمر دون شهوة، وصبَّ لنفسه فنجاناً من القهوة أخذ يحتسيه دون رغبة حقيقية. كان لا بد أن يقول شيئاً، فقال: «السكري... إنه نوع جيِّد من التمر يا أبي، أليس كذلك؟»، «نوع جيِّد!... إنه أجود الأنواع، لا يضاهيه في الحلاوة إلاَّ

البرحي حين يكون بسراً... السكري ملك التمور، والبرحي ملك البسر»، ثم ساد الصمت. وأخذ يفكِّر في موضوع يمكن أن يتحدَّثا به، ولكن والده أنقذه من عناء التفكير حين لفَّ شماغه حول رأسه، واتَّجه إلى أحد زوايا المجلس وهو يقول: «لم أنم جيداً ليلة البارحة، سوف أغفو قليلاً فوراءنا مشوار طويل»، وما هي إلا دقائق، حتى علا شخيره.

كان الوقت لا يزال مبكِّراً، فالساعة لم تتجاوز التاسعة إلا قليلاً، وما زال هناك وقت طويل قبل الرحيل، وليس لديه رغبة في قراءة أو أي شيء آخر، وكل شيء في داخله متوتِّر ومنقبض بشكل غير عادي، ولا يدري ماذا يفعل. وخطرت جواهر على باله، فابتسم... لقد كاد أن يسافر دون أن يراها، فعزم على لقياها ومحاولة تفسير سفره دون أن يُعلمها بحقيقة الأمر بالطبع. وانتهز فرصة نوم والده، فانسحب من المجلس باتِّجاه الباب الخارجي. وقبل أن يفتح الباب، جاءه صوت موضي من الخلف قائلاً: «إلى أين؟... هل أصبحت لا تطيق المكوث في هذا البيت؟» ارتبك من المفاجأة، فاستدار بسرعة وقال وهو يبتسم: «أبداً... ولكني أردت الترويح عن النفس قليلاً». وبسلوك لم يعتده منها من قبل، وبشكل مفاجىء، أمسكت موضي بيده، وسحبته إلى «المقلط» بسرعة، وأجلسته في أحد الأركان، وأغلقت باب الغرفة، ثم جلست قبالته وقالت بحزم ودون مقدِّمات:

ـ إسمع يا هشام... أنت إبن عمتي، وتعرف معزَّتك عندي منذ أن كنا صغاراً.

وصمتت قليلاً ثم واصلت:

ـ لذلك أود أن أسألك سؤالاً صريحاً، وأريد إجابة واضحة دون لَف

أو دوران، وثِق أن ما تقوله لن يغادر هذا المكان... ما هذا السفر المفاجىء؟ لسنا في موسم إجازات، ووالدك لا يأتي إلى الرياض إعتباطاً... إن قلبي يحدِّثني أن هناك شيء مريب في الأمر. أصدقني القول يا هشام؟

ونظرت إليه بعينين واسعتين تكادان تخرقان حجابها الذي رقَّ كثيراً، فأصبح لا يكاد يستر شيئاً. كان يعلم بمدى ذكاء موضي، ولكنه كان يخشى من كشفها لأمر علاقته مع سوير، أما وقد سألته مباشرة، فهو متردِّد في أن يقول لها الحقيقة. لم يكن يخشى شيئاً، ولكنه كان خائفاً من إيلامها. وأخيراً قرَّر أن يقول لها الحقيقة، فهي لم تهدأ حتى تعرفها، وإن لم تعرفها، ذهبت بها الظنون كل مذهب، وقد يقودها ذلك إلى التحرِّي عن علاقته بسوير. أخبرها بكل شيء، فكان رد فعلها الصمت والعيون الجاحظة والفم المفتوح، ثم صرخت بحدَّة: «يا ويلي... يا ويلي... يا ويلي...»، وهي تضرب بيدها على صدرها، وأخيراً انخرطت في بكاء طويل. وبدون شعور، أمسك هشام بكفِّها، ووضعه بين كفَّيه، وأخذ يربِّت عليه بهدوء وحنان، وهو يردِّد: «لا تقلقي... قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا...»، تاركاً إياها تبكي ما طاب لها البكاء. وأخيراً كفكفت دموعها، وجذبته فجأة إلى صدرها، واحتضنته وعادت إلى البكاء من جديد، ثم نهضت وهي تقول من بين دموعها: «كل هذا يجري ولا أدري!... وما كان يمكن أن أدرى لو لم أسألك!... كنت أعتقد أن مكانتي عندك أكبر من ذلك». «أنت تعلمين مكانتك عندي، ويعلم الله كم أنت عزيزة عليّ... ولكن... هي الظروف»، قال هشام بصدق وإخلاص. وعادت إلى مجلسها قبالته، وجلست مقرفصة على ساقيها، وقرَّبت وجهها من وجهه

حتى أحسَّ بحرارة أنفاسها تلفح وجهه، ثم قالت بصوت أشبه بالفحيح: «وماذا بشأن سارة؟... أهي عزيزة عليك أيضاً، أم أكثر من ذلك؟». وانتفض في مكانه كأن أفعى لدغته، وتقلَّصت معدته بشدة، وأحسَّ أنها تكاد تخرج من مكانها، وأخذ رأسه يغلي من الداخل، ولكنه حاول أن يمسك زمام نفسه وهو يقول ببلاهة:

ـ سارة؟... مَن هي سارة؟

نظرت إليه بعينيها المبلَّلتين وهي تقول بمكر وسخرية:

ـ يا سلام... يعني ما تعرفها. سارة... جارتنا... زوجة عليان...

ـ إيه... زوجة عليان. ماذا بشأنها؟

كان يحاول السيطرة على ذرات جسمه المضطربة، ولكنه لم يفلح، إذ أخذت يداه ترتجفان وهو يحاول إخفائهما في حجره. واقتربت منه موضي أكثر بوجهها، حتى أنه استطاع رؤية بثور الشباب في وجهها رغم الحجاب، وقالت هامسة:

ـ لا تلعب علي يا هشام... ما هي العلاقة التي بينكما؟ إنها لا تتحدَّث إلا عنك في زياراتها التي كثُرت...

قاتلك الله يا سوير، إني أزورك كل يوم، فلِمَ تزورين بيت الخال... لقد جنَّت تلك المرأة، أو أن لديها خططاً لا يدريها.

ـ صدِّقيني يا موضي... ليس بيني وبينها أية علاقة... أنت تعرفينني... لست من ذلك النوع من الفتيان.

كان يحاول استثارة صورته الملائكية عندها، ولكنها تراجعت إلى الوراء وهي تقول:

ـ كنت أعتقد ذلك... حتى رأيتك تتسلَّل من بيتها ذات أصيل.

وانفجرت القنبلة... وأحسَّ بدوار شنيع يلفه، وكأنه في وسط دوامة مائية، أو «عاصوف» مدمِّر من عواصيف صحراء نجد القاتلة في أيام الصيف الحارقة. وكان يتراءى له تمثال ناصع البياض لأحد آلهة الإغريق وهو ينفجر شظايا دقيقة لا حصر لها... لقد انكشف كل المستور دفعة واحدة إذاً، ويبدو أن المصائب لا تجيء فرادى كما يقولون. ولكنه حاول الدفاع للمرة الأخيرة، وهو موقن ألا فائدة من ذلك، ولكنها سكرات الموت وصحوته، فقال:

ـ لا ريب أن الأمر قد التبس عليك... أليس من الممكن أن يكون ما رأيت هو زوجها أو أحد أقاربها؟

ثم وكأنه اكتشف أمراً:

ـ ثم كيف رأيتني أتسلَّل من هناك كما تزعمين؟...

إلا أن موضي قالت بهدوء، وبصوت واضح فيه الأسى والحزن:

ـ فعلاً... يا ما تحت السواهي دواهي كما يقولون... يا لك من ماكر يا هشام. كل هذا يطلع منك!... مَن يراك يعتقد أنك حملاً وديعاً، ولكنك. ولكنك... لا أريد أن أقول. حريم وسياسة والله أعلم وش بعد... الشرهة مهيب عليك، الشرهة على...

ولم تُكمل جملتها، إذ خنقتها العبرة، ثم بعد أن مسحت دموعها:

ـ كنت في الغرفة العليا، غرفتك سابقاً، أتفقَّدها، فوجدت بعض المأكولات المنسية على حافة النافذة، فأردت أن أزيلها، وحانت مني نظرة إلى الشارع، فرأيتك تتسلَّل من هناك... وأنا لست غشيمة عن

زولك، حتى لو كنت وسط ألف رجل لعرفتك.

ولم يجد مفراً هذه المرة... تلك النافذة اللعينة، هي التي أوصلته إلى ما هو فيه... لن أفتح نافذة بعد اليوم. قال ذلك لنفسه، ثم نظر إلى موضي بعين فقدت جرأتها وقال:

ـ لقد أخطأت يا موضي... ولك الحق أن تحتقريني ولا تصدقيني بعد اليوم، ولكن صدِّقيني أن علاقتي بسوير علاقة بريئة. مجرَّد سواليف... ليس هناك ما تتصوَّرين.

نظرت إليه وقد زوت ما بين عينيها وقالت:

ـ وتدلِّعها بعد... أية علاقة بريئة هذه؟! إيه... ليس لي إلا أن أصدِّق، رغم أني لا أصدِّق.

ثم ساد الصمت للحظات، كانت عينا موضي لا تفارقان وجه هشام، وهو غير قادر على إحتمال نظراتها، فكان يحاول أن يجيل نظره في أي شيء، ثم قالت موضي:

ـ ما الذي أعجبك فيها؟

ودُهش هشام لهذا التغيُّر الذي لم يكن يتوقَّعه في الحديث، ولكن موضي لا تمنحه الفرصة حتى للإندهاش:

ـ إنها سمينة مثل البقرة، وسمراء مثل التمرة اليابسة... وكنت أشك في أخلاقها دائماً. أنا متأكِّدة أنها هي التي أغوتك. ولا ريب أنها أغوت كثيرين غيرك. صدِّقني يا هشام، أنا أعرف هذا النوع من النساء اللاتي يتصيَّدن الأبرياء مثلك... ولكنك غر لا تعرف الحياة بعد.

وابتسم هشام في سرِّه، وقال لنفسه: «إن كنت بريئاً وغراً وفعلت ما فعلت، فكيف لو لم أكن كذلك؟... ما علينا...».

ـ ما علينا من سارة الزقان وألاعيبها... ماذا ستفعل؟

ـ بماذا؟

ـ بالمصيبة اللي أنت فيها... الجهاز.

لقد نسي تماماً موضوع الجهاز بعد أن فجَّرت موضي قنبلتها، ولكنّ ها هو يعود إلى دوامة الرعب من جديد. اعتدل في جلسته، وشبك كفيه حول ركبتيه وهو يقول ساهماً:

ـ سوف أسافر... سوف أغادر البلد حتى تهدأ الأمور.

ـ وإلى أين ستذهب؟

ـ إلى لبنان... هكذا اتَّفقت مع الوالد.

«بل هكذا أراد الوالد... المهم... لينتهِ كل شيء بأية طريقة»، كان يحدِّث نفسه، فيما كانت موضي تقول بصوت هامس، وكأنها تحدِّث نفسها هي الأخرى: «لبنان؟... تترك سارة لتذهب إلى ألف سارة...».

ـ ماذا؟

ـ لا شيء... لا شيء...

ثم نهضت وهي تمسح عينيها بطرف غدفتها، واتَّجهت إلى الباب وهي تقول: «المهم أن تعود إلينا سالماً... ليحفظك الله...»، وأسرعت في الخروج. ولكنها ما لبثت أن عادت مرة ثانية، ووقفت عند الباب وهي تقول:

ـ هشام... هل لو كشفت لك وجهي أكون قد تجاوزت حدودي؟

ـ ليس بيننا حدود يا موضي... ستبقين موضي العزيزة سواء تحجَّبتِ أو كشفتِ...

وبحركة مفاجئة، أزالت موضي غدفتها كاشفة عن وجهها، ثم تقدَّمت منه، وطبعت قبلة سريعة على خدِّه، ونظرت إليه بعينين حمراوين مبتلَّتين، وغادرت بسرعة بخطوات مرتبكة.

بقي لفترة لا يعلم مداها جالساً في المقلط، سارحاً في لا شيء وكل شيء، غير قادر على الحركة أو التفكير. ولم يوقظه من سرحانه إلا سعيد وهو يخبره أن في الباب شخصين يسألان عنه. وانتابته رجفة شديدة، واحتلَّه الرعب تماماً... مَن يكونان؟ الجهاز؟... سوير أو عليّان؟... كل شيء ممكن عندما تحل المصائب مجتمعة. نهض وهو يجر رجليه جراً، ويكاد يغمى عليه مع كل خطوة نحو الباب. لم يكن الشخصان إلا عبدالمحسن ومحمد، فعاد إلى صوابه، وأحسَّ بالعافية بعد السقم. عانقه محمد بقوة وهو يقول بتأثُّر: «لا عليك... كل شيء سوف يكون على ما يرام... عاصوف وسينتهي»، قُل إن شاء الله...»، «إن شاء الله...» لقد أخبره عبدالمحسن بكل شيء إذاً. نظر إليَّ عبدالمحسن بمودَّة وهو يقول: «عندما نهضت ولم أجدكما، أيقنت أنكما لا بد أن تكونا هنا، وكان لا بد أن أراك قبل أن ترحل»، ثم وهو ينظر إلى محمد: «لم أذهب إلى الكلية اليوم... كالعادة كما تعلم. وذهبت إلى محمد في الكلية، وأخبرته بكل شيء، فأصرَّ على المجيء معي هنا... أردت الذهاب إلى دعيس في الكلية، ولكني أعلم أن دعيس لن يترك الكلية لأي سبب من الأسباب، ولا لزوم لإزعاجه الآن، فهو سيعرف كل شيء لاحقاً». نظر هشام إلى صاحبيه بحب وامتنان، وأحسَّ أنه ليس وحيداً، ثم دعاهما إلى الدخول، وطلب من سعيد إعداد الشاي. كان محمد يريد أن يعرف كل شيء بالتفصيل، فلم يبخل عليه هشام بذلك... إنه يعلم أنه سيقول كل شيء هناك، فلِمَ لا يقوله هنا أيضاً.

استمر الثلاثة في حديثهم الهامس، حتى استيقظ الوالد على أصواتهم رغم الهمس. ثم ابتدأ أصحاب الدار في القدوم: عبدالرحمن أولاً، ثم الخال، فمحمد. أما حمد وأحمد، فلم يظهرا ذلك اليوم. أصرَّ الخال على بقاء عبدالمحسن ومحمد للغداء، وما لبث الجميع أن تحلَّقوا حول «تبسي» الأرُز، وأطباق الجريش والقرصان. وأثناء الغداء، كان الخال يحاول أن يتبيَّن سر هذه الزيارة المفاجئة، والسفرة المفاجئة، بأسئلة تفوح منها رائحة الشك، ولكن الوالد حاول أن يفهمه أن أعمالاً بسيطة تستوجب وجود هشام في الدمّام. اقتنع الخال على مضض، وهو يعلم أن هناك شيئاً أكبر من ذلك، ولكنه لا يدري ما هو، ولكن كل شيء سيتبيَّن في حينه. لم يكن الوالد يريد إزعاج أحد، وهو يعتقد أنه قادر على حل المشكلة، وسينتهي كل شيء بسلام، فلا داعٍ لأن يعرف أحد. ولو لم يكن هشام أخبر عبدالمحسن وموضي، لبقي كل شيء طَي الكتمان، كما كان يريد الوالد.

وأُزِفَت ساعة الرحيل. ودَّعا الجميع، وركب إلى جانب والده في البيجو الخضراء، وانطلقت السيارة مثيرة الغبار من ورائها، والصبية يلاحقونها مستمتعين بالغبار المثار. وقبل أن تصل السيارة إلى شارع الشميسي الجديد، نظر هشام وراءه، فرأى عبدالمحسن ومحمد يقفان في منتصف الطريق، بين منزل الخال ومنزل سوير. كان واثقاً أن موضي تنظر من إحدى النوافذ، وأن سوير قد سمعت صوت السيارة، ولكنها لا تدري أنها تقل هشام إلى حيث لن تراه بعد اليوم ربما. إنه يشعر بالذنب لعدم قدرته على رؤيتها قبل أن يسافر، ولا شك أنها سوف تسأل موضي عنه، ولكنه لا يدري كيف ستقابلها موضي، هذا إن قابلتها، بعد أن تأكَّدت من العلاقة بينهما. ولا شك أن سوير ستعتقد فيه الغدر والخيانة،

ولكن ما يغفر له أنه كان يفكِّر فيها في آخر لحظة له في الرياض.

وعند منعطف الشارع، اتَّجه الوالد شرقاً، واختفى الأصدقاء والمنازل، ولم يبقَ إلا أطياف باهتة، وسؤال ملح واحد في الذهن... هل ما في أحشاء سوير منه أم من عليان أم من غيرهما؟ إنه في غاية الحيرة، تارة يتأكَّد من أنه منه، وتارة يقتله الشك، وهو لا يدري... ويبدو أنه لن يدري... وربما يدري، فلا أحد يعلم ما تحمله الأيام...

ـ ٤٦ ـ

كان الثلث الأول من الليل يوشِك على الإنتهاء عندما وصلوا الدمّام، وكانت المدينة هادئة هدوء الأموات، تكاد الحركة تنعدم فيها، إلا من بعض سيارات الأمن التي كانت تجوب الشوارع في حركة روتينية معتادة. لطالما أحب هذه المدينة وعشقها، حتى أن الشوق إليها كان يجتاحه قبل مضي أسبوع واحد لمغادرتها حين يغادرها، ولكنها اليوم كريهة إلى نفسه ومنفرة مثل جثة فاسدة. حتى رائحة البحر، ورائحة غاز النفط المنبعثة من الآبار القريبة في الظهران وبقيق، أصبحت منتنة هذه المرة أكثر من أي وقت مضى. في الماضي حين يكونون عائدين من الرياض، وتظهر تلك النيران المشتعلة على الطريق، كان يستنشق رائحة غازها بقوة ولذة وشوق، أما اليوم فهي أنتن بكثير من نتانة رائحتها الطبيعية.

كان «كمب البدو» أول أحياء الدمّام، وعمّا قليل سوف يصلون إلى «العدامة» حيث منزلهم. ولكن الوالد لم ينحرف يساراً إلى العدامة، ولكنه استمرَّ في طريقه باتِّجاه حي «مدينة العمال». استغرب الأمر، فسأل والده مازحاً: «ما الأمر يا أبي؟... هل ضللت الطريق؟»، وبدون أن

يلتفت إليه قال: «لا بد أن منزلنا مراقب الآن... سوف نذهب إلى منزل عبدالله الزعفراني، ستمكث عنده بعض الوقت لحين تدبير أمورك...»، وعاد الرعب يجتاحه من جديد. المسألة حقيقية إذاً... إنه ملاحَق فعلاً. لطالما تمنَّى أن ينجلي كل شيء عن كابوس مريع لا يلبث أن يفيق منه، ولكنه ليس كابوس نائم، وأضغاث أحلام.

ترجَّل والده من السيارة، واتَّجه نحو ذلك الباب الفولاذي المزخرَف، وأخذ يطرقه طرقات خال معها هشام أن كل الحي سيستيقظ، وأن سيارات الأمن ستحاصرهم في الحال. لقد كان السكون مسيطراً بحيث أحسَّ أنه يسمع دقات قلبه، وصوت أنفاسه بكل وضوح، وهو قابع في السيارة تدور عيناه في كل مكان. وتكرَّر الطرق، ومع كل طرقة كان يحس أن قلبه يقفز من مكانه، وتتلاحق أنفاسه، وينظر في كل الإتجاهات، ثم يعود بنظره إلى والده هناك، وكأنه يرجوه أن يتوقَّف عن الطرق، ويعودا إلى المنزل حيث الأمان وأحضان الوالدة الدافئة. وأخيراً انفتح الباب، وأطلَّ منه وجه عبدالله وقد اكتسى بكل علامات الغضب، فمَن هو المزعج الذي يزور الناس في هذا الوقت المتأخِّر من الليل. ولكن أساريره لم تلبث أن انفرجت عندما وجد أبو هشام أمامه، فأخذ يرحِّب ويهلِّي بصوت مرتفع، داعياً إياه إلى الدخول. ودون كلام، أشار له والده أن يترجَّل، ودخل الجميع المنزل وعبدالله يُغلق الباب وكله حيرة من هذه الزيارة المفاجئة في أنصاف الليالي. جلس الجميع في المجلس وهُم صامتون، فيما الفضول الشديد قد بدأ يبرز من عيني عبدالله الصغيرتين الممتلئتين بالنوم، وهو يحك صلعته الملساء التي تخفيها طاقية لا تغادر رأسه كل الأحيان، وابتسم هشام وهو يرى صلعة عبدالله الملساء الداكنة، كبشرته الخروبية، فطالما تحسَّس هذه الصلعة

بمتعة عندما كان صغيراً. وأخيراً تحدَّث الوالد فقال: «نحن لتونا قادمان من الرياض... ليتك تسعفنا ببعض الماء البارد والقهوة» فغر عبدالله فاه بشدَّة، وأخذ يحك صلعته وهو يقول: «الرياض!؟... خيراً إن شاء الله؟... ما الخطب؟... ما...»، وقاطعه الوالد قبل أن يكمل قائلاً: «ستعرف كل شيء لاحقاً، المهم القهوة هالحين...» وانطلق عبدالله إلى داخل المنزل وهو يردِّد: حالاً... حالاً...»، ثم عاد بعد لحظات، وقد لبس ثوباً أبيض، بعد أن كان بسروال النوم، وجلس قبالة الوالد، ومدَّ عنقه باتِّجاهه وهو يقول بحماس وفضول: «ها... وش صاير... إليَّ بالقصة... تُرى ما عاد بي صبر...».

عبدالله الزعفراني... أحد أربعة أصدقاء توطَّدت العلاقة بينهم إلى أقصى حدودها. فقد كان هو ووالد هشام وحمود الشحام ويحيا العلي، والد عدنان، يكوِّنون رباعياً حميماً عُرف بذلك عند كل الجماعة في الدمّام. رجل واسع الثقافة، وإن لم يكن يقرأ، ومع ذلك كان من محبي الكتب، ذو وجه مريح بشوش ترتسم البسمة على وجهه تلقائياً، خفيف الظل، سريع البديهة، يجبرك على حبِّه من أول لقاء، رغم أن شكله الخارجي لا يحمل أي بصمة من الوسامة. فهو قصير القامة، ممتلىء الجسم بكرش كبير يتقدَّمه، داكن البشرة، غليظ الشفتين، أجعد الشعر، مع صلعة كبيرة تتوسَّط الرأس، وأنف ليس إلا فتحتين في منتصف الوجه. إنه لا يذكره إلا وهو يتحدَّث في السياسة دائماً، واشتهرت تحليلاته السياسية بين الجماعة، وأصبح مرجعاً في التحليل السياسي. ولطالما جلس هو ووالده وحمود الشحام ويحيا العلي حول منقل الفحم في ليالي الشتاء الباردة، يحتسون الحليب الساخن بالزنجبيل، ويحرِّكون مفتاح الراديو في كل اتِّجاه بحثاً عن خبر هنا أو هناك، ثم يستقر المؤشِّر

على «صوت العرب» أو «هنا لندن»، ثم يبدأون النقاش والتحليل، الذي لا يلبث عبدالله أن يتسيَّده. وفي أيام الصيف الحارة، كانوا يفترشون أرض الحديقة الصغيرة، يشربون الشاي ويمارسون الطقس نفسه. أما أيام الجمع، فهي مخصَّصة بالكامل لهيكل و «بصراحة» في الأهرام، التيّ يستمعون لقراءة لها في «صوت العرب»، يحاولون أن يقرأوا ما بين السطور، ومعرفة ما يفكِّر به الزعيم القائد. يذكر ذات يوم أنه كان عائداً من المدرسة في يوم عادي من أيام الدمّام الحارة الرطبة، فإذا بعبدالله الزعفراني يقف بسيارته أمام منزلهم بسيارته «الأوبل» البيضاء. وما أن رآه قادماً، حتى ترجَّل من السيارة بسرعة، وبيده كيس ورق ملفوف بعناية. سحبه بيده دون كلام إلى أحد الزوايا الخلفية للمنزل، ثم دفع إليه الكيس وهو يتلفت يمنة ويسرة، وقال بعجل: «عندي لك هدية... شيء لا يصلح إلا لك... حصلت عليها اليوم، فقلت هذه لا تصلح إلا لهشام، ولم أستطع الإنتظار حتى وقت مناسب»، ثم دفع إليه الكيس وهو يقول مبتسماً: «سوف تعجبك الهدية...»، وعاد إلى سيارته بسرعة. دخل هشام إلى غرفته مباشرة وقد استولت عليه الإثارة، وفتح الكيس على عجل، وكان هناك كتابان، أحدهما «طبائع الإستبداد» للكواكبي، والآخر «العالم ليس عقلاً» لعبدالله القصيمي. كان يعرف بعضاً من أفكار الكواكبي، أما القصيمي، فتلك كانت أول مرة يتعرَّف عليه. وقرأ «العالم ليس عقلاً»، وساح مع شطحات وتهويمات القصيمي الشكية والعبثية والبوهيمية، ووجد كل اللذة والحيرة في تلك الشطحات. أما «طبائع الإستبداد»، فقد حفظها تقريباً عن ظهر قلب. لقد كانت هدية رائعة بالفعل، وأصبح كلما رأى عبدالله، تتراءى له صورة الكواكبي بعمَّته ولحيته وسماحة وجهه...

«والآن ما هي الحكاية؟... أريد التفاصيل...»، قال عبدالله وهو يصب القهوة التي وضعتها زوجته أمام باب المجلس. شرب الوالد فنجان قهوة بسرعة، وتناول آخر أخذ منه رشفة ثم وضعه على الأرض، ثم شرب كأساً من الماء، وكانت عينا عبدالله لا تفارقان فَم الوالد طوال الوقت، فيما تحوَّل أنفه إلى مدخنة حقيقية. أما هشام، فقد كان قابعاً في مكانه وكأنه كَم مهمَل، يشرب الشاي ويعيش في عالمه الخاص. وبعد أن احتسى الوالد فنجانه الثالث، أحسَّ بالإسترخاء، نظر إلى عبدالله وقال: «إليك الحكاية...»، ثم قصَّ عليه كل شيء. وأخيراً قال الوالد: «وقد قرَّرت تسفيره إلى بيروت حتى تهدأ الأمور»، وأخذ يشرب شايه ببطء، ثم قال: «ولكن قبل ذلك سيبقى عدة أيام في الدمّام حتى ندبِّر الأمور، ومنزلي لا ريب مراقب، لذلك فكَّرت أن أُبقيه هنا... عندك لبعض الوقت. هذا إن لم يكن لديك مانع؟...»، وانتفض عبدالله قائلاً: «مانع!... هشام ولدي قبل أن يكون ولدك»، ثم وهو ينظر إلى هشام ضاحكاً: «أثرك مانت بسهل يا هشام... كل هذا يجي منك!... وحنا اللي كنا خايفين عليك من عزلتك وإنطوائك»، ثم وهو ينظر إلى الوالد: «هشام في عيوني... رح وأنت مطمَّن»، «هذا هو العشَم يابو صالح، لو ما كنت واثق ومطمَّن مانصيتك، وإلا عيال الناس واجد...»، قال الوالد وهو يهم بالنهوض، ونهض معه هشام لجلب أغراضه.

جلس في المجلس منتظراً، فيما كان أبو صالح في الداخل يُعد مكاناً لإقامته التي لا يدري كم تطول. ولم يلبث أبو صالح أن جاء، وقاده إلى غرفة إبنه صالح قائلاً: «لم تجد أم صالح حاجة لأن تفرش لك فراشاً، فبإمكانك استخدام غرفة صالح، فهو ينام على السطح، ولا

أحد يستخدم هذه الغرفة»، ثم أغلق الغرفة قائلاً: «إذا احتجت أي شيء، فما عليك إلا أن تدعو صالح... تصبح على خير»، وأغلق الباب، وتركه للرطوبة الشنيعة التي تملأ ثنايا الغرفة. كانت غرفة صغيرة، بنافذة واسعة تطل على حديقة صغيرة كحديقتهم، يتوسَّطها بساط صغير، وفي أحد أركانها سرير صغير، شبيه بسريره في الرياض، وأصغر من سريره في الدمّام. وفي الركن الآخر طاولة دراسة وكرسي، بالإضافة إلى رَف عليه بعض القصص والمجلات. كانت الحرارة والرطوبة لا تُطاقان، رغم أن الصيف رسمياً لم يدخل بعد، فلا زالوا في النصف الأول من حزيران، ولكن هذه هي الدمّام... لا ترحم، وأحسَّ بالجوع يعضه، فهو لم يتناول شيئاً منذ وجبة الرياض، التي لم يأكل منها الكثير، وأبو صالح لم يعرض عليه شيئاً، وهو يخجل من طلب أي شيء في هذا الوقت المتأخِّر من الليل، إنهم في الصباح الباكر تقريباً. خلع ملابسه وحاول النوم، ولكن الجوع والحرارة والرطوبة لم تدعه يقدر على ذلك، فأخذ يتقلَّب على السرير والوساوس تحاصره من كل جانب. نهض، وأخذ يقلِّب القصص والمجلات على الرف، التقط قصة بعنوان «سنواتنا الذهبية السعيدة»، للورا إنكلز وايلدر، وعاد إلى السرير وأخذ يقرأ... وغاب مع لورا وماري وكاري والمانزو في براري الغرب الأميركي...

ـ ٤٧ ـ

نهض في الصباح على طرق الباب، وكان يسبح في عرقه، وقد جعلت الرطوبة رائحة جسده لا تُطاق. نهض بسرعة، ارتدى ثوبه على عجل، وفتح الباب. كانت أم صالح تحمل صينية صغيرة، وقد أسبلت غدفتها على وجهها. وضعت الصينية على المكتب الصغير، وسألها عن

صالح، فأخبرته أنه قد ذهب للمدرسة باكراً، وتذكَّر أنه يوم دراسي، وأن الدنيا لا تتوقَّف من أجل أحد...

أخذ حماماً سريعاً في الحمام المجاور، والتهم كل الفول والخبز، وأخذ يشرب الشاي بهدوء ولذَّة، وإن كانت غير كاملة، فقد كانت نفسه تتوق إلى سيجارة، لا يدري ماذا قال أبو صالح لزوجته لتبرير وجوده عندهم هذه الأيام. لا شك أنه لم يقل لها الحقيقة، فتصرُّفاتها حين أتت بالإفطار لا تدل على معرفتها بشيء، إلا إذا كانت ذات قدرة فولاذية على التحكُّم في تصرُّفاتها ومشاعرها، أو أنه لا مشاعر لديها البتَّة، أو أنها وجدت أن المسألة لا تعنيها من قريب أو بعيد، فذاك من شؤون زوجها. فأم صالح مثال المرأة النجدية التقليدية، دنياها تتلخَّص في رضى ربِّها وزوجها وخدمة أطفالها، ولذلك لم تقم أمه علاقة قوية معها، كما فعلت مع زوجة حمود الشحام، فدنيا أمه وإهتماماتها أكبر من ذلك بكثير، دون أن تقصِّر في حقوق زوجها. وأحسَّ بالأسى عند التفكير بأمِّه، وشعر بشوق كبير لها. ودَّ لو أنها بجانبه الآن، كي يرتمي في أحضانها ويترك لدموعه العنان، وربما يبكيان معاً، فألمه كان دائماً ألمها، وألمها كان دائماً ألمه. مجرَّد وجود أمه إلى جانبه كان يُشعره بالأمان، ولكن أين هي الآن. إنهما في مدينة واحدة، يتنفَّس الهواء نفسه الذي تتنفَّس، ويحترق بالحرارة نفسها. ويتعفَّن بالرطوبة نفسها، ولكنها بعيدة عنه كما لم تكن في أي يوم مضى... وطاف خيال نورة في ذهنه، ولكنه أبعده بسرعة وعصبية، وعاد خيال أمه يحتل كل شيء فيه.

لم يكن أمامه غير الإنتظار... إنتظار ممل وقاتل. كان في غاية القلق من حكاية السفر إلى بيروت، مرعوباً من خطر الإعتقال، يقتله الملل الذي يُشعِره بحالة من الموت البطيء مع كل لحظة إنتظار. نظر

إلى الساعة، فوجدها لم تتجاوز العاشرة بعد... يا إلَهي ما أطول الوقت... لقد استحمَّ وأفطر وشرب الشاي في أقل من نصف ساعة. نهض وأخذ يجوب الغرفة ذهاباً وإياباً، ثم توقَّف أمام النافذة وأخذ يتأمَّل الحديقة. لم تكن حديقة بمعنى الكلمة، فقد كانت مجرَّد قطعة أرض تنتشر عليها بعض أعشاب «النجيل» المهمَلة. ليس أحد مثل أبيه في العناية بالحدائق وإحيائها، وكانت أمه دائماً تقول له: «ما شاء الله على يدك يابو هشام... فيها سحر... لا تضعها على شيء إلا ويزدهر...» وابتسم لذِكر ذلك، وتخطَّى الحديقة وأخذ ينظر إلى الشارع العام بسمعه، فقد كان سور المنزل أعلى من أن يرى من ورائه أي شيء. ومن وراء الشارع تقع المدرسة المتوسِّطة التي قضى وعدنان فيها سنوات ثلاث. يا للذكريات... أخذ رأسه يدور ويدور وكأنه آلة عرض الأفلام التي كانوا يستأجرونها في الرياض لمشاهدة الأفلام في المنزل، حين لا يريدون الخروج إلى هذا النادي أو ذاك، أو حين يكون الفيلم من النوع المثير الذي لا يحب الزحام... وجوه كثيرة أخذت تتزاحم في رأسه بسرعة عجيبة، وأحداثاً كان يعتقد أنه نسيها، فإذا هي قابعة هناك تبحث عمَّن ينكشها فقط، لتبرز بكل تفاصيلها. والغريب أن ينتبه لأول مرة أن عدنان كان دائماً هناك، في أي شيء يتذكَّره من حياته، لكأنما الإثنان شيء واحد دون أن يعي ذلك سابقاً. وطافت على فمه ابتسامة باهتة حين تذكَّر ذلك اليوم الذي «سرقا» فيه لأول وآخر مرة. لم تكن سرقة بمعنى الكلمة، ولكنها كانت نوعاً من البحث عن إثارة. كان في طريقهما إلى المنزل دكان صغير، يملكه «هولي»، وقد اعتادا في طريق العودة أن يعرِّجا على الدكان ويشربا زجاجة كولا، أو يتشاركا في علبة «طماطاجوز» أو «عرنجوز» يشربانها مع قطعة من «السيترول». ذات يوم،

قال لعدنان أنهما اليوم سيشربان ويأكلان ما طاب لهما دون دفع قرش واحد، وشرح له الخطة. حاول عدنان ثنيه عما اعتزم، ولكنه كان مصراً، فلم يجد بداً من القبول. وقفا أمام الدكان، وطلب هشام علبتي عصير طماطاجوز وعرنجوز من الحجم الكبير، وساندويشي «جام» مع الجبنة، وقطعتي «سيترول». كانت الطلبات كثيرة، فشكَّ صاحب المحل بقدرتهما على الدفع، وطلب الثمن مقدَّماً، إلا أن هشام وبكل جرأة قال: «وهل طارت الدنيا... نحن من زبائنك الدائمين، سندفع حين ننتهي، وإلا خُذ أغراضك»، ولم يجد صاحب المحل بداً من القبول، فقد فتحا علبتي العصير، وكان نصف الساندويش قد التُهم. نظر عدنان إلى هشام وقال بخوف: «هشام... إن الحساب ريالين ونصف، وليس معي إلا أربعة قروش، لقد ورَّطتنا»، فضحك هشام وقال، وقد امتلأ فمه بالخبز والعصير: «لا عليك... ليس معي قرش واحد، ولكن لا تهتم...». انتهيا من التهام كل شيء، ثم قال هشام لعدنان: «إذهب أنت الآن... هيا...»، وتردَّد عدنان بادىء الأمر، إلا أنه انصاع في النهاية وغادر. كانت عينا صاحب المحل تراقبهما، إذ ما إن انصرف عدنان، حتى جاء يطلب الحساب من هشام. أخذ هشام يقلب جيوبه وكأنه يريد إخراج المال، ثم فجأة أطلق ساقيه للريح. تفاجأ صاحب المحل، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ خرج من المحل وأخذ في الركض وراء هشام. ورغم سرعة هشام، إلا أن صاحب المحل كاد أن يمسكه، لولا تدخُّل القدر، أو هي الصدفة السعيدة... مَن يدري. ففي اللحظة التي امتدَّت فيها يد صاحب الدكان للإمساك به، سقطت «وزرة» الرجل، ومن حُسن الحظ أنه لم يكن يلبس شيئاً تحتها، فبانت عورته بالكامل. توقَّف الرجل، وأخذ يستر عورته، فيما كان هشام قد ابتعد،

وهو غير مصدِّق بالنجاة. من بعد ذلك اليوم، أخذا يسيران في طريق مختلف، متجنِّبين دكان «الهولي»، ولكن الرعب بقي مستولياً عليهما لعدة أيام. فقد كانا يخشيان أن يشتكيهما الرجل لمدير المدرسة، ويبحث عنهما، ثم يصل الخبر إلى أهليهما، وتكون الكارثة الحقيقية. ولكن «الله ستر»، ولم يحدث شيء، ولم يعيدا المغامرة مرة أخرى.

ترك النافذة وأخذ يمشي في الغرفة مجدَّداً، والذكريات لا تزال تتزاحم في رأسه. لن ينسى ذلك اليوم الذي كادا أن يفقدا فيه «أعز ما يملكان»، وكان ذلك بعد حادثة الدكان بعدَّة أيام. كانا عائدين من المدرسة، يتحدَّثان ويتمازحان، سالكين طريقاً فرعياً يتفرَّع منه عدة «دواعيس»، تجنُّباً للطريق الرئيسي ودكان «الهولي»، ظهر لهما من أحد الدواعيس ثلاثة فتيان أكبر منهما سناً. أوقفوهما، وفتَّشوا جيوبهما، فلم يجدوا شيئاً. وقف أحدهم قبالتهما، ويبدو أنه الزعيم فيهم، وأخرج سيجارة من جيبه أشعلها وأخذ يدخِّنها بعمق وهو ينظر إليهما. وأخيراً قال: «طالما أنه لا يوجد نقود معكما، فلا بد من...» أخذ قلب هشام في الخفقان الشديد، ورعشة شديدة في كل أنحاء جسده، وعلت الصفرة وجه عدنان، وأخذ كل منهما ينظر إلى الآخر مستنجداً. إن أهم شيء كانت أمه تخاف عليه منه، وتحذِّره منه على وشك الحدوث. وسار «الزعيم» في المقدَّمة، وأمسك الفتيان الآخران بهما، وساروا بهما إلى «حوطة» قريبة في أحد الدواعيس الضيقة. وبدون شعور، أخذ هشام يصيح ويصرخ كمَن أصابه مَس من الجنون، وجاراه عدنان في ذلك. حاول الفتيان أن يكموا فميهما، ولكن عدنان عضَّ يد المُمسك به بقوة، فأطلقه وهو يصرخ، وضرب هشام المُمسك به بحقيبة المدرسة فأطلقه هو الآخر، وتحرَّر الإثنان وأطلقا أرجلهم للريح وهما ما زالا يصرخان.

ولحق بهما الفتيان، ولكن بروز رجل من أحد الدواعيس المجاورة جعلهم يتوقَّفون، ويعودون أدراجهم... لقد تدخَّل القدر لإنقاذهما مرة أخرى. بعد هذه الحادثة، عادا إلى السير في الشوارع الرئيسية وليراهما صاحب الدكان، وليكن ما يكون.

نظر إلى ساعته من جديد، إنها الحادية عشرة... لا بد أن خللاً ألمَّ بها، فالوقت لا يسير، والحرارة لا تُطاق. كم يشعر بالشوق إلى أمه، بودِّه لو ترك بيت «الإنتظار» هذا وانطلق إلى العدامة، وليكن ما يكون، ولكنه لا يجرؤ على ذلك. قد يكون الإنتظار مراً، ولكنه كالدواء يحمل الأمل، أما الذهاب إلى العدامة فقد يكون حلواً كالسكَّر، ولكنه يحمل الألم. ذهب إلى الحمام، واستحمَّ من جديد، ثم عاد إلى الغرفة وهو يبتسم... ربما كانت هذه الغرفة مجرَّد «بروفة» لما هو قادم. أحسَّ بحاجة شديدة إلى سيجارة، وفكَّر في الذهاب إلى المجلس لعلَّه يجد شيئاً من بقايا أبو صالح، ولكنه أزاح الفكرة عن ذهنه. نظر حوله، فوجد كتاب الأمس ملقياً على السرير. التقطه، ولكنه لم يجد حماساً لتكملته اليوم، فتناول «ذكريات من بيت الموتى» من حقيبته، وسافر إلى روسيا.

_ ٤٨ _

ابتدأت الحياة تدب في البيت من جديد. عاد أبو صالح من عمله، وعاد صالح من المدرسة... فتى في مثل سنِّه تقريباً، إلا أنه رسب مرَّتين في المدرسة. حيّاه أبو صالح ببشاشة، ثم اتَّجه إلى الحمّام لأخذ حمّام بارد يُعيد إليه الحيوية، ويزيل عفَن الرطوبة. أما صالح، فقد جلس معه في الغرفة، وعيناه كلها تساؤل عن سبب وجوده بينهم، ولكنه لم

يسأل. تحدَّثا كثيراً حول مغامرات «سوبرمان»، و «الحسناء الجبارة» الأخيرة، ومغامرات السندباد وتان تان والكابتن هادوك، ثم عن لورا وأخواتها، وتلك البراري الرائعة في الغرب الأميركي، حتى أتاهما صوت الأب من المجلس وهو يدعوهما إلى الغداء. تحلَّق الثلاثة حول طَبَق كبير من الأرُز الأبيض، تتربَّع فوقه دجاجة كاملة، وحوله ثلاثة أطباق صغيرة من مرَق شديد الحمرة بالكوسا. كان الجو في غاية الإنعاش، فهذا هو الوقت الوحيد الذي يشغَّل فيه مكيِّف البيت الوحيد. جلس حيث أشار له أبو صالح إلى جانبه، فيما جلس صالح في مقابل أبيه، وانتظر الإثنان أن «يسمِّي» الأب لبدء الطعام. وقبل أن يبدأ أبو صالح، نظر إلى إبنه بغضب وهو يقول: «ألم أقل لك دائماً أن تستحم حال وصولك من الخارج... إن رائحتك توقع الطير من السماء». أحسَّ صالح بالحرَج الشديد، وأخذت حبات العرق تتجمَّع على جبينه وهو ينظر إلى هشام بطرف عينيه. وبدأ أبو صالح الطعام بأن مزَّق الدجاجة وألقى بأحد أفخاذها إلى هشام، والتهم الفخذ الآخر بسرعة. لم يأكل صالح كثيراً، وكان واضحاً أنه يود الإنتهاء بأسرع وقت ممكن، ولكنه لا يستطيع ترك المائدة قبل الوالد. كان يأكل وعيناه إلى الأسفل، ويختلس بعض النظرات إلى هشام، حتى إذا التقت الأعيُن، أشاحها بسرعة. كان هشام يعلم أن لعبدالله ولداً آخر، أصغر من صالح ببضع سنين، سأل عنه، فأجاب الوالد ساخراً، وهو يسحق عظماً بأسنانه: «ناصر؟... هذاك وليد أمه، ما يأكل إلا معها»، ثم وهو يجبل لقمة كبيرة من الأرُز بالمرَق بيده: «لقد عجزت عن هذا الولد... حاولت أن أدرِّبه على علوم الرجال، ولكن لا فائدة»، ثم وهو يلقي بكرة الأرُز في فمه، وحبات من الأرُز تتناثر على زوايا فمه: «لدي ولدان... واحد حبيب

أمه، والثاني طمل...»، وتوقَّف صالح عن تناول الطعام، ونظراته لا تغادر الأرض. وما أن قال عبدالله: «الحمد لله»، وهو يتجشَّأ بصوت مسموع، وينهض، حتى قفز صالح واختفى داخل المنزل.

كانت أم صالح قد رفعت السفرة حين عاد هشام إلى المجلس من جديد، حيث كان أبو صالح يجلس ماداً رجليه باسترخاء، ويدخِّن سيجارة بلذَّة، وينكش أسنانه بعود كبريت وهو يمتص البقايا بصوت مسموع شبيه بزقزقة عصفور دوري، وبجانبه إبريق شاي ضخم. دعاه أبو صالح للجلوس بجانبه، وصبَّ له بيالة شاي أخذ يرتشفها بسكينة ولذَّة، وكان يشعر بالإسترخاء التام بعد امتلاء البطن، وتلك النسمات الباردة، وصوت المكيِّف الداعي إلى الإغفاء، ورائحة الدخان اللذيذة. كان في غاية الشوق إلى سيجارة، ولكنه لا يستطيع التدخين أمام أبو صالح، فأخذ يستنشق الدخان المحيط بلذَّة. أطفأ أبو صالح سيجارته في المنفضة القريبة، ونظر إلى هشام قائلاً: «ماذا فعلت بنفسك يا بني؟... بل ماذا فعلت بوالديك، إن الحكومة لا ترحم في مثل هذه الأشياء مهما بدت بسيطة...»، ثم وهو يضحك: «كله إلا زب أبوك لا تلعب به...»، وصبَّ لنفسه بيالة شاي أخرى، شربها بسرعة، ثم التفت إلى هشام بكليته وهو يقول بحماس: «بَس تبي الصراحة... عفارم عليك. عز الله إنك رجال»، ثم وهو يعود إلى إسترخائه: «ليت صالح يكون رجلاً، حتى لو حُبس...» وما أن أنهى جملته، حتى ظهر صالح عند الباب، بشعر مبلول، وثوب أبيض فضفاض، ورائحة عطر الليمون تفوح منه. نظر إليه أبوه وقال بسخرية: «ذكرنا القِط، جا ينط...»، وبانت علامات الإحباط والأسى على وجه صالح، إلا أنه لم يقل شيئاً، واتَّخذ له مجلساً بجانب هشام، وسحب صينية الشاي ناحيته. بعد أن أنهى أبو

صالح آخر قطرة من إبريق الشاي، ودخَّن ثلاث سجائر، سحب أحد المساند وألقى برأسه عليه وهو يتأوّه بصوت مسموع، ثم لم يلبث صوت شخيره أن ملأ المكان. نظر إليه هشام وهو يبتسم، ثم حدَّثته نفسه بأخذ سيجارة من علبته، ولكنه عدل عن ذلك رغم شوقه لسيجارة، نظر إلى صالح، وبعد تردُّد قال هامساً: «أبو صلوح... أبي منك خدمة...»، «آمر... تدلَّل...»، «أبيك تشتري لي بكت دخان... ممكن؟...» وبعد تردُّد، قال صالح: «أنت تامر يا هشام...»، فابتسم هشام بحبور، وأخرج ريالاً من جيبه دفعه بسرعة إلى صالح، وهو يقول بهمس وعجلة، وهو ينظر إلى النائم: «علبة أبو بس... بسرعة الله يخلِّيك».

عاد صالح بعد وقت قصير، ومعه علبة السجائر، وعلبة الكبريت التي تأتي معها عادة. التقط هشام العلبة، وعاد إلى غرفة صالح، وصالح يتبعه. كان الجو في غاية الحرارة والرطوبة، ولكنه أغلق الباب بالمفتاح، وفتح النافذة، ثم جلس على الأرض، في حين جلس صالح على السرير، ثم أشعل السيجارة وأخذ يمتصُّها بلذَّة واللعاب يتحلَّب بكثافة في فمه مع شيء من الدوار، وصورة رقية تطل بخجل وضبابية. كان صالح ينظر إليه مندهشاً، فهذه أول مرة يراه فيها يدخِّن. ولكن هشام غير عابىء بنظراته، فقد كان يحس بشيء من الإسترخاء، رغم الحرارة والرطوبة والخوف والقلق...

ـ ٤٩ ـ

ها قد مرَّ عليه أسبوع في سجنه في غرفة صالح، وأبوه يزوره يومياً، ولكن أمه لم تظهر بعد. لقد ملَّ هذه الحالة، فلا هو معتقَل لدى الجهاز، ولا هو حر الحركة، ولا هو الذي سافر إلى بيروت. وذات أصيل، كان

يقف أمام النافذة وهو يراقب الشمس تسير مجبَرة نحو النهاية، سمع صوت باب الغرفة وهو يُفتح، ثم لم يلبث وجه أمه أن أطلَّ من ورائه. لم يستطع منع نفسه من إلقاء نفسه بين أحضانها وهو يصيح: «أمي... أمي...»، وكأنه طفل صغير، وليس شاباً مطارداً. لم يكن يهمُّه شيء قدر إشتياقه لرائحة أمِّه وأحضانها. قبَّلها على جبينها كثيراً، وعانقها كثيراً، وقبَّلته بدورها في كل مكان وصل إليه فمها من جسمه، واستنشقت عنقه كثيراً، واختلطت دموعهما ببعضها. كانت جلدة كعادتها، وحاولت ألا تبكي كثيراً، ورسمت بسمة هادئة على فيها، ولكن كل ذلك لم يمنعه من ملاحظة شحوب الأموات الذي كان يحتل وجهها، وتلك الخطوط الحمراء التي كانت تنتشر في عينيها بكثرة لم يعهدها. فقد كانت عينا أمه أبرز ما فيها، واسعتين وصافيتين بأهداب طويلة جداً. وخيِّل إليه أنه يرى تجاعيد في وجهها لأول مرة، رغم أن أمه لم تتجاوز السادسة والثلاثين من العمر.

جلس الإثنان على السرير، وكل منهما ينظر إلى الآخر ويتفحَّصه. كان واضحاً أن كليهما يحاول منع نفسه من البكاء، ولكن الدموع كانت تأبى إلا أن تبلِّل الأعيُن، ثم تجد طريقها إلى الخارج. وران صمت حزين تتخلَّله النظرات المتبادَلة، ثم قال هشام بصوت حزين منكسر يحمل كل الأسى والألم:

ـ أنا آسف يا أمي... لقد سبَّبت لك ولوالدي ألماً لا تستحقّانه. لم أكن أستحق حبّكما وثقتكما... أنا... أنا ولد عاق...

ثم خنقته الدموع. احتضنته أمه بحنان، وأخذت تملِّس بيدها على شعره وهي تقول بحنان:

ـ جنَّبك الله كل سوء يا بني... لم أكن أعتقد أنه ستمر عليَّ أيام مثل هذه... فليلطف الله بعباده.

ثم وهي تمسح دمعة فرَّت من عينها:

ـ أسبوع وأنت بجانبي ولا أراك... منذ أن أخبرني أبوك بالموضوع ليلة البارحة، وأنا غير مصدِّقة... غير قادرة على فعل أي شيء، كأني مشلولة... كان قلبي يحدِّثني أن هناك شيئاً خطيراً قد حدث منذ أن سافر أبوك إلى الرياض، وكنت أدعو الله أن يكون إحساسي كاذباً، ولكن قلب الأم لا يكذب، وإحساس المرأة لا يخيب...

وأحسَّ بألم جرح يجرح من جديد وهو لا يزال طرياً بعد كلام أمه، فقد برزت صورة سوير في ذهنه وهي تبكي، واختلطت صورة سوير بصورة أمه، فأحسَّ فجأة بالحاجة إلى التقيُّؤ. جرى بسرعة نحو الحمّام، وألقى ما في جوفه، ثم ملأه بالماء، وغسل وجهه، وعاد وقد تحوَّل وجهه إلى ليمونة معصورة. كانت أمه تجفِّف دموعها حين عاد، وظِل ابتسامة يحتل ثغرها، وشيء من بريق تلك الأيام ينبعث من عينيها وهي تقول بشيء من الحماس:

ـ لقد أخبرني والدك أنه سيسفِّرك إلى بيروت... هذا أفضل، ستدرس هناك وتبقى حتى يفرجها الله ويرفع الغمَّة...

ثم وهي تبتسم:

ـ ولكن إحذر نساء بيروت... الحياء معدوم هناك، وأنت اليوم شاب وسيم، وعليك العين... لا إله إلا الله وما شاء الله.

وضحكت أمه باقتضاب وهي تقول ذلك، فضحك معها وخيال رقية وسوير والأخريات يطوف في ذهنه وهو يحدِّث نفسه: «كان الأوْلى أن

تحذِّريني من نساء الرياض...»، وجاءته فكرة مجنونة في أن يعترف لأمه بما فعل في الرياض وليرى رد فعلها، ولكنها كانت فكرة مجنونة لم تلبث أن انجلت بسرعة، وأحسَّ بالألم لمجرَّد التفكير فيها، فقد سبَّب لوالديه من الآلام ما يكفي. وكانت أمه تحدِّثه عن مغريات بيروت التي عليه أخذ حذره منها، عندما أطلَّ الوالد وهو يقول:

ـ هشام... أريد التحدُّث إليك... اتبعني إلى المجلس.

ونهض هشام، وتبعته الوالدة التي احتضنته من جديد، وقبَّلته على عنقه، وهو يحس بحرارة أنفاسها ودمعها، ثم اتَّجهت إلى داخل المنزل، فيما اتَّجه هو إلى المجلس.

كان والده وأبو صالح يجلسان متقابلين، وبينهما دلَّة القهوة، وقد تقارب رأساهما وهما يتحدَّثان بهمس. قبَّل جبين والده، وجلس بجواره حيث أشار. نظر إليه الوالد بنظرات حادَّة، وإن كانت لا تخلو من الحنان. وقال بصوت صارم:

ـ لقد استطعت اليوم أن أستخرج لك جواز سفر... لم يكن الأمر سهلاً، لولا وجود بعض أصدقاء من الجماعة في الجوازات.

وارتشف آخر قطرة من القهوة في فنجانه، ومدَّ يده بالفنجان إلى عبدالله وهو يهزُّه ويقول:

ـ أخبروني أن إسمك في القائمة السوداء، وليس بالإمكان منحك جواز سفر، ثم تفتَّق ذهني عن فكرة...

طلب الوالد فنجاناً آخر من القهوة، ثم قال بحماس مَن خاض مغامرة ناجحة:

ـ طلبت منهم أن يستخرجوا الجواز باسمك الثلاثي دون إسم العائلة... هشام إبراهيم محمد، فوافقوا بعد تردُّد... جزاهم الله خيراً، فهُم يعرِّضون أنفسهم للمساءلة، وأنا كلِّي أسف لذلك، ولكن ما باليد حيلة... يجيك من ذيلك ما يهد حيلك.

قال ذلك، ثم حوَّل نظره إلى أبو صالح الذي قال:

ـ ولا حيل ولا ذيل... هشام ولد ممتاز، ولكنه طيش شباب...

ـ إيه... طيش ولا عيش... الفاس وقعت بالراس خلاص.

قال والده ذلك وهو يزفر بشدَّة، كان صالح يدخل حاملاً صينية الشاي، التي وضعها أمام والده ثم جلس. غير أن والده نهره، وأمره بالإنصراف، فخرج ممتعضاً وهو ينظر إلى هشام، وقال أبو هشام:

ـ لقد حجزت لك إلى البحرين غداً بعد العصر... ستبيت ليلة، ثم تغادر إلى بيروت في صباح اليوم التالي. وسوف أحاول غداً صباحاً أن أبعث برقيَّة إلى أبو محمد في بيروت لاستقبالك وتدبير أمورك...

ثم وهو يلتفت إلى أبو صالح:

ـ أنت تعرفه يا أبو صالح... تاجر العقارات الذي كان مقيماً بيننا قبل سنوات، ولكن يبدو أنه من عشّاق لبنان، فقد تزوَّج لبنانية ويعيش هناك معظم الوقت، ولا يأتي إلا في المواسم، رغم أن زوجته الأولى وأولاده منها يعيشون في الرياض... أكيد أنه مسحور.

قال الوالد ذلك وهو يضحك، وجاراه عبدالله في الضحك وهو يقول:

ـ أكيد... أحد يشوف لبنان وحريم لبنان، ولا ينسحر!... ولا عاجبتك رطوبة الشرقية وجفاف نجد...

واستمر الإثنان في الضحك، ثم قال أبو صالح:

ـ يا عمار عليك يا أبو محمد... طعم سهراته إلى هالحين بالراس.

وضحك أبو صالح بحبور، وهو ينفث دخان سيجارته في كل اتِّجاه، فيما كان أبو هشام يعض شفته السفلى وهو ينظر إلى أبو صالح، ظاناً أن هشام لم يره. ثم ساد الهدوء، وأخذ الجميع بارتشاف الشاي على مهل. أكمل الوالد الرشفة الأخيرة، ثم نهض وهو يقول: «أكرمك الله يا أبو صالح، وكثَّر خيرك... كلَّفنا عليك وحمَّلناك فوق حملك...»، «اذكر الله يا رجال... هشام إبني وأنت أخي، وإذا ما فزعنا هالحين، متى نفزع!؟...»، ثم نهض وسار مع الوالد، وهشام يتبعهما، ثم صاح الوالد: «أم هشام... مشينا...». وما هي إلا لحظات، وأتت أمه وهي تعالج أضفاء عباءتها وغدفتها، وهي تردِّد: «طيِّب... طيِّب... ها ذاني جيت. مسّاك الله بالخير يا أبو صالح... لن ننسى لكم هذا الجميل...»، «مسّاك الله بالسرور والرضا يا أم هشام... ما بين الأهل جمايل... عسى الله بس ينهيها على خير...»، ثم احتضنت الوالدة هشام وهي توصيه الوصايا الأخيرة حول الإبتعاد عن النساء وكل ما يُغضِب الله، وتحرصه على المراسلة حالما يصل بيروت. وغاب أحب الناس إليه وراء الباب، وعاد إلى غرفة صالح يدخِّن السيجارة تلو السيجارة، وقد تحوَّل صدره إلى أضيق من علبة سردين.

ـ ٥٠ ـ

كان المطار كعادته هادئاً ذلك الأصيل، عندما وقفت الأوبل البيضاء أمام باب مبنى المطار. ترجَّل هشام من السيارة، وقد لبس بنطالاً أسود،

وقميصاً أبيض، وحذاءً أسودَ لماعاً، وجوارب بيضاء، أتى بها والده في الصباح الباكر، مع الجواز والتذاكر، ومنحه مبلغ ألف ريال كاملة كي يستعين بها على حياته المقبلة في لبنان إلى حين. لم تأتِ أمه ذلك الصباح، فقد منعها الوالد خشية لفت إنتباه الذين يراقبون المنزل عندمًا يرونهما خارجين في الصباح الباكر على غير عادة، وقبلت على مضض، بعد أن أوصته أن يقبِّل هشام على كلتا عينيه. أما الوالد، فقد كان من السهل أن يجيء، فهو يخرج كل صباح إلى العمل، ومن السهل عليه أن يذهب من هناك إلى حيث يشاء.

أوقف أبو صالح السيارة في مكان بعيد، ثم عاد إلى هشام الذي بقي منتظراً عند الباب، وعيناه تتحرَّكان في كل اتِّجاه. كانت الرطوبة شديدة جداً، مما حدا به مسح نظارته كل حين، فقد أخذت الرطوبة تتكثَّف ماءً على زجاج النظارة. ثم أقبل أبو صالح بخُطاه السريعة، وعيناه تتحرَّكان في كل اتِّجاه، دون أن يتحرَّك رأسه. التقط الحقيبة السوداء، وانطلق إلى الداخل، وعيناه تحرثان القاعة حرثاً، فيما كان هشام يسير وراءه مضطرباً متعثِّراً، وهو يحمل حقيبة الدراسة الصغيرة، وقد وضع فيها النقود والجواز، غير قادر على منع نفسه من الإلتفات بعصبيَّة رغم تنبيه أبو صالح. كل شيء كان هادئاً في القاعة الباردة شبه الخالية، ما عدا بعض الأصوات وصداها الذي يتردَّد في جنبات القاعة الفسيحة، وبعض العاملين الذين وجدوا في القاعة المكيَّفة خير مكان لنوم مريح. أمر أبو صالح هشام أن يجلس في أحد الأركان، واتَّجه هو إلى «كاونتر» الخطوط، وفي يده الجواز والتذكرة. خلع نظارته وأخذ يمسحها من جديد، وأخذت الذكريات تمر في ذهنه بسرعة. لطالما جاء إلى هذا المطار متفرِّجاً مع أصدقائه، أو الضيوف الكثُر من الأقارب والمعارف،

الذين يأتونهم من الرياض والقصيم، فقد كان أجمل مطار في البلد بتصميمه الفريد من نوعه، وذلك الباب المتحرِّك أوتوماتيكياً، حالما تضع قدمك أمامه. لقد كان هذا الباب مثار تعجُّب الجميع ودهشتهم، فلأول مرة يرون باباً يُفتح «من نفسه»، فكانوا يذهبون ويجيئون من خلاله وهم يضحكون. وفي الساحة الخارجية، كان بإمكانهم مراقبة الطائرات المقلعة والقادمة مباشرة، وهم يصمُّون آذانهم عند إقلاع وهبوط كل طائرة ويضحكون، ثم يبدأون بمراقبة القادمين، والبحث عن النساء ذوات الخدود الوردية، والشفاه القرمزية، والبشرة البيضاء الصافية، القادمات من ذلك العالَم الجميل الذي يرون بعضه على شاشة التلفزيون...

عاد أبو صالح، وهو يحمل بيده جواز السفر والتذكرة وبطاقة صعود الطائرة ويبتسم. جلس بجانب هشام وهو يقول هامساً: «كل شيء على ما يرام... الإقلاع بعد نصف ساعة. لا تضطرب، وكُن هادئاً وعادياً. هيا... بالسلامة يا بني، وأرسل لنا شوية براد أول ما تصل...»، قال ذلك وهو ينهض ضاحكاً. كان يود لو أن أمه وأباه معه في هذه اللحظة، ولكنه يعلم أن عدم وجودهما هو لمصلحته، وهو واثق أنهما الآن جالسان في غرفة التلفزيون وأرواحهما معه. نهض متثاقلاً، فهو يُدرِك أنه مقبل على مغامرة لا يدري أين تنتهي ولا كيف، وقبَّل أبو صالح بحُب على جبينه، وتعانق الإثنان، ثم أخذ طريقه إلى قاعة المغادرة، وهو يشد بقبضته على الجواز والتذكرة والبطاقة. وبدأت دقات قلبه في الزيادة والإرتفاع كلَّما اقترب من تلك البوابة الصغيرة التي يجلس خلفها ضابط الجوازات. وعندما وصل لضابط الجوازات، كان يرتعش بشكل ملحوظ والعرق يبلِّل وجهه وجبهته بالكامل. كان الضابط يجلس وراء مكتب صغير، وغير بعيد عنه، يقف رجل آخر حاد النظرات، بلباس مدني

وشماغاً أحمر، رغم حرارة الجو. أعطى الضابط جوازه بيد مرتعشة لم يستطع التحكُّم بها رغم محاولته، ولاحظ الضابط ارتباكه وارتعاشه، فقال وهو يقلب الجواز وينظر إليه: «عسى ما شر؟...». حاول الإبتسام وهو يقول بصوت جاف تماماً: «أبداً... بقايا إنفلونزا، الله يكفيك شر إنفلونزا الصيف...»، فابتسم الضابط وقال: «ما تشوف شَر. ما تشوف شَر...»، وختم الجواز، وسلَّمه لهشام وهو يقول بتلقائية، وينظر إليه نظرات خالها هشام غريبة: «بالسلامة...». أحسَّ براحة كبيرة وهو يسمع صوت الختم على الجواز، فألقى بنفسه على أول كرسي صادفه بانتظار الصعود إلى الطائرة. جفَّف وجهه، ومسح نظارته للمرة الألف ربما، وأخذ يتفحَّص المكان... كان هناك عدد قليل من المسافرين الذين توزَّعوا على المقاعد المتناثرة في القاعة الصغيرة، وعدد كبير من ذوي الشمغ الحمر يقفون في الزوايا، ويجلسون بين الرُّكاب وهم يقلِّبون الجرائد. وبعد زمن خاله دهراً، أُعلن عن إقلاع الطائرة، فاصطفَّ الركاب أمام بوابة الخروج. سلَّم بطاقة الصعود لموظَّف الخطوط، الذي مزَّق جزءها الأسفل وأعادها إليه، ثم سلَّم جوازه لضابط يقف بجانبه قريباً من البوابة، أخذ يقلبه وينظر إليه، ثم قال: «إذا سمحت... عليك الإنتظار قليلاً»، وأشار إلى كرسي غير بعيد عنه، ثم سلَّم الجواز لواحد من ذوي الشمغ الحمر كان يقف وراءه.

ألقى بنفسه على الكرسي وهو غير شاعر بنفسه، أو بأي شيء يدور حوله، فقد استولى عليه دوار عنيف، وانتفى الخوف من شدَّة الخوف، وأصبح كل المكان قلب يدق بعنف. كان يُمنِّي النفس أن المسألة مجرَّد إجراء عادي بسيط لا يلبث أن ينتهي، ولا علاقة له بمخاوفه. ولكن تأكَّد له أن كل شيء قد انتهى، إذ بمجرَّد أن جلس، أحاط به اثنان من ذوي

الشمغ الحمر، وجلس آخر قبالته على كرسي مقابل، وأعيُن المسافرين تحدِّق به بنظرات مشفقة، وهم يستعجلون الخروج. خطرت بباله فكرة إطلاق ساقيه للريح والهرب، ولكن كيف؟ وإلى أين؟... لقد انتهى كل شيء، وما عليه إلا الإستسلام، وهل هناك غير ذلك؟...

أُغلقت البوابة بعد خروج آخر المسافرين القلائل، وبدأ هدير الطائرة في الخارج يصم الآذان، ويجرح قلبه من الداخل، ويبعث الأسى في نفسه، وخلت القاعة إلا من بعض الضباط وذوي الشمغ الحمراء. وبمجرَّد أن أُغلقت البوابة، هزَّه أحد الواقفين بجانبه قائلاً بحدَّة وجفاف: «هيا...»، وأمسكه الآخر من ذراعه، فيما وقف آخران وراءهم، وسار الجميع خارج قاعة المغادرة الصغيرة. قادوه إلى غرفة منعزلة بالقرب من باب الخروج الأوتوماتيكي، ولمح أبو صالح وهو يجلس حيث ودَّعه يدخِّن بشراهة كانت واضحة من كمية الدخان المنبعث من فمه، ولمحه أبو صالح. ألقى السيجارة على الأرض، وهبَّ واقفاً وقد جحظت عيناه، وتسمَّر في مكانه حتى اختفى هشام داخل الغرفة. ودَّ لو كان بإمكانه الجري نحوه والإستغاثة به، ولكن لا ينفع مع هؤلاء إستغاثة ولا هرب، وأبو صالح غير قادر على إغاثته على أية حال، بل قد يضرَّه لو فعل أي شيء يدل على العلاقة بينهما.

أدخلوه إلى غرفة صغيرة، ليست أكثر من مكتب كبير، يجلس وراءه رجل أنيق، بملابس غاية في البياض، وتفوح منه رائحة عطر نفاذ. وعلى جانبي المكتب، كان هناك أريكتان كبريان، تتوسَّطهما طاولة زجاجية لماعة، يجلس على إحدى الأريكتين رجل آخر بنفس صفات صاحب المكتب. كان الإثنان يدخِّنان ويضحكان عندما دخل هشام، فنظر إليه القابع على المكتب دون اكتراث، وواصل الضحك والتدخين، وهو

ينفث دخان السيجارة باتِّجاه هشام. أجلسوه على الأريكة الفارغة، وجلس إلى جانبيه الرجلان اللذان اقتاداه، فيما جلس ثالث على الكنبة المقابلة، وبقي الرابع واقفاً عند الباب... وابتسم ساخراً في داخله رغم رهبة المكان والأشخاص... أهو خطير لهذه الدرجة؟ وأدار صاحب المكتب قرص الهاتف، وتحدَّث إلى أحدهم بسرعة وكلمات قليلة مبهَمة، وهو يجيل نظره في الحاضرين، ثم وضع السماعة وهو يقول: «إنهم قادمون...»، وعاد إلى الحديث مع صاحبه عن الطقس وهذه الرطوبة العفنة. كان هشام خلال كل ذلك يحس وكأنه يشارك في فيلم سينمائي غامض ومخيف. لقد اختلطت كل المشاعر والأحاسيس، وكأنه في منطقة خارج الزمان والمكان، منطقة بلا أبعاد. أخرج علبة سجائره، وأشعل سيجارة أخذ منها نفساً عميقاً، قبل أن ينهره صاحب المكتب قائلاً بشراسة، وهو ينظر إليه بحدَّة: «أنت فين فاكر نفسك؟... في بيتكم ولاَّ في قهوة... التدخين ممنوع»، فسحق هشام السيجارة في المنفضة بيد مرتعشة، وقلبه يخفق بعنف، في الوقت الذي كان صاحب المكتب يتناول علبة «كنت» من أمامه، ويُشعل سيجارة ثم ينفث دخانها باتِّجاه هشام وهو يبتسم بلذَّة.

بعد حوالى نصف ساعة من الجحيم، فُتح باب الغرفة، وأطل منه وجها رجلين من ذوي الشمغ الحمر، أدَّيا التحية لصاحب المكتب، وسلَّماه ورقة وقَّعها وأعادها إليهما، ثم أشار إلى هشام وهو يأمره بالنهوض، فأمسكا به من مرفقيه، وانطلقوا إلى خارج القاعة، حيث كانت سيارة «جيب لاندروفر» رمادية تنتظر عند الباب مباشرة، في داخلها شخص آخر يجلس إلى جانب السائق. دفعاه إلى المقعد الخلفي، وجلسا إلى جانبيه، ثم انطلقت السيارة والكل صامتون. وقبل أن تغادر

السيارة مبنى المطار، نظر هشام إلى الخلف، وخيِّل إليه أنه رأى أبو صالح وهو يسحق سيجارة غير بعيد عن الباب.

ـ ٥١ ـ

كانت الشمس قد بدأت تحمر وتميل إلى الغروب، عندما خرجت السيارة من المطار، وسارت على الطريق باتِّجاه الخُبَر، التي دخلوها بعد أقل من ربع ساعة. اخترقت السيارة شارع البلدية، ثم اتَّجهت بخَط مستقيم نحو الساحل، ثم توقَّفت أخيراً عند مبنى من أربعة طوابق يحيط به الجنود، وترتفع على سطحه غابة من الأريلات. سار ومرافقيه في ممر ضيِّق إلى داخل المبنى، تفوح منه رائحة البحر بشكل حاد، حتى انتهوا إلى مكتب معدني في آخره، يجلس خلفه عسكري ضخم الجثَّة بثلاث شرائط، وأمامه دفتر ضخم. أدَّى الرجلان التحيَّة لصاحب المكتب، وسلَّماه الورقة التي معهما وأوراق هشام، وقال أحدهما: «لقد أمسكنا به وهو يحاول الهرب...» التقط العسكري الجواز، وأخذ يقلِّبه وهو يقول، كأنه يحدِّث نفسه: «هشام إبراهيم محمد...»، ثم نظر للمرافقين وهو يقول: «حسناً... لقد انتهت مهمَّتكما، بإمكانكما الإنصراف»، وأعاد إليهم الورقة بعد أن وقَّعها، فأدَّيا التحية من جديد وانصرفا، ثم صاح العسكري: «يا عريف مسعد... يا عريف مسعد...»، وفتح الدفتر الذي أمامه وكتب شيئاً ثم أغلقه، وألقى بأوراق هشام بأحد الأدراج، في الوقت الذي كان عسكري آخر بشريطين يخبط قدمه بالأرض ويؤدِّي التحية. نظر صاحب المكتب إلى العريف وهو يقول: «خُذ السجين إلى الدور الثالث...»، فخبط العريف قدمه مرة أخرى

بالأرض، ثم جرَّ هشام بعنف من مرفقه وهو يقول: «هيا يا سجين...». كان لكلمة «سجين» وقع غريب على أُذُن هشام، فقد كان يسمعها ويقرأها، ولكنه لم يكن يتصوَّر أن تكون صفة له في يوم من الأيام. ورغم أنه يعلم أنه ليس كل سجين مجرم، إلا أنها أعطت المعنى ذاته في أعماقه، وكان ذلك مصدر ألم كبير في داخله... لقد أصبح مجرماً.

سار الإثنان في ممر متفرِّع من الممر الأول، حتى انتهيا إلى درج متكسِّر الجوانب. وفي الدور الثالث، أدخله العريف مسعد في غرفة ذات باب واسع كله من القضبان، ويقف عند بابها جندي صغير السن. وبعد أن أغلق الباب، قال له العريف: «إذا احتجت إلى أي شيء، فما عليك إلا إستدعاء الحارس...»، ثم غادر وهو ينظر إليه نظرات بدت وكأنها حزينة. لو كان في غير هذا الموقف، لربما أثار العريف والجندي الحارس الضحك. فقد كانا ضئيلي الجسم، قصيري القامة، شديدي النحافة، في الوقت الذي يلبسان ملابس عسكرية فضفاضة جداً تجعلهما كالمهرِّجين.

كانت الغرفة واسعة جداً، بلون أبيض، أو كان أبيض، فقد نزعت الرطوبة اللون وبقيت مساحات الإسمنت تحتل الجدران، ونافذة صغيرة واحدة بقضبان فولاذية تُطل على البحر، وثلاثة أسرَّة جيشية على الجانبين وفي الوسط، وأرضيَّة عارية يغطِّيها بلاط أكثره متكسِّر، وبعض الصراصير تُطل برأسها من الشقوق الكثيرة المنتشرة. كان واضحاً أن البناية كلها قد صُمِّمَت لتكون شققاً سكنية، ولكنها عُدِّلت لتكون حبساً مؤقتاً. اتَّجه إلى النافذة، وأخذ ينظر إلى مياه الخليج الساكنة، فيما بقايا من شفق الغروب الأحمر كانت تصارع شبح الظلام. لم يعد خائفاً مثل السابق، وإن استمرَّ الرعب، فما كان خائفاً منه ها هو فيه، ولكن الغثيان

سيطر عليه، وبرودة قارسة أخذت تستولي على روحه وجسده. أغمض عينيه، وأخذ يستنشق هواء البحر الرطب بقوة، ولكن هواء الخليج لا يُنعش... ازداد إحساسه بالغثيان، وشعر بالحاجة إلى التقيُّؤ، ولكن لا حمّام في الغرفة، وهو غير قادر على السؤال. أخرج بعض وجهه من خلال قضبان النافذة، وأعطى الحرية لمعدته، والعنان لنفسه، ولكن لم يخرج إلا بعض عصارات صفراء مُرَّة المذاق، رغم أن معدته كادت أن تخرج، والغثيان لا يريد أن يزول. أدخل إصبعه في حلقه، ولكن لا شيء يخرج. ولم يتوقَّف عن المحاولة حتى كادت معدته تخرج بيده. تذكَّر أنه لم يتناول طعاماً منذ الصباح، فلم يكن له شهية للطعام، وهو لا يشعر بالرغبة فيه الآن، رغم أنه يحس أن جدران معدته قد انطبقت على بعضها، وأخذت تأكل بعضها بعضاً. ترك النافذة، واتَّجه إلى الباب منادياً الحارس. سأله عن الحمام، ففتح له الباب وقاده إليه، ووقف عند بابه منتظراً. كانت الرائحة الكريهة تملأ المكان، رائحة سمك فاسد ورطوبة وبراز. سدَّ أنفه وأخذ يتنفَّس من فمه، ووضع رأسه تحت الحنفيَّة وترك الماء يسري لمدة طويلة، ثم ملأ معدته بالماء وعاد. خفَّ الغثيان قليلاً، فأشعل سيجارة أخذ يمتصُّها بعمق، فأحسَّ بدوار خفيف لم يلبث أن انجلى. نظر إلى ساعته... إنها تقارب الثامنة مساءً. وابتسم... في مثل هذا الوقت تقريباً كانت نورة تأتيهم باللبن، وفي مثل هذا الوقت كان يجتمع ووالديه أمام التلفزيون يشربون الشاي... أحسَّ بألم في الحنجرة، فسحق السيجارة على الأرض، واضطجع على السرير، وأخذ يقرأ كتابات باهتة على الجدران... «عصام... ١٠/٣/١٩٧٠»... «قُل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»... «خُطى كُتبت علينا، ومَن كُتبت عليه خطى مشاها»... «دقات قلب المرء قائلة له، إن الحياة دقائق

وثوانٍ». . . «إذا الشعب يوماً أراد الحياة، فلا بد أن يستجيب القدر». . . «يا ظلام السجن خيِّم». . . «كل ليل وله فجر». . . «قِف دون رأيك في الحياة مجاهداً، إن الحياة عقيدة وجهاد». . . أخذ يقلب نظره في الجدران حتى أغفى قليلاً، ولكنه سرعان ما استيقظ على مغص شديد، وألم في المعدة، والعرق ينهمر من كل مسام جلده، وجسده يرتعش بشدَّة، ويحس ببرد قارس، رغم أن درجة الحرارة تقارب الأربعين. نهض، واتَّجه إلى النافذة من جديد، وكان الظلام قد أحاط بكل شيء، إلا من بعض أنوار تتلألأ من بعيد. لعلَّها أنوار البحرين!. . . وتنهَّد بعمق وهو يشعر بشيء من الأسى والحسرة. أصوات صبية يلعبون على الشاطىء تأتي من بعيد، وأحدهم بالقرب يغنِّي بصوت رخيم: «ياذا الحمام اللي سجع بلحون، وش بك على عيني تبكيها. . . أهلي يلوموني ولا يدرون، والنار تحرق رجل واطيها. . .». أراد أن يتقيَّأ من جديد، ولم يخرج إلا بعض الماء الملوث بالعصارات الصفراء. عاد إلى السرير وهو يرتجف، وحاول الإغفاء، ولكنْ عيناه تحوَّلتا إلى جمرتين تلسعانه، والبرودة تكاد تقتله. نهض ونادى الحارس، الذي جاء متبرِّماً وهو يقول: «نعم. . . إيش تبغي ثاني؟. . .». أخبره أنه يشعر بالبرد الشديد، وطلب كأساً من الماء، وقرصي أسبرين، وبطانية. ضحك الحارس، وقال ساخراً: «يا سلام. . . فاكر نفسك في حضن أمك!»، أحسَّ بالمرارة والغضب والمهانة، ولكنه ترجَّى الحارس بحرارة، فنخر وهو يقول: «ما يجينا منكم إلا وجع القلب. . .»، ثم صرخ وهو ينظر إلى الأسفل: «يا جندي محبوب. . . يا جندي محبوب»، إيش تبغي يا جندي علي. . .»، «كاس موية، وأسبرين، وبطانية لحبيب أمه هنا. . .»، وشرب المهانة حتى آخر قطرة، وابتلعها بالرغم منه. عاد إلى الفراش، وأغفى قليلاً قبل

أن يأتي صوت الحارس: «يا سجين. . . يا سجين. . . إنت يا زفت»، وفتح عينيه، واتَّجه نحو الباب واستلم الماء والأسبرين، فيما ألقى الحارس البطانية على الأرض. ابتلع الأسبرين، وشرب الماء، وتناول البطانية، وهو يحس بالرغبة في البكاء، ولكنه تجلَّد ومنع نفسه، وعاد إلى السرير. كانت البطانية قديمة مهترئة، برائحة بول قديم، ولكنه تدثَّر بها، واعتاد على رائحتها بعد دقائق. أحسَّ ببعض الدفء، ثم أغفت عيناه. ولكنه نهض جفِلاً على قرع قضبان الباب الفولاذية، والحارس يقول: «العشاء. . . العشاء يا سجين. . .»، فقال بصوت مرتجف غير واعٍ بما حوله، ودون أن ينهض: «لا أريد. . . لا أريد. . .»، وغطَّى رأسه بالبطانية، وعاد إلى الإغفاء، والكوابيس تحاصره، وهو «يهلوس» في نوم متقطِّع.

ـ ٥٢ ـ

كان سابحاً في عرقه عندما نهض في اليوم التالي على صوت المؤذِّن يدعو إلى صلاة الفجر، وقد اختلطت رائحته برائحة البطانية، وأصبحت أشبه ما تكون برائحة حمّام مهجور. نهض من الفراش وهو يشعر بوهَن شديد، وألم كوخز الإبَر في عظامه ومفاصله. لا بد أنه قد أصيب فعلاً بالإنفلونزا، كما ذكر لضابط المطار. كان قميصه قد تحوَّل إلى خرقة مبلولة، وملابسه الداخلية عفِنة الرائحة، وكأنها قد نُقِعت في برميل براز متراكم. احتاج إلى بعض الوقت حتى يعي في أي مكان هو، ثم نهض إلى البوابة بتثاقُل، وكان هناك حارس جديد أكبر سناً من السابق، ولكن بذات الملابس الفضفاضة، وهو يقاوم النعاس. طلب الإذن بالذهاب إلى

الحمّام، وهو يمنّي النفس بحمّام بارد، ولكنه لم يجد «دشاً» هناك. تناول وعاءً بجانب المرحاض، وأخذ يملأه بالماء ويسكب على جسمه، حتى أحسَّ بالإرتياح، ونشَّف جسمه بفانيلَّته الداخلية، ثم عاد إلى الغرفة، وعادت الهواجس. أخذ يقرأ الجدران من جديد، ويطل من النافذة على مياه الخليج، وهو يستمع إلى أبواق سيارات قادمة من بعيد بلذَّة. واستمرَّ في الحركة ما بين الجدران والنافذة، حتى جاءه صوت الحارس منادياً لاستلام طعام الإفطار. تناول كيساً ورقياً تشرَّب بالدهن، وفرش البطانية على الأرض، وأخرج محتويات الكيس... رغيف خبز، كيس بلاستيكي فيه بعض الفول الحار، بيضة مسلوقة، وبعض المخلَّلات. طلب من الحارس طبقاً ليضع فيه بعض الفول، وكوباً من الشاي. تأفَّف الحارس دون تعليق، ونادى جندياً آخر، ثم جاء بطبق بلاستيكي، وكأس شاي فاتر ناولهما هشام وهو يقول: «الله يعز الحكومة...»، وهو ينظر إلى هشام مباشرة، فردَّ هشام دون اكتراث: «آمين...»، وعاد إلى فطوره. لم يكن يشعر بالجوع، ولكن لا بد أن يأكل، فهو لم يتناول شيئاً منذ الأمس. أجبر نفسه على أكل البيضة المسلوقة، وبعض الفول، ثم أشعل سيجارة دخَّنها مع كأس الشاي. لقد انتهى الغثيان تماماً، ولكن القلق بقي سيِّداً دون منازع. انتهى من شرب الشاي، فطلب كأساً أخرى، ولكن الحارس رفض بخشونة وهو يقول: «ممنوع يا سجين... هل تظن نفسك في بيتكم... كثَّر الله خير الحكومة التي تطعمكم»، فعاد أدراجه وهو يشعر بالغثيان يعود من جديد. أشعل سيجارة أخرى، وعاد إلى النافذة يراقب الأُفق، وينفث الدخان بعيداً، وهو يحسده على إنطلاقه في السماء. كل شيء ساكن، الزمان والمكان، حتى مياه الخليج يبدو كأنها فقدت الحياة... كل شيء تآمر لاغتيال الزمن.

- ٥٣ -

كانت الشمس تتوسَّط السماء... الحر لا يطاق، والرطوبة شنيعة، ورائحة كل شيء أصبحت مزيجاً من كل شيء، وغير محتمَلة. ومن بعيد، جاء صوت مؤذِّن يدعو إلى الصلاة بصوت عذب، رقيق آسر، ثم تلته أصوات متداخلة لمؤذِّنين آخرين، حتى ضجَّت المدينة بالأذان، وتحوَّل إلى صراخ. ووسط كل تلك الأصوات، جاء صوت قريب يغنِّي بصوت رخيم وحزين: «يا علي صحت بالصوت الرفيع، يامره لا تذبين القناع... نشتري يا علي كانك تبيع، بالعمر مير ماظني تباع... ضحكتي بينهم وأنا رضيع، ما سوت بكيتي يوم الوداع...»... صوت الأمس نفسه. هل كان يتخيَّل ذلك الصوت، أم أنه حقيقة... هل كان الصوت يأتي من داخله أم من الخارج... لا يدري. ولا يهمه أن يدري، المهم أنه يسمعه، ويؤنِّس به وحدته.

أخذ يجوب الغرفة تارة، ويضطجع على السرير تارة، ويقف عند النافذة تارة أخرى، وهو يدخِّن دون شهوة، وينظر إلى الدخان يتشتَّت في الهواء بحسد. مفاصله تؤلمه، وعظامه يشعر بها مهروسة، والغثيان يروح ويجيء. وكان يدخِّن آخر سيجارة في علبته، عندما انتفض جفِلاً وهو يسمع صوت الحارس يناديه باسمه كاملاً... هشام إبراهيم محمد العابر... اتَّجه إلى البوابة، فسأله الحارس: «أنت هشام إبراهيم محمد العابر؟...»، فغلبته السخرية وقال: «شوفة عينك... إلا إن كان هناك أشخاص هنا لا أراهم... من الجن مثلاً!...»، فنظر إليه الحارس شزراً، ونهره قائلاً: «هل تتمسخر يا سجين؟... تتمسخر على الحكومة يا سجين؟... هيا... حضرة الضابط يريدك»، وفتح الباب، وجذبه من

مرفقه بقوة. توقَّف قلبه، ثم عاد إلى الطرق بشدَّة، ثم توقَّف، وهو غائب عن كل ما يجري... لقد حانت الساعة الرهيبة... نسيَ عظامه ومفاصله، ولم يبقَ إلا إنقباضات شنيعة تمزِّقه من الداخل.

قاده الحارس إلى مبنى مجاور شبيه بالمبنى الذي كان فيه، ولكنَّه أكثر نظافة. وقفا أمام عسكري ضخم الجثَّة بأربعة شرائط، ذكَّره «بالشاويش عطية» في أفلام إسماعيل ياسين، فقد كان صورة طِبق الأصل منه تقريباً. انصرف الحارس، بعد أن أذن له الشاويش عطية، وبقي هشام واقفاً، فيما كان العسكري يقلب أوراقاً أمامه، ويرتشف شاياً بالحليب، ويدخِّن، دون أن يتفوَّه بأية كلمة. لا يدري كم من الوقت بقي واقفاً، فقد توقَّف الزمن في تلك اللحظات السرمدية، شرب أثناءها العسكري الشاي، ودخَّن السيجارة، ثم نظر إلى هشام وهو يشعل سيجارة أخرى ويقول: «أنت هشام العابر؟...»، فغلبته السخرية مرة أخرى، ولكن الخوف منعه من التعليق، فقال: «نعم... نعم طال عمرك...»، فانفرجت أسارير الشاويش عطية عندما سمع عبارة «طال عمرك...»، فهي لا تُقال إلا للوجهاء وكبار السن وعلية القوم عادة، وأخذ نفساً عميقاً من سيجارته، وهو يقول: «يبدو أنك شاب طيِّب... ما الذي أتى بك هنا؟». اضطرب هشام قليلاً، وتردَّد في الإجابة، ثم قال متلعثماً: «الله أعلم... لا أدري...»، فضحك العسكري، كاشفاً عن أسنان بنية اللون ومتنافرة، وقال: «يا سلام!... يعني متجنِّين عليك...»، ثم وهو يهم بالنهوض، ويلتقط قبَّعته العسكرية من على المكتب، «على أية حال، الخيزرانة كفيلة بكشف كل شيء، وحل عقدة لسانك...». قاده الشاويش عطية في ممر طويل، تتناثر على جانبيه غرف كثيرة، وينتهي بغرفة وحيدة، يبدو أنها أكبر الغرف، فقد كان بابها الأكبر بين الأبواب.

طرق العسكري الباب، ثم دخل دافعاً هشام أمامه، وخبط الأرض بقدمه، ولكن دون صوت هذه المرة. كانت غرفة واسعة جداً، بلون أبيض زيتي لامع طيِّبة الرائحة، وقد فُرشت أرضها بسجادة أصفهانية حمراء كبيرة، بنقوش صفراء وزرقاء متفرِّقة، كانت تغطِّي معظم أرضية الغرفة. ويحتل صدر الغرفة، مكتب ضخم، من خشب ثمين كما يبدو، يجلس وراءه رجل أنيق ووسيم، بلباس مدني ناصع البياض، ورائحة عطر نفاذة، شبيهة بعطر صاحب المكتب في المطار يوم أمس... يوم أمس... يا الله... إنه يبدو بعيداً جداً، وكأنه من قرون خلت... وإلى يمين المكتب ويساره، كان هناك أريكتان كبريان من جلد أسود لامع، وبينهما طاولة زجاجية ضخمة، يتوسَّطها منفضة سجائر كبيرة من الكريستال. وبجانب المكتب، كان هناك راديو ضخم لم يرَ مثيلاً له في حياته. فقد كان ضخماً جداً، ومليئاً بالأزرار في كل مكان. وعلى المكتب، تناثرت بترتيب دقيق، بعض الأوراق والملفات، بالإضافة إلى الأدوات المكتبية، وأمام كل ذلك لوحة سوداء صغيرة، كُتب عليها بأحرف ذهبية: «العقيد مسرور السياف».

كان الرجل يقرأ ملفاً أمامه عندما دخلا، واستمرَّ يقرأ لبعض الوقت قبل أن يرفع رأسه، ويقول العسكري: «السجين المطلوب يا بيه...»، فأشار الرجل برأسه، وخبط العسكري الأرض من جديد وغادر. نظر الرجل إلى هشام وهو يبتسم إبتسامة واسعة، ثم دعاه إلى الجلوس على الأريكة التي على يمينه، وأخذ ينظر إليه لفترة قبل أن يقول: «الأخ هشام العابر... أليس كذلك؟»، «نعم... نعم يا بيه...»، مستخدماً اللقب نفسه الذي استخدمه الشاويش عطية. الكل يتأكَّد من هويته هنا، وكأنه لم يعد هو، حتى ابتدأ هو في التأكُّد من أنه هو، اتَّسعت ابتسامة الرجل،

واسترخى على كرسيه الجلدي الدوّار، وتناول سيجارة من علبة «كنت» ملقاة على المكتب، ومدَّ العلبة لهشام وهو يبتسم قائلاً: «سيجارة... أم أنك لا تدخِّن؟». تناول هشام سيجارة، وأشعل الرجل السيجارتين بولاعة ذهبية أنيقة، ثم عاد إلى الإسترخاء والإبتسام وهو يقول: «ألست صغيراً على التدخين يا أخ هشام؟... كم عمرك؟...»، «حوالى تسعة عشر عاماً يا بيه...»، فأشار الرجل بيده في الهواء، وعوج فمه قليلاً وهو يقول: «لا... لا... أنت صغير جداً، رغم أن شاربيك الكثيفين يوحيان بغير ذلك...»، وضحك الرجل باقتضاب، فيما كان هشام يلعن الشوارب ومَن ينمِّيها في سرِّه. ثم وكأنه نسي شيئاً، قال الرجل بلهجة إعتذارية: «لقد نسيت واجب الضيافة... هل تشرب قهوة، شاي، بارد أم شيئاً آخر...»، وطاف العرق بذهن هشام، إلا أنه قال: «شاي... شاي لو سمحت...»، «بالحليب أم سادة؟...»، «سادة إذا سمحت»، «بسكَّر أم بدون؟...»، «بسكَّر لو تكرَّمت»، «سكَّر زيادة أم وسط؟»، «وسط من فضلك...»، وأخيراً جاء الشاي الحار، أخذ يرتشفه بلذَّة ويدخِّن سيجارة أخرى من سجائر العقيد، وهو في غاية الإستغراب. أهذا هو التحقيق الذي طالما أرعبه؟ شاي، ودخان ووجه سمِح... أين التعذيب الذي يقولون، وأين الخيزرانة التي هدَّده بها الشاويش عطية؟... لكَم يبالغ الناس!... انتهى من شرب الشاي والتدخين، وعادت نفسه إلى نفسه، وشعر ببعض الإطمئنان حين سأله الرجل بغتة، وهو لا يزال مبتسماً:

ـ لماذا كنت تحاول الهرب يا أخ هشام؟...

وفرَّت نفسه من نفسه من جديد، وطار كل أثر للإطمئنان، وهو يقول متلعثماً:

ـ كلا... كلا... لم أكن أحاول الهرب يا بيه، كنت مسافراً إلى البحرين... ثم لماذا أهرب، ومن ماذا؟

وضحك الرجل وهو يقول:

ـ ثم إلى بيروت... أليس كذلك؟

ثم وهو يهز سبابته في الهواء:

ـ كن صادقاً معنا، فالصدق دائماً منجٍّ...

وارتج على هشام، فقال:

ـ نعم... نعم... كنت مسافراً إلى بيروت... أريد الدراسة هناك.

ـ معقول... ولكن لماذا لم تسافر قبل ذلك؟... فأنت حاصل على التوجيهية قبل عام تقريباً، وتقاريرك في الجامعة تشهد بتفوُّقك، فلماذا عنَّ لك السفر الآن؟

ـ كانت أمنيتي الدائمة أن أدرس في الخارج، ولكن الوالدة لم تكن موافقة، ولكنها وافقت بعد إلحاح... هذا كل ما هنالك يا بيه.

ـ حقاً!... شيء طيِّب... وفي أية جامعة سوف تدرس. الأميركية، العربية، اللبنانية، اليسوعية أم غير ذلك؟

ـ لا أدري... أيُّها يقبلني...

ـ غريب... وهل تذهب للإلتحاق بجامعة دون أن تكون مقبولاً بها، ودون أن يكون معك أوراق أو وثائق؟...

وارتج على هشام مرة أخرى، فلم يكن يحمل ملفه معه حين حاول السفر، إذ إن الإضطراب جعلهم ينسون كل شيء عن الملف ومتطلَّبات

الإلتحاق بالجامعة في بيروت:

ـ الحقيقة... الحقيقة أني أرسلت الوثائق بالبريد قبل مدة... لسرعة الإجراءات كما يعرف حضرتكم...

وضحك الرجل مرة أخرى وهو يقول:

ـ ترسل وثائق لمَن؟... ألم تقل أنك لا تدري أية جامعة سوف تلتحق بها... فلمَن أرسلت الوثائق؟

وتصبَّب العرق الغزير، وبدأ الإرتعاش وبرودة الأطراف، وهو يقول:

ـ لم أرسلها لجامعة، بل أرسلتها لصديق للوالد في لبنان كي يبحث لي عن جامعة مناسبة...

ـ ما اسمه؟...

ـ مَن؟...

ـ صديق الوالد...

ـ لا أدري...

ـ أترسل شيئاً لشخص لا تعرف اسمه؟

ـ الحقيقة أن الوالد هو الذي أرسل الوثائق...

ـ أي أن الوالد يعرف...

ـ يعرف ماذا؟

ـ يعرف أنك تحاول الهرب؟

ونهض هشام وهو يقول:

ـ لا... لا... الوالد لا يعرف.

ثم وهو يجلس من جديد:

ـ أقصد أن الوالد وافق على سفري بناءً على إلحاحي، ورغبتي الدراسة في الخارج...

ـ وهل يعلم والدك بانضمامك للمنظمات السرية؟...

ـ كلا... أقصد أني لم أنضَم إلى أية منظمات سرية كي يعلم أو لا يعلم...

ـ إذاً لماذا استخرج لك جوازاً بإسم غير كامل؟

ـ أنا... أنا الذي استخرج الجواز...

وضحك الضابط من جديد وهو يقول:

ـ كيف استخرجته وأنت في الرياض، أو من المفروض أن تكون في الرياض، وهو صادر من جوازات الدمّام.

ومال الضابط إلى الأمام، واستند بمرفقيه إلى المكتب وهو يقول:

ـ ألم أقل لك إن الصدق منجٍّ... ما كنت بحاجة إلى الكذب، فالجواز مكتوب فيه «مُنح بناءً على طلب والده»...

وقتله الخوف على والده هذه المرة، ولكن الضابط لا يريد أن يرحم، فقال:

ـ وبما أن والدك استخرج الجواز بإسم غير كامل، فهو يعلم بأمر يريد أن يخفيه... أليس كذلك؟... أنت شاب جامعي متعلِّم وتعرف المنطق.

لم تعد تهمَّه نفسه الآن، فهو يريد إخراج والده من المأزق الذي وضعه فيه بأية طريقة، فأخذ عقله يعمل بسرعة، ثم قال وهو يحاول الإبتسام:

ـ منطقياً، معك حق يا بيه... ولكنك تعلم الفوضى التي في الجوازات... مرة يكتبون إسم العائلة، ومرة إسم القبيلة أو الفخذ، ومرة دون عائلة أو قبيلة أو فخذ... بإمكانك إستخراج جوازين بإسمين مختلفين... ليس في الأمر ما يخفيه والدي.

وضحك الضابط وهو يسترخي على مقعده، ويشير بسبابته نحو هشام قائلاً: «شاب ذكي... شاب ذكي... ولكنك مراوغ»، ثم طرق الباب، ودخل جندي يحمل صينية عليها فنجانا قهوة وكأسا ماء، وضع أحدهما أمام الضابط، والآخر أمام هشام، وانصرف بعد أن ضرب الأرض بقدمه. قدَّم الضابط سيجارة لهشام، وقال وهو يُشعلها: «هل يعلم والدك أنك تدخِّن يا هشام؟...»، «أعتقد ذلك يا بيه، فرائحة المدخِّن لا تخفى على أحد، ولكني لا أدخِّن أمامه... وعلى أية حال، أنا لم أدخِّن إلا من فترة بسيطة، حوالى الثلاثة أشهر»، «وهل تشرب يا هشام؟...» وتردَّد هشام قبل أن يقول: «أحياناً يا بيه... في المناسبات...»، وهزَّ الضابط رأسه وهو يرتشف فنجان القهوة بصوت مسموع، وينفث دخانها باتِّجاه السقف، وساد سكون لا يعكِّره سوى صوت المكيِّف. ثم فجأة قال الضابط:

ـ هشام... مَن أوصلك للمطار... لا تقل لي الوالد، فهو لم يكن معك.

وتناثرت قطرات القهوة على قميصه، ووضع الفنجان على الطاولة

بيد مرتعشة، ثم قال بتلعثُم:

ـ لا أحد... صدِّقني يا بيه لا أحد... لقد جئت بسيارة أجرة...

ـ حسناً... وأين كنت طوال الأسبوع الماضي؟... لم تكن في بيتكم، ولم تكن في الكلية... أين كنت؟

وغاص هشام في مقعده، ولم يدرِ ماذا يقول، وأخذ العرق يتصبَّب منه بغزارة وهو ينظر إلى الضابط، ولا يدري ماذا يقول. وأخرجه الضابط من حيرته قائلاً:

ـ إسمع يا بني... نحن نعلم مَن أوصلك للمطار وكيف. الأوبل البيضاء... أظن ذلك كافياً لتعرف أننا نعلم.

وصمت الضابط لبرهة، وهو يُشبك كفيه ببعضهما، ويستند بمرفقيه على المكتب، فيما بدأ قلق جديد يستولي على هشام، إنه يخاف الآن على أبو صالح. ثم قال الضابط وهو لا يزال يستند على الطاولة:

ـ ونحن نعلم أن أباك كان يحاول تهريبك إلى الخارج... وأنا أعلم ما يجول في خاطرك... لا تخف على والدك أو عبدالله الزعفراني... لن يحدث لهما شيء، فما قاما به شيء طبيعي، فنحن لا نتوقَّع أن يسلِّم الوالد ولده تحت أي ظرف من الظروف، أو لا «يفزع» صديق لصديقه... هذه عادات وتقاليد، ونحن ندركها جيداً، فنحن من هذا البلد أيضاً... أم تعتقد غير ذلك؟

وأشعل الضابط سيجارة أخرى، ثم قال:

ـ نحن يا بني لا نسعى إلى سجن الناس هكذا دون مبرِّر أو جريرة... ولا نريد سجن الناس لمجرَّد السجن... نحن نريد الوصول

إلى التنظيمات السرية ليس إلا... نريد معلومات وبعض الأشخاص، وليس كلهم.

وهدأت مخاوف هشام قليلاً، ثم قال:

ـ ولكن يا بيه... لا علاقة لي بأي تنظيم سري...

وضحك الضابط وهو يقول:

ـ حقاً!... وماذا بشأن تلك الكتب الماركسية والقومية والبعثية التي وجدناها في منزلك صباح اليوم؟

إذاً فقد فتَّشوا المنزل... لك الله يا أم هشام.

ـ أنا أحب القراءة في كل شيء...

قال هشام:

ـ وقراءة أي شيء لا تعني الإيمان به...

ـ هذا صحيح...

قال الضابط وهو يُشعل سيجارة، ويقدِّم أخرى لهشام، ثم مواصلاً:

ـ ولكن وجود منشورات يعني الكثير...

ـ ماذا؟...

بوغت هشام بما قال الضابط، فلم يكن يتوقَّع أن يكون هناك منشورات في بيته، فقد كان يتخلَّص منها أولاً بأول. ضحك الضابط من جديد وهو يهز رأسه ويقول:

ـ نعم... منشورات... لقد وجدنا واحداً في أحد الكتب في مكتبتك.

لقد كان عدنان على حق حين وبَّخني على الإهمال تلك الأيام... كان يحدِّث نفسه وهو يبحث عن تبرير لهذا المأزق:

ـ وجود المنشور لا يعني الإنتماء إلى تنظيم سري...

ابتسم الضابط وهو ينظر إلى هشام طويلاً، ثم قال بهدوء:

ـ أنت شاب ذكي، وللأسف أنك طرقت الباب غير المناسب.

ثم وهو يبحث عن بقايا قهوة في فنجانه:

ـ على أية حال، نحن ندردش هنا... أما التحقيق فسوف يكون في جدَّة... وهناك سوف يتبيَّن كل شيء... وعلى فكرة... والدك هنا... لقد جاء معنا هذا الصباح.

وضغط الضابط على زر بجانبه، وأطل الشاويش عطية من جديد، فأمره بإدخال أبو هشام. وجاء والده مضطرب الخطوات، ولكن برزانته المعهودة. قبَّل هشام جبينه، وهو يحس بالرغبة في البكاء، والفرار من هذا المكان. كان يحس أن حنجرته قد خنقته، ومعدته تعصره من الداخل عصراً. جلس الوالد على الأريكة المقابلة لهشام، ومدَّ يده بحقيبة جلدية صغيرة كان يحملها إلى هشام وهو يقول: «هذه بعض الملابس وضعتها لك أمك...»، أخذها هشام ووضعها إلى جانبه، ورائحة أمه تطوف بخياله، بحيث يكاد يشمها فعلاً. ثم قال الضابط: «لا تقلق يا سيد إبراهيم... هشام سوف يكون بألف خير، وكل ما يحتاجه سيكون متوافراً... نحن نريد بعض المعلومات... ولن يستغرق الأمر كثيراً من الوقت، حتى يكون هشام في بيته من جديد...». وابتسم الوالد وهو يشكر الضابط، ويثني على الحكومة، ويدعو بطول البقاء لولي الأمر، ثم نظر إلى هشام وهو يقول: «أمك تسلِّم عليك، وتقول لك كن صادقاً كما عهدتك دائماً... فلا خوف على الصادق...»، ثم

نظر إلى الضابط، الذي كان يبتسم وقد وضع أصابع يديه في مقابل بعضها، وهو مسترخ على كرسيه، وعاد بنظره إلى هشام من جديد قائلاً: «لا تقلق ولا تخف يا بني... كل شيء سوف يكون على ما يرام إن شاء الله...». كان يعلم أن أباه لا يعني ما يقول، فقلقه وخوفه أضعاف ما يحس به، ولكنه يحاول تشجيعه بعد أن انتهى كل شيء. ثم مدَّ يده إلى جيبه، وأخرج رزمة من العشرات، دفعها إلى ولده وهو يقول: «لقد سلَّموني حقيبتك اليدوية اليوم... وأنا أعلم أن الحكومة ما تقصِّر... خُذ هذا المبلغ، لعلَّك تحتاجه...»، وهنا تدخَّل الضابط قائلاً: «يا سيد أبو هشام، لا لزوم لذلك. فهو محفول مكفول... لا تحمل هماً»، «معك حق يا سيادة العقيد... أعز الله الدولة... ولكن زيادة الخير خيرين»، قال الوالد وهو يحاول الإبتسام. وهزَّ الضابط رأسه وهو يقول: «لا بأس... لا بأس، رغم أنه لا حاجة لذلك... صدقني يا سيد إبراهيم»، ثم ضغط على الزر بجانبه، وعاد الشاويش عطية وهو يضرب الأرض بقدمه، فقال له الضابط: «رافق السيد إبراهيم إلى الخارج»، ونهض الوالد، واحتضن هشام، وقبَّلا بعضهما، ثم اختفى وراء الباب، وهشام يحس أن قلبه قد انخلع من مكانه، فلأول مرة يرى الدموع في عيني أبيه...

بقي فترة لا يعلم مداها وهو واقف ينظر إلى الباب، غير شاعر بأي شيء حوله، وطيفا والديه يحتلان كل خلية في رأسه، حتى أعادته قدم الشاويش عطية إلى المكان والزمان والعقيد يأمره بإرجاعه إلى الغرفة، ثم يقول له: «لا تؤذي نفسك يا هشام... كما قلت لك، الصدق منجٍّ... سوف تعترف هناك بكل شيء، بطريقة أو أخرى... فلا تؤذي نفسك يا بني»، ثم عاد إلى ملف أمامه...

ـ ٥٤ ـ

كانت الحقيبة الصغيرة تحتوي على ثوبين نظيفين، وغترتين وطاقيتين، ونعلين بلاستيكيين، وملابس داخلية، وقطعة صابون، ومعجون وفرشاة أسنان. عندما عاد إلى الغرفة، ذهب إلى الحمام مباشرة حيث استحمَّ ولبس ملابس نظيفة، أحسَّ بعدها بشيء من الراحة. ثم أعطى الحارس خمسة ريالات وطلب منه أن يشتري علبتي سجائر، وكوب شاي ساخن، وأن يحتفظ بالباقي، ولم يتردَّد الحارس هذه المرة، فنادى أحد الجنود من تحت. وما هي إلا لحظات وكان يتمتَّع بكوب شاي ساخن، وسيجارة، في الوقت الذي كانت الشمس تنتحر مرة أخرى في مياه الخليج.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلاً، عندما سمع جلبة عند باب الغرفة، ثم فتح الباب، كان يقف أمام النافذة ينظر إلى أنوار البحرين البعيدة، وكل الوساوس والأفكار تتصادم في رأسه، وهو يصيخ السمع لعلَّه يسمع ذلك الصوت الشجي وهو يغنِّي من جديد، ولكن كل صوت كان قد اختفى، ولم يبقَ إلا الصمت المطبق، والسكون يفرض نفسه على صفحة الخليج. دخل رجلان بملابس مدنية وبيد أحدهما ورقة كان ينظر فيها وهو يقول: «هشام إبراهيم محمد العابر... أليس كذلك؟»، فأجاب بهزَّة من رأسه، فأمره الرجل أن يستعد للرحيل. «إلى أين؟...»، سأل هشام، فأجاب الرجل دون اكتراث: «إلى حيث نذهب... هيا... لا وقت لدينا». ارتدى طاقية وغترة، وحشر قدميه في النعلين، وحمل حقيبته، وانطلق الجميع إلى الخارج، حيث كانت سيارة الجيب تنتظر هناك. وقبل أن تتحرَّك السيارة، مدَّ أحد الحارسين يده إلى درج السيارة وأخرج منه «كلبشات» فولاذية، ناولها للحارس الآخر في المقعد الخلفي

الذي وضعها بسرعة في يدي هشام الجالس بجانبه. أحسَّ أن حية قد التفَّت حول معصميه وأخذت تنفذ سمَّها في عروقه، وهو عاجز عن فعل أي شيء سوى انتظار الموت البطيء الذي لا يريد أن يأتي، ولا يريد أن يرحل. البرودة محيطة بكل شيء، وأعضاؤه ترتعد بشدَّة، رغم الحرارة والرطوبة الخانقة. وطوال الطريق إلى المطار، كانت الصور تتوالى في ذهنه بسرعة عجيبة، وكأن صوت محرِّك السيارة الرتيب كان محفزاً لها على التوارد بهذا الجنون... كل حياته ومعارفه وأصحابه والدمّام والرياض، كانت تتحوَّل إلى مجرَّد صور سريعة يستفرغها ذهنه بسرعة جنونية... وبرز من كل تلك الصوَر، طيف سوير وقد انتفخ بطنها، فأحسَّ بغثيان وألم يعصره من الداخل عصراً.

وبدأ مبنى المطار الأنيق يلوح في الأفق... إنه يعلم الآن أنهم مسافرون إلى جدَّة، أجمل المدن وعروسها. لا زال يذكر جمال جدَّة ودماثة أخلاق أهلها، عندما ذهب مع والديه قبل أكثر من سنتين للحج. كل شيء كان جميلاً في الحج... السعي والطواف، والإقامة في منى، وذبح الخراف في صبيحة يوم العيد. ولكن ألذ من كل ذلك كان جدَّة وجمالها وتلك الأماكن الجميلة التي لا تجدها في أية مدينة أخرى. ولا يقارب جدَّة في جمالها إلا الخُبَر، وإن كان الفرق كبيراً. لقد اكتشف أن الخُبَر ليست خُبَراً واحدة. فالخُبَر التي يعرفها، وكانت مرتع صباه وتلك الأيام الجميلة مع أصحابه، تكشَّفت عن خُبَر أخرى لا يعرفها... خُبَر مخيفة لا جمال ولا روح فيها، فهل تكون جدَّة الأخرى بذات البشاعة، أم أشد بشاعة؟... ويبدو أن الله والشيطان ليسا في الكون وحده، بل هما في كل نفس بشرية، وفي كل مدينة ومكان. لا بد للجمال من قبح، ولا بد للخير من شَر... فأية صورة أخرى سوف تتبدَّى فيها جدة

الجميلة؟... أية صورة أخرى سوف تكون عليها العروس حين تنزع ثوب عرسها... إنه خائف من مجرَّد التصوُّر.

طوال ساعتي الرحلة، لم يتوقَّف عن التدخين، وهو ينظر إلى الظلام المحيط من النافذة، وكأنه ينظر إلى داخل نفسه. لم يكن في الدرجة الأولى غيره وغير الحارس، فيما أصوات الضحكات تأتي من الدرجة السياحية. لكم تمنَّى أن يركب الدرجة الأولى في الماضي، ولكنه لم يعلم أن أمنيته سوف تتحقَّق بهذا الشكل، وهو يتمنَّى اليوم لو كان في الدرجة السياحية مع أصحاب الضحكات الصافية، بل تمنَّى لو كان حتى مشحوناً مع العفش، أو متعلِّقاً بجناح الطائرة، فقد كره كل المراتب الأولى...

وبدأت جدَّة تظهر أسفل الطائرة... يا الله ما أجملها... جوهرة مضيئة وقد تكسَّرت أنوارها على صفحة الماء الصافية حولها، في لوحة لا أجمل ولا أبهى. لقد سافر إلى بيروت ودمشق وعمان، ولكن ليس هناك مدينة تضاهي جدَّة في جمالها ودفئها وطيب أيامها ولياليها... ولكن جدَّة التي يعرف، ليست جدَّة التي هو قادم إليها الآن... إنها جدَّة أخرى... جدَّة لا يراها كل أحد، وقُدِّر عليه أن يراها وليته لم يقدَّر له ذلك... إنه خائف من جدَّة بمقدار سروره بها عندما زارها لأول مرة... كيف يتحوَّل المكان ذاته إلى خوف وسرور في الوقت ذاته؟!... وأخذت الطائرة تهبط وقلبه تتسارع دقاته مع الإقتراب من أرض المطار... إن جوف جدَّة المجهول ينتظره هناك، وهو لا يعرف عنه شيئاً، وكل الخوف من ذلك المجهول.

نهاية الجزء الثاني

قاظ محلية

روة في جانبها، وتسمَّى «إستكانة» في بعض

خليج غالباً.

س والكتفين والصدر، تستخدمان في نجد.

باً، وتستخدم الكلمة في الخليج.

في منطقة الخليج.

والخليج، يسمونه منديلاً أو كوفية في الشام

الحنطة التي تقطع إلى قطع صغيرة، وتُطبخ
طم.

مطازيز: المرقوق ذاته ولكن بقطع مستديرة وسميكة.

جريش: حنطة مجروشة تُطبخ مع اللحم والخضار.

قرصان: خبز رقيق تُصب عليه مرقة اللحم والخضار، وهو الثريد غالباً.

كبسة: مرقة شعبية من الأرُز واللحم المطبوخان بمرقة الطماطم.

عقود: مرقة المرقوق والمطازيز قبل أن يلقى فيها العجين.

مصابيب: قطع صغيرة من العجين تُخبز على الصاج، وتؤكل عادة مع الزبدة، وهي شبيهة «بالبان كايك».

قفر: لحم مجفَّف، قديد.

قرص نار: رغيف خبز كبير، يُخبز تحت الرمال من أثر النار.

كليجا: قرص من دقيق القمح، أو النخالة، مع السمن والسكر والليمون الأسود وحب الهال، يطلى بالدبس وحبات الهال من داخله بعد النضوج.

قرص عقيل: نوع من الكعك يُصنع من دقيق القمح والسمن والسكر، ويُخبز في الفرن. كان العقيلات يأخذونه معهم في رحلاتهم.

باقلا (باجلا): حبات الفول الكبيرة المطبوخة.

شكشوكة: بيض بالطماطم.

جام: مربى.

قريض: مكسرات، وخاصة الحمص المحمَّص (القضامة).

غبق: معقد، صعب.

حنبل: بساط.

تمطق: تلمَّض بصوت مسموع.

بلوت: لعبة ورق محلية.

تبي: تريد، ترغب.

الشرهة عليك: أنت الملوم، الشرهة = الملامة، وفي بعض الإستعمالات، الشرهة = العطية، وعادة من علية القوم.

كشتة: رحلة، «بيكنيك».

الرمث: نوع من الحطب.

السمر: نوع من الحطب الجيد.

قدحة، وجمعها قداح: حروق صغيرة في اليد تفعل عمداً للإعتقاد أنها تجعل اليد أكثر ثباتاً، وذلك بوضع قطعة قماش صغيرة أو ما شابهها، على المكان المراد ثم إشعالها، وتحمُّل ذلك حتى تنطفىء النار من ذاتها.

سنة السبلة: هزيمة الأخوان في المعركة ضد الملك عبدالعزيز عام ١٩٢٩.

المحكمة: حيث يجلس الضيف أو كبير السن، وهو صدر المجلس قريباً من الوجار حيث معد القهوة والشاي.

سعابيل: لعاب.

ماصة: طاولة.

زمزمية: وعاء تُحفظ به السوائل الحارة عادة للحفاظ على حرارتها.

طرثوث: نبات صحراوي ينمو عشوائياً بعد الأمطار، على شكل عصاً غليظة تبزغ من الأرض شيئاً فشيئاً، وتسمِّيه العامة «قضيب» الأرض.

خبي: نسبة إلى «خب» وهو القرية الصغيرة الواقعة في واحة بين كثبان

الرمال.

جيب غراب: منطقة رملية وعرة بين الرياض والقصيم.

نفنوف: فستان، وتُستخدم الكلمة في الخليج.

المقلط: غرفة الطعام.

الشبة: إجتماع دوري بين مجموعة من الأصحاب، ويكون في الليل عادة.

معاميل: أدوات الطبخ وعمل الشاي والقهوة ونحوها.

الدواب: الزواحف الضارة، وخاصة الأفاعي والعقارب.

الأرزاق: المؤن.

مهفة: مروحة يدوية.

بادية: وعاء عميق تُوضع به بعض الأكلات الشعبية.

الدركسون: مقوَد السيارة.

طمل: قذر، غير مرتَّب.

حاشي: صغير الإبل.

تبسي: طبق كبير.

العزبة: مجموعة العزاب الذين يعيشون سوياً.

قز: موقد الغاز.

يسري: يغادر في آخر الليل.

الجماعة: المنتمين إلى بلدة واحدة.

عاصوف: دوامة التراب الصحراوية.

سيترول: سويت ـ رول (الدانش).

طماطاجوز: عصير الطماطم.

عرنجوز: عصير البرتقال.

حوطة: أرض خالية مسورة.

يفزع: يهب لنجدته.

الدشر: الصيع